غزوات الرسول ﷺ

دروس في آداب الحرب والسلام

محمد مسعد ياقوت

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

غزوات الرسول ﷺ

دروس في آداب الحرب والسلام

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

ياقوت، محمد مسعد

غزوات الرسول ﷺ: دروس في آداب الحرب والسلام/ محمد مسعد ياقوت - ط١ - القاهرة. دار النشر للجامعات، ٢٠٠٨.

٢٨٠ص، ٢٤سم.

تدمك ٠ ٢٦٨ ٣١٦ ٩٧٧

١ - غزوات النبي ﷺ

٢ - السيرة النبوية - عصر الجهاد في سبيل نشر الدعوة

أ- العنوان ٢٣٩,٤

تاريخ الإصدار: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م

حقوق الطبع: محفوظة للناشر

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٧٧٤٨

الترقيم الدولي: ISBN: 977-316 - 268 -0

الكود: ٢/٢١٩



دار النشر للجامعات

ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨

ت: ٢٦٣٤٧٩٧٦ - ٢٦٣٢١٧٥٣ ف: ٢٦٤٤٠٠٩٤

E-mail: darannshr@link.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

فيأتي موضوع هذا الكتاب، في وقت تُنتهك فيه الحرمات وتُداس فيه كرامة الإنسان في حروب سميت من قبل أصحابها بالحروب القذرة، وقد صدقوا وأحسنوا اختيار تسميتها، فهي قذرة في أهدافها وقذرة في وسائلها، وقذرة في منهجها..

ويأتي هذا الموضوع كالماء للأرض الظمأى، فأحرى لهذا العالم أن يقف وقفة تأمل مع سيرة النبي ﷺ في هذا الباب.

لقد رأيت أن أقوم بإلقاء الضوء على غزوات النبي ﷺ ودراسة مبادئ وآداب الحروب وآدابها في سيرته المباركة، وذلك بأسلوب سهل ويسير، من خلال عرض ملخص للغزوة ثم الوقوف على أهم الأحداث والمواقف التي نستخلص منها دروسًا وأحكامًا في آداب الحروب.

كما استشهدتُ بأقوال علماء الغرب المنصفين في مواضع كثيرة من البحث، لندلل على أن عقلاء الغرب لم يخف عليهم سابقة رسول الله ﷺ في ترسيخ قيم

أخلاقية سامقة في ميدان الحرب . . ومن ثم حملت القلم بلغة يفهمها الغرب ، أملاً في أن تصل رسالة هذا الكتاب إلى جماهير الشعوب الغربية ، لاسيما في ظل حملة التشويش والإساءة التي تولى كبرها الإعلام الغربي الصهيوني في حق خير البرية ﷺ .

إضافة إلى استخدام الكتاب أسلوب المقارنة في بعض المشاهد؛ ليُظهر سماحة الفتح النبوي وبشاعة الغزو الصليبي .

كما استعنتُ في مادة الكتاب بالعديد من الاتفاقات الدولية فيما يتعلق بالحرب وأسرى الحرب والجرحى ، وذلك لبيان سماحة الإسلام وسابقة نبي الإسلام ﷺ في هذا الباب .

١- أهمية الكتاب:

تنبع أهمية هذا الكتاب ؛ من كونه رسالة تعريف مبسطة لنبي الإسلام وأخلاقياته وآدابه في الحرب كقائد سياسي وعسكري ، في وقت تكالبت فيه الأقلام المسمومة والألسنة الحاقدة للنيل من مكانة رسول الله ﷺ .

والدراسة إذ تُسْهِم بمحاولة توضيح صورة نبي الإسلام للعالم ، تنطلق من الإيمان بأهمية شهادات العلماء الغربيين المنصفين لنبي الإسلام ﷺ .

٢- أسباب اختيار هذا الموضوع:

أما عن سبب اختياري لهذا الموضوع ؛ فهذا لأنه يأتي في سياق إظهار الجانب الإنساني في السيرة المباركة ، والذي يغفله أو يجهله الكثير من الغربيين . نرى هذا واضحاً في كتاباتهم ووسائل إعلامهم .

ومما دفعني أيضاً للكتابة في هذا الموضوع ؛ قلة الكتابات والأبحاث التي تتحدث عن المنهج الأخلاقي العملي في السيرة النبوية بشكل عام . . والمنهج الأخلاقي العملي في غزوات ومعارك السيرة بشكل خاص .

٣- أهداف الكتاب:

أ) التعريف بالسيرة العسكرية للنبي ﷺ وترسيخ اقتداء الأمة بنبيها في الجانب العسكري .

ب) إظهار جوانب الرحمة والعدالة والسماحة والخُلق الكريم في شخصيته ﷺ، وحسن معاملته مع مختلف الشعوب والأمم، والتي تتجلى في أوقات الحروب والمحن.

ج) دحض الافتراءات والشبهات حول معارك النبي ﷺ.

٤- منهج الكتاب:

جمع الكتاب بين المنهج الاستقرائي - حيث حشد الآثار والنصوص في الموقف الواحد - والمنهج التحليلي - حيث استخلاص القيم الأخلاقية في المواقف الحربية.

هذا، واعتمدتُ الأسلوب الآتي عند التوثيق والاستشهاد بالنصوص:

١- اقتصرت في بعض الأحاديث الطويلة على ذكر الجزء الذي يبين الشاهد.

٢- عزوت الآيات إلى سورها وأرقامها في المصحف الشريف، إلى جوار الآية وليس في هامش الصفحة.

٣-خرّجتُ الأحاديث من مظانها، فذكرت اسم الراوي، ثم الكتاب والباب ورقم الحديث [مثال: صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب الجعد (٥٤٥٥)]، وفي حال كتب السنة غير المبوبة تبويبًا فقهيًا أكتفي بذكر المرجع ورقم الحديث [مثال: الطبراني في الكبير (٢٦٨)].

٤- إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما، فأكتفي بهما عن غيرهما، أما إذا كان في غيرهما فأُخرِّجه من كتب الحديث الأخرى، ثم أبين درجة الحديث مستعينًا - في مسألة الحكم على الأحاديث - بكتب الشيخ شعيب الأرناؤوط والشيخ عبد القادر الأرناؤوط والأستاذ أحمد شاكر، والشيخ محمد ناصر الدين الألباني - رحمهم الله جميعًا.

٦- في توثيق المراجع، أبدأ بذكر اسم المؤلف ثم المرجع ثم رقم الصفحة وذلك في كل هامش أسفل الصفحة [مثال: ابن القيم: زاد المعاد، ٢/ ٣٣]، ثم آتي في قائمة المراجع في آخر البحث وأذكر المصدر إضافة إلى مكان النشر ورقم الطبعة وسنة النشر، وكذلك بيانات التحقيق والترجمة والتقديم إن وجدت [مثال:

ابن القيم (محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي): زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة عشر، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٦م].

٧- في حال وجود مرجع وحيد لمؤلف، أكتفي بذكر اسم المؤلف ورقم الصفحة [مثال: عبد الله محمد الرشيد ٢٨٢]، على أن أكتب في قائمة المراجع بيانات المرجع كاملة [عبد الله محمد الرشيد: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ، دمشق: دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٠م].

٩- في توثيق الأحاديث أذكر رقم الحديث بين قوسين [مثال: مسند الحميدي (١٥٧)] وفي توثيق الأحداث والنصوص الأخرى أذكر رقم الصفحة دون وضع الأرقام بين أقواس [مثال: ابن حزم: جوامع السيرة ١٤٤].

١٠- فرَّقتُ بين ما هو "حديث شريف" وما هو " موقف في السيرة"، فالأول أقوم بتخريجه تخريجًا حديثيًّا مع بيان درجة الحديث، والثاني أعزوه إلى كتب السيرة بطريقة التوثيق المتعارف عليها وكما بيَّنتُ في الفقرة السالفة.

٥- الدراسات السابقة:

كُتب السيرة أولاً - على أساس أن الدراسة تقوم في ظلالها - وقد استفدت منها في جمع مادة البحث، وعلى رأسها الأبواب المتعلقة بالسير والمغازي في الكتب الصحاح والسنن، وكتب السيرة العريقة التي تناولها أمثال ابن إسحاق، وابن هشام، وابن كثير، وابن سيد الناس، وابن حزم، وابن القيم، والصالحي. ومن الدراسات والكتب الحديثة كالرحيق المختوم، والسيرة النبوية لأبي فارس، والسيرة النبوية للصلاّبي، وفقه السيرة للغزالي، وفقه السيرة للبوطي، والسيرة النبوية للندوي.

إلى جانب الدراسات العربية، تأتي الأدبيات الغربية المنصفة، وكتابات وبحوث مثل (إنسانية الإسلام) لمارسيل بوازار، و(دفاع عن الإسلام) للورا فيشيا فاغليري، و (حياة محمد) لإميل درمنغم، و(الأبطال) لكارلايل، وكتاب (الدعوة إلى الإسلام) لتوماس آرنولد، وكتاب (حضارة العرب) لجوستاف لوبون و(شمس الله تسطع على الغرب) لزيغريد هونكه، وغيرها من الكتابات الغربية.

أما في موضوع "آداب الحروب" في سيرة النبي ﷺ خاصة، وهو موضوع الكتاب فقد وقعت على بعض مقالات وبحوث مختصرة لا تفي بالغرض، ليس غير.

ولم أعثر - فيما اطلعت عليه - على دراسة معمقة أو بحث محكم يتناول آداب الحروب في سيرة النبي ﷺ بالشمول والعلمية والاستقلال الذي سار عليه الكتاب، وهذه النتيجة أقولها في حدود علمي وبحسب اطلاعي والله أعلم.

فهذا هو جهدي المتواضع..

وأسأل الله أن يتقبله، وأن يهدي وينفع به.

وما كان فيه من توفيق أو صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ أو ذلل أو نسيان فهو مني.. والله ورسوله منه براء.

محمد مسعد ياقوت - مصر

فصل تمهيدي
تعريف موجز بصاحب السيرة الميمونة ﷺ
المبحث الأول
من هو محمد ﷺ ؟

المطلب الأول: الميلاد والنشأة:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، القرشي والذي يمتد نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم – عليهما السلام.

وللنبي ﷺ عدة أسماء، أشار إلى بعضها في أحد الأحاديث، فقال: " لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي (أي يُحشر الناس إثر بعثه)، وأنا العاقب[١]" (والعاقب الذي ليس بعده نبي).

يقول المؤرخ الأمريكي رالف لنتون: "ولد محمد ﷺ في مكة [٢٠ أبريل ٥٧١م] من عائلة ذات مركز حسن، ولكنَّ أباه مات قبل ولادته، كما ماتت أمه عندما كان في السادسة من عمره.. وفي السنوات الأولى من سن المراهقة كان يعمل راعياً.. وعندما بلغ السابعة عشرة[٢] من عمره ذهب إلى سوريا مع عمٍّ له[٣]- بقصد التجارة، وعندما أصبح في الرابعة والعشرين كان ينوب عن أرملة غنية – هي السيدة خديجة – في السفر بقافلتها التجارية، وبعد عام آخر- أي في عام ٥٩٥م – تزوج تلك الأرملة التي كانت في الأربعين من عمرها، وكانت قد تزوجت قبل ذلك مرتين، ولها من زوجيها السابقين ولدان وبنت. وولدت له هذه الأرملة ولدين ماتا عندما كانا طفلين[٤]، وأربع بنات. وفي السنوات الواقعة بين

---

(١) صحيح البخاري : كتاب المناقب – باب: ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (٤٥١٧).
(٢) الصحيح في سن ١٢ سنة (ابن الجوزي : تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧).
(٣) هو أبو طالب .
(٤) هما القاسم وعبد الله ، وقد ماتا في سن الطفولة قبل بعثة النبي ﷺ .

عامي ٥٩٥-٦١٠ م كان محمد تاجراً محترماً في مكة، وكان يلقب بالأمين نظراً لما اتصف به من صدق وحكمة في أحكامه "(١).

المطلب الثاني: أخلاق محمد ﷺ وصفاته:

أولاً: أخلاقه:

عاش النبي ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب - في بيت جده عبد المطلب زعيم مكة، ومن ثم نال حظاً وافراً من الفطنة والفكر السديد، ومعايشة قضايا العالم ومشكلاته ونزاعاته. فطالع النبي ﷺ صحائف البشرية وأحوال القبائل والجماعات والأحلاف، وقد كان النبي ﷺ في ذروة الإيجابية مع قضايا أمته، فهو عضو في " حلف الفضول " للدفاع عن المظلومين، ورفض كل صور الظلم، وأكل الحقوق بالباطل. كما إنه حكم عدل في فض النزاعات والمشكلات التي تحدث بين القبائل والعائلات. كان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلقًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وألينهم عَريكة، وأعفهم نفسًا، وأوفاهم عهدًا.. إنه - ببساطة شديدة - كما وصفته(٢) زوجته خديجة - رضي الله عنها- يصل الرحم، ويحمل الكل، ويُكسب المعدوم، ويُقري الضيف، ويُعين على نوائب الدهر.

١- الامتياز في الأخلاق:

يقول المستشرق آرثر جيلمان: "لقد اتفق المؤرخون على أن محمداً ﷺ كان ممتازاً بين قومه بأخلاق جميلة؛ من صدق الحديث، والأمانة، والكرم، وحسن الشمائل، والتواضع.. وكان لا يشرب الأشربة المسكرة، ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً" (٣).

٢- لم تشبه شائبة:

و يقول كارل بروكلمان:

"لم تشبْ محمداً ﷺ شائبة من قريب أو بعيد؛ فعندما كان صبياً وشاباً عاش فوق مستوى الشبهات التي كان يعيشها أقرانه من بني جنسه وقومه" (٤).

---

(١) رالف لنتون: شجرة الحضارة، ١/ ٣٤٠.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي (٣).

(٣) آرثر جيلمان: الشرق، ١١٧.

(٤) انظر: محمد عثمان عثمان: محمد في الآداب العالمية المنصفة، ١١٠.

٣- المفكر الخلوق:

ويتحدث توماس كارلايل[(١)] عن نبينا محمد ﷺ قائلاً:

"لوحظ على محمد ﷺ منذ صباه أنه كان شابًا مفكرًا وقد سمّاه رفقاؤه الأمين - رجل الصدق والوفاء - الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره. وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة.. وإني لأعرف عنه ﷺ أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام، فإذا نطق فما شئت من لبّ! وقد رأيناه ﷺ طول حياته رجلاً راسخ المبدأ، صارم العزم، بعيد الهم، كريمًا برًا رؤوفًا تقيًا فاضلاً حرًا، رجلاً شديد الجدّ مخلصًا، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة، جمّ البِشر والطلاقة حميد العشرة حلو الإيناس، بل ربما مازح وداعب، وكان على العموم تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق.. وكان ذكي اللب، شهم الفؤاد.. عظيمًا بفطرته، لم تثقفه مدرسة، ولا هذبه معلم، وهو غني عن ذلك.. فأدى عمله في الحياة وحده في أعماق الصحراء" [(٢)].

٤- أعظم الناس مروءة:

ويتحدث الباحث البلجيكي ألفرد الفانز: عن أخلاق محمد ﷺ فيقول:

"شب محمد ﷺ حتى بلغ، فكان أعظم الناس مروءة وحلماً وأمانة، وأحسنهم جواباً، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحش حتى عرف في قومه بالأمين، وبلغت أمانته وأخلاقه المرضية خديجة بنت خويلد القرشية، وكانت ذات مال، فعرضت عليه خروجه إلى الشام في تجارة لها مع غلامها ميسرة، فخرج وربح كثيراً، وعاد إلى مكة وأخبرها ميسرة بكراماته، فعرضت نفسها عليه وهي أيم، ولها أربعون سنة، فأصدقها عشرين بكرة، وتزوجها وله خمسة وعشرون سنة، ثم بقيت معه حتى ماتت" [(٣)].

٥- احترام الناس له:

ويتحدث الباحث الروسي آرلونوف، عن نبي الرحمة، ويقول:

---

(١) توماس كارلايل(١٧٩٥ - ١٨٨١ م) الكاتب الإنجليزي الشهير، من أعماله (الثورة الفرنسية) و(الأبطال) (١٩٤٠)، وقد عقد فيه فصلاً كاملاً رائعًا عن النبي ﷺ،..إلخ.

(٢) توماس كارلايل: الأبطال، ٥٠، ٥١.

(٣) انظر: محمد شريف الشيباني: الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، ١٧.

"اشتهر ﷺ بدماثة الأخلاق، ولين العريكة، والتواضع وحسن المعاملة مع الناس، قضى محمد ﷺ أربعين سنة مع الناس بسلام وطمأنينة، وكان جميع أقاربه يحبونه حباً جماً، وأهل مدينته يحترمونه احتراماً عظيماً، لما عليه من المبادئ القويمة، والأخلاق الكريمة، وشرف النفس، والنزاهة" (١).

٦- أقوال مَنْ عاصروه:

هذه بعض أقوال علماء الغرب المنصفين في حديثهم عن أخلاق محمد..

فماذا كانت أقوال من عاصروا النبي وكانوا معه كظله ؟

يقول علي بن أبي طالب:

"كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا مما يعنيهم ويؤلفهم، ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس عنهم، من غير أن يطوي عن أحد بشره وخلقه، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويصوبه، ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا، أو يملوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق، ولا يجاوزه إلى غيره، الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة: أحسنهم مواساة ومؤازرة" (٢).

"كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ (٣)، ولا غليظ ولا صخاب (٤) في الأسواق، ولا فاحش ولا عياب، ولا مداح يتغافل عما لا يشتهي، ويؤيس منه، ولا يجيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء (٥)، والإكثار، وما لا يعنيه وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحدا، ولا يعيره، ولا يطلب عوراته، ولا يتكلم ﷺ إلا فيما رجا ثوابه، إذا تكلم أطرق(٦) جلساؤه، كأنما على رءوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده الحديث من تكلم أنصتوا له، حتى يفرغ حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك مما يضحكون،

---

(١) آرلونوف : مقالة "النبي محمد"، مجلة الثقافة الروسية، ج ٧، عدد ٩.

(٢) أبو الشيخ الأصبهاني : أخلاق النبي ﷺ، ١٦.

(٣) **الفظ** : سَيئ الخُلُق.

(٤) **الصخَب** : الضَّجَّة، واضطرابُ الأصواتِ للخِصَام.

(٥) المراء : المجادلة العقيمة.

(٦) **أطرق** : أمال رأسه إلى صدره منصتًا.

ويتعجب مما يتعجبون ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه" [١].

"كان سكوت رسول الله ﷺ على أربع: على الحلم، والحذر، والتقدير، والتفكير، فأما تقديره ففي تسوية النظر، والاستماع من الناس، وأما تفكيره ففيما يبقى، ولا يفنى وجمع له الحلم في الصبر، فكان لا يغضبه شيء، ولا يستفزه وجمع له الحذر في أربع: أخذه بالحسن ليقتدى به، وتركه القبيح لينتهى عنه، واجتهاده الرأي فيما أصلح أمته، والقيام فيما هو خير لهم، جمع لهم خير الدنيا والآخرة" [٢].

كان " دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مشاح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤيس منه راجيه ولا يخيب فيه[٣]".

ثانيًا: صفاته:

١- كلام أنس ﷺ في وصف النبي ﷺ

قال أنس بن مالك ﷺ - خادم النبي ﷺ:

"كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل الْبَائِنِ وَلا بِالْقَصِيرِ، وَلَيْسَ بِالأَبْيَضِ الأَمْهَقِ، وَلَيْسَ بِالآدَمِ، وَلَيْسَ بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ [٤]، وَلاَ بِالسَّبْطِ[٥]، بَعَثَهُ الله عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ وَبِالمدينَةِ عَشْرَ سِنِينَ، وَتَوَفَّاهُ الله عَلَى رَأْسِ سِتِّينَ سَنَةً، وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعَرَةً بَيْضَاءَ" [٦].

" كان النبي ﷺ ضَخْمَ الْيَدَيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ، حَسَنَ الْوَجْهِ، لَمْ أَرَ بَعْدَهُ وَلاَ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَكَانَ بَسِطَ الْكَفَّيْنِ" [٧].

"كَانَ يَضْرِبُ شَعَرُ النبي ﷺ مَنْكِبَيْهِ" [٨].

---

(١) أبو الشيخ الأصبهاني: أخلاق النبي ﷺ، ١٦. (٢) أبو الشيخ الأصبهاني: أخلاق النبي ﷺ، ١٦.

(٣) الترمذي: مختصر الشمائل المحمدية ٢٤. (٤) **القطط**: الشعر فيه التواء وانقباض.

(٥) **السبط**: الشعر المسترسل.

(٦) صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب الجعد (٥٤٤٩).

(٧) صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب الجعد (٥٤٥٦).

(٨) صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب الجعد (٥٤٥٣).

٢- كلام ابن عباس رضي الله عنهما في وصف النبي ﷺ

" كان النبي ﷺ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ، وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَسْدِلُونَ أَشْعَارَهُمْ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرُقُونَ رُءُوسَهُمْ، فَسَدَلَ النبي ﷺ نَاصِيَتَهُ ثُمَّ فَرَقَ بَعْدُ " (١) .

٣- كلام البراء رضي الله عنه في وصف النبي ﷺ

" كان رسول الله ﷺ رجلاً مربوعًا(٢) ، بعيد ما بين المنكبين (٣)عظيم الجمة إلى شحمة أذنيه، عليه حلة حمراء، ما رأيت شيئا قط أحسن منه " (٤).

٤- كلام جابر بن سمرة رضي الله عنه في وصف النبي ﷺ

" رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضحيان [أي مضيئة مقمرة] وعليه حلة حمراء فجعلت أنظر إليه وإلى القمر فلهو عندي أحسن من القمر " (٥).

" كان رسول الله ﷺ ضليع الفم أشكل العين منهوس العقب " . قال شعبة: قلت لسماك: ما (ضليع الفم) ؟ قال: عظيم الفم. قلت: ما (أشكل العين) ؟ قال: طويل شق العين. قلت: ما (منهوس العقب) ؟ قال: قليل لحم العقب(٦) .

٥- كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصف النبي ﷺ

" لم يكن النبي ﷺ بالطويل ولا بالقصير، شثن الكفين والقدمين، ضخم الرأس، ضخم الكراديس (٧)، طويل المسربة (٨)، إذا مشى تكفأ تكفؤًا كأنما ينحط من صبب (٩)، لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ " (١٠).

٦- كلام أبي الطفيل رضي الله عنه في وصف النبي ﷺ

"رأيت النبي ﷺ وما بقي على وجه الأرض أحد رآه غيري " .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب اللباس، باب الفرق (٥٤٦٢) .

(٢) ليس بالطويل البائن ولا بالقصير . (٣) المنكب : مُجْتَمَع رأس الكتف والعضد .

(٤) صحيح – سنن الترمذي في الشمائل (٣) ، وصححه الألباني في مختصر الشمائل، ص ١٤ .

(٥) صحيح – سنن الترمذي في الشمائل (٨) ، وصححه الألباني في مختصر الشمائل، ص ٢٦ .

(٦) صحيح – رواه الترمذي في الشمائل (٧) ، وصححه الألباني في مختصر الشمائل، ص ٢٦ .

(٧) رؤوس العظام . (٨) المَسرَبة: الشعر الدقيق الذي يبدأ من الصدر وينتهي بالسرة.

(٩) الصبب: انخفاض من الأرض.

(١٠) صحيح – رواه الترمذي في الشمائل (٤) ، وصححه الألباني في مختصر الشمائل، ص ١٥ .

قيل له: صفه لي. قال: " كان أبيض مليحًا مقصدًا " [١].

٧- كلام أبي هريرة ﷺ في وصف النبي ﷺ

" كان أحسن الناس (صفة و أجملها كان) ربعة [٢] إلى الطول ما هو، بعيد ما بين المنكبين، أسيل الخدين، شديد سواد الشعر، أكحل العينين، أهدب الأشفار، إذا وطئ [٣] بقدمه وطئ بكلها، ليس له أخمص إذا وضع رداءه عن منكبيه فكأنه سبيكة فضة (وإذا ضحك يتلألأ) [٤].

٨- كلام أم مَعْبَدٍ في وصف النبي ﷺ

قالت أُمّ مَعْبَدٍ تصف رسول الله لزوجها، لما مر بها في رحلة الهجرة:

"رَأَيْتُ رَجُلا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ. أَبْلَجَ الْوَجْهِ [٥].. حَسَنَ الْخَلْقِ. لَمْ تَعِبْهُ ثُجْلَةٌ. وَلَمْ تُزْرِ بِهِ صَعْلَةٌ، وَسِيمٌ، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ [٦]، وَفِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ [٧]، وَفِي صَوْتِهِ صَهَلٌ [٨]، وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ [٩]، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ [١٠]، أَزَجُّ [١١] أَقْرَنُ.

إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَاهُ وَعَلاهُ الْبَهَاءُ.

أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُ مِنْ بَعِيدٍ، وأَحْلاهُ وَأَحْسَنُهُ مِنْ قَرِيبٍ..

حُلْوُ الْمِنْطَقِ، فَصْلٌ لا هَذِرٌ وَلا تَزِرٌ [١٢]، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتٌ [١٣] نَظْم يَتَحَدَّرْنَ.

---

(١) صحيح - رواه الترمذي في الشمائل (١٢)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل، ص ٢٧ .
(٢) **الربعة** : ليس بالطويل ولا بالقصير .
(٣) **وطئ** : وضع قدمه على الأرض أو على الشيء وداس عليه، ونزل بالمكان .
(٤) حسن- رواه البيهقي (٢٣٤): وحسنه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير (٨٧٦٢)، وما بين القوسين فهو ضعيف عنده . (٥) **أبلج الوجه** : مشرق الوجه مضيئه .
(٦) شدة سواد العينين مع سعتهما، دلالة على شدة جمال العينين .
(٧) في شعر أجفانه طول . (٨) فيه بحة، كانت تجمل الصوت .
(٩) طول . (١٠) **الكث** : الغزير والكثيف . (١١) الحاجب الرقيق .
(١٢) **الفصل** : البَيِّنُ الظاهر، الذي يَفْصِل بين الحقّ والباطل.
(١٣) الخرز : حبات تنظم في عقد تضعه المرأة في رقبتها لتتزين به، دلالة على تنسيق الكلام، وترتيبه، جمال العرض.

رَبْعٌ لا يَأْسَ مِنْ طُولٍ، وَلا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ . .

غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلاثَةِ مَنْظَرًا، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا، لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفُّونَ بِهِ، إِنْ قَالَ أَنْصَتُوا لِقَوْلِهِ، وَإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ.

مَحْفُودٌ (١) مَحْشُودٌ (٢) لا عَابِسٌ وَلا مُفَنَّدٌ (٣)" (٤).

المطلب الثالث: حال العالم عشية البعثة:

"بينما كان العالم الشرقي والعالم الغربي بفلسفاتهما العقيمة يعيش في دياجير ظلام الفكر وفساد العبادة، بزغ من مكة المكرمة في شخص محمد رسول الله ﷺ نور وضاء؛ أضاء على العالم فهداه إلى الإسلام" (٥).

فقد وُلد النبي ﷺ والبشرية تُعاني صنوف الجهل والتخلف والانحطاط الخلقي والحضاري. . العرب في الجزيرة العربية كانوا يعبدون الأصنام ويقتلون البنات ويتكسبون من وراء الزنى والدعارة. أما الشعب الفارسي فقد أدمن عبادة النار كما أدمن عبادة الطاغية كسرى، الذي كرث الطبقية والكراهية بين صفوف الشعب الفارسي. وهذا هرقل أجج الخلاف الطائفي بين الرومان فأخذ يذّبح من يخالفه في المذهب، فضلاً عن فساد السلطة الرومانية الحاكمة مالياً وإدارياً وسياسياً. حتى وصل بهم الحد أن فرضوا ضريبة على الشعوب تسمى " ضريبة الرأس" . وهي ضريبة يدفعها المواطن نظير ترك رأسه دون ذبح !

ومن ثم " فإننا نجد استعدادات عامة للانتحار الاجتماعي العام. لم يكن النوع البشري في ذلك الزمان راضيًا بالانتحار فحسب، بل كان يتساقط عليه، ويتهالك فيه" (٦).

وهكذا كان العالم يموج بالظلم والتخلف. إلى أن أرسل الله -تبارك وتعالى-

---

(١) **المحفود** : الذي يخدمه أصحابه . (٢) **المحشود** : الذي يجتمع إليه الناس .

(٣) **لا مفند** : يعني لا عابس ولا مكذب .

(٤) صحيح - رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٥٢٤)، والحاكم في المستدرك (٤٢٤٣)، والبيهقي في دلائل النبوة، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني(٣٠٨٣)، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح .

(٥) إبراهيم خليل أحمد (القس إبراهيم فيلوبوس سابقًا): محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، ٤٧ .

(٦) أبو الحسن علي الحسني الندوي : السيرة النبوية، ٤٦٧ .

هذا الصادق الأمين ﷺ.

ويبين هنري ماسيه [١]:

أن "بفضل إصلاحات محمد ﷺ الدينية والسياسية، وهي إصلاحات موحدة بشكل أساسي، فإن العرب وعوا أنفسهم وخرجوا من ظلمات الجهل والفوضى، ليعدّوا دخولهم النهائي إلى تاريخ المدنية" [٢].

المطلب الرابع: النبوة والوحي:

أولاً: شهادة الكتب السماوية السابقة

لقد أخبرت التوراة والإنجيل عن بعثة محمد ﷺ بشكل صريح تارة وبشكل فيه تلميح تارة أخرى:

ففي بشارة سفر العدد: ورد في قصة بلعام بن باعوراء أنه قال: "انظروا كوكباً قد ظهر من آل إسماعيل، وعضده سبط من العرب، ولظهوره تزلزلت الأرض ومن عليها". قال المهتدي الإسكندراني معلقاً: "ولم يظهر من نسل إسماعيل إلا محمد ﷺ، وما تزلزلت الأرض إلا لظهوره ﷺ. حقًّا إنه كوكب آل إسماعيل، وهو الذي تغير الكون لمبعثه ﷺ؛ فقد حرست السماء من استراق السمع، وانطفأت نيران فارس، وسقطت أصنام بابل، ودكت عروش الظلم على أيدي أتباعه" [٣].

وقد حُرف هذا النص في الطبعات المحدثة إلى: "يبرز كوكب من يعقوب، ويقوم قضيب من إسرائيل، فيحطم موآب، ويهلك من الوغى" [٤].

وفي سفر التثنية لما هُزمت جيوش بني إسرائيل أمام العمالقة، توسل موسى

---

(١) هنري ماسيه: ولد عام ١٨٨٦، عمل مديرًا للمعهد الفرنسي بالقاهرة، وعين أستاذ في جامعة الجزائر (١٩١٦-١٩٢٧)، وعضو في المجمع العلمي العربي بدمشق، وانتدبته الحكومة لعديد من المهام الثقافية واختارته اليونسكو في لجنة المستشرقين. من آثاره: كتاب (الإسلام) (١٩٥٧)، ونشر العديد من الأبحاث في المجلات الاستشراقية الشهيرة.

(٢) هنري ماسيه: الإسلام، ص ٥٥.

(٣) **انظر**: محمد بن عبد الله السحيم: أعظم إنسان في الكتب السماوية، فصل: بشارات العهد القديم بمحمد ﷺ، ص٢١، وما بعدها.

(٤) **انظر**: المصدر السابق.

إلى الله -سبحانه وتعالى- مستشفعاً بمحمد ﷺ قائلاً: "اذكر عهد إبراهيم الذي وعدته به من نسل إسماعيل أن تنصر جيوش المؤمنين، فأجاب الله دعاءه ونصر بني إسرائيل على العمالقة ببركات محمد ﷺ" وقد استبدل هذا النص بالعبارات التالية: "اذكر عبيدك إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولا تلتفت إلى غلاظة هذا الشعب وإثمه وخطيئته" ولا يمكن أن يكون هذا الدعاء - الذي في النص الأول - قد صدر من موسى -عليه السلام- لأنه ينافي كمال التوحيد(١).

وقال يوحنا في الفصل الخامس عشر من إنجيله: إن المسيح - عليه السلام - قال: "إن الفارقليط الذي يرسله أبي باسمي يعلمكم كل شيء" وقال - أيضا - في الفصل السادس عشر: "إن الفارقليط لن يجيئكم مالم أذهب، فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه شيئاً، لكنه يسوسكم بالحق كله، ويخبركم بالحوادث والغيوب"(٢).

ويقول عيسى -عليه السلام- في إنجيل برنابا: "لأن الله سيصعِّدني من الأرض وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إيّاي. ومع ذلك فإنه حين يموت شر ميتة أمكث أنا في ذلك العار زمنًا طويلاً في العالم ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس تزال عني هذه الوصمة"(٣).

هذا، وقد شهد بنبوة محمد ﷺ رجالات اليهودية، كأمثال الحبر عبد الله بن سلام، ورجالات النصرانية كورقة بن نوفل..

ليكونا حجة على كل يهودي أو نصراني إلى قيام الساعة!

ثانيا: شهادات علماء الغرب:

كما شهد بنبوة محمد ﷺ كبار المفكرين والباحثين الغربيين في العصر الحديث، ونذكر من هذه الشهادات:

١- شهادة واشنجتون إيرفنج

يقول الكاتب الأمريكي واشنجتون إيرفنج (١٧٨٣-١٨٥٩م):

"كان محمد ﷺ خاتم النبيين وأعظم الرسل الذين بعثهم الله؛ ليدعوا الناس

---

(١) **انظر**: المصدر السابق. (٢) **انظر**: المصدر السابق.
(٣) إنجيل برنابا، ٨٠: ١١٢.

إلى عبادة الله "[١].

٢- شهادة مارسيل بوازار

ويثبت "مارسيل بوازار" نبوة محمد ﷺ بأسلوب عقلاني وعلمي بكلمات بليغة فيقول:

"منذ استقر النبي محمد ﷺ في المدينة، غدت حياته جزءًا لا ينفصل من التاريخ الإسلامي. فقد نُقلت إلينا أفعاله وتصرفاته في أدق تفاصيلها.. ولما كان مُنظمًا شديد الحيوية، فقد أثبت نضالية في الدفاع عن المجتمع الإسلامي الجنيني، وفي بث الدعوة.. وبالرغم من قتاليته ومنافحته، فقد كان يعفو عند المقدرة، لكنه لم يكن يلين أو يتسامح مع أعداء الدين. ويبدو أن مزايا النبي الثلاث، الورع والقتالية والعفو عند المقدرة قد طبعت المجتمع الإسلامي في إبان قيامه وجسّدت المناخ الروحي للإسلام.. "[٢].

ويضيف قائلاً:

" وكما يظهر التاريخ محمدًا ﷺ قائدًا عظيمًا ملء قلبه الرأفة، يصوره كذلك رجل دولة صريحًا قوي الشكيمة له سياسته الحكيمة التي تتعامل مع الجميع على قدم المساواة وتعطي كل صاحب حق حقه. ولقد استطاع بدبلوماسيته ونزاهته أن ينتزع الاعتراف بالجماعة الإسلامية عن طريق المعاهدات في الوقت الذي كان النصر العسكري قد بدأ يحالفه. وإذا تذكرنا أخيرًا على الصعيد النفساني هشاشة السلطان الذي كان يتمتع به زعيم من زعماء العرب، والفضائل التي كان أفراد المجتمع يطالبونه بالتحلي بها، استطعنا أن نستخلص أنه لابدّ أن يكون محمد ﷺ الذي عرف كيف ينتزع رضا أوسع الجماهير به إنسانًا فوق مستوى البشر حقًا، وأنه لابد أن يكون نبيًا حقيقيًا من أنبياء الله!! "[٣].

٣-شهادة إميل درمنغم:

أما إميل درمنغم [٤] فيدلل على نبوة محمد ﷺ، من خلال حادث وفاة إبراهيم

---

(١) واشنجتون إيرفنج، ص ٧٢. (٢) مارسيل بوازار، ص ٤٦.

(٣) مارسيل بوازار، ٤٦.

(٤) إميل درمنغم مستشرق فرنسي، من آثاره: (حياة محمد) (باريس ١٩٢٩) وهو من أدق ما صنفه=

ابن رسول الله ﷺ فيقول:

" . . ولد لمحمد ﷺ،[من مارية القبطية] ابنه إبراهيم فمات طفلاً، فحزن عليه ﷺ كثيرًا ولحّده بيده وبكاه، ووافق موته كسوف الشمس، فقال المسلمون: إنها انكسفت لموته، ولكن محمدًا ﷺ كان من سموّ النفس ما رأى به ردّ ذلك فقال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد. . " . فقول مثل هذا مما لا يصدر عن كاذب دجال. . " (١).

٤- شهادة لايتنر:

يقول لايتنر (٢):

" بقدر ما أعرف من ديني اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ﷺ ليس اقتباسًا بل قد أوحي إليه به ولا ريب بذلك طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحي من لدن عزيز عليم. وإني بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان تضحية الصالح الذاتي، وأمانة المقصد، وإيمان القلب الثابت، والنظر الصادق الثاقب بدقائق وخفايا الخطيئة والضلال، واستعمال أحسن الوسائط لإزالتها، فذلك من العلامات الظاهرة الدالة على نبوة محمد ﷺ وأنه قد أوحي إليه" (٣).

٥- شهادة لورافيشيا فاغليري:

أما الكاتبة الإيطالية لورافيشيا فاغليري (٤) فتقول:

"حاول أقوى أعداء الإسلام، وقد أعماهم الحقد- أن يرموا نبي الله ﷺ ببعض التهم المفتراة. لقد نسوا أن محمدًا ﷺ كان قبل أن يستهل رسالته، موضع الإجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته. ومن العجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل؛ كيف جاز أن يقوى محمد ﷺ على

=مستشرق عن النبي ﷺ ، و (محمد والسنة الإسلامية) (باريس ١٩٥٥).

(١) إميل درمنغم: حياة محمد، ص ٣١٨ .

(٢) لايتنر : باحث إنكليزي، حصل على أكثر من شهادة دكتوراه في الشريعة والفلسفة واللاهوت، وزار الأستانة عام ١٨٥٤، كما طوف بعدد من البلاد الإسلامية والتقى برجالاتها وعلمائها .

(٣) لايتنر : دين الإسلام ، ص ٤ ، ٥ .

(٤) لورا فيشيا فاغليري : باحثة إيطالية في التاريخ الإسلامي واللغة العربية .من آثارها: (قواعد العربية) (١٩٣٧)، و(الإسلام) (١٩٤٦)، و(دفاع عن الإسلام) (١٩٢٩).

تهديد الكاذبين والمرائين، في بعض آيات القرآن اللاسعة بنار الجحيم الأبدية، لو كان هو قبل ذلك رجلاً كاذبًا ؟ كيف جرؤ على التبشير، على الرغم من إهانات مواطنيه، إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحثه- وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة -حثًا موصولاً ؟ كيف استطاع أن يستهل صراعًا كان يبدو يائسًا ؟ كيف وفق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشر سنوات، في مكة، في نجاح قليل جدًا، وفي أحزان لا تحصى، إذا لم يكن مؤمنًا إيمانًا عميقًا بصدق رسالته ؟ كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه، ويدخلوا في الدين الجديد ويشدوا أنفسهم بالتالي إلى مجتمع مؤلف في كثرته من الأرقاء، والعتقاء، والفقراء المعدمين إذا لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق ؟ ولسنا في حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك، فحتى بين الغربيين يكاد ينعقد الإجماع على أن صدق محمد ﷺ كان عميقًا وأكيدًا" (١).

٦- شهادة روم لاندو:

ويكشف المفكر البريطاني روم لاندو زيف المكذبين لنبوة محمد ﷺ بقوله:

"كانت مهمة محمد ﷺ هائلة ! كانت مهمة ليس في ميسور دجال تحدوه دوافع أنانية، وهو الوصف الذي رمى به بعض الكتاب الغربيين المبكرين محمد العربي ﷺ . . . إن الإخلاص الذي تكَّشف عنه محمد ﷺ في أداء رسالته، وما كان لأتباعه من إيمان كامل في ما أُنزل عليه من وحي، واختبار الأجيال والقرون، كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد ﷺ بأيّ ضرب من الخداع المتعمد. ولم يعرف التاريخ قط أي تلفيق (ديني) متعمد استطاع أن يعمر طويلاً. والإسلام لم يعمر حتى الآن ما ينوف على ألف وثلاثمائة سنة وحسب، بل إنه لا يزال يكتسب، في كل عام أتباعًا جددًا. وصفحات التاريخ لا تقدم إلينا مثلاً واحدًا على محتال كان لرسالته الفضل في خلق إمبراطورية من إمبراطوريات العالم وحضارة من أكثر الحضارات نبلاً !" (٢).

---

(١) لورافيشيا فاغليري ٣٧، ٣٨ .

(٢) انظر: أرنولد توينبي ٣٣، ٣٤ .

المطلب الخامس: لمحة مختصرة عن سيرة النبي ﷺ:

أولاً: أول ما نزل عليه ﷺ:

كان أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة الرؤيا الصادقة واستمر ذلك ستة أشهر، ثم أكرمه الله -تعالى- بالنبوة، فجاءه الملك جبريل - عليه السلام - وهو في خلوته بغار حراء، وقرأ عليه النصف الأول من سور العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾[العلق].

يقول المفكر البلجيكي جورج سارتون: " صدع محمد ﷺ بالدعوة نحو عام ٦١٠م وعمره يوم ذاك أربعون سنة... مثل إخوانه الأنبياء السابقين [عليهم السلام].. "[(١)].

ثانيا: إسلام العالم والكاتب النصراني ورقة بن نوفل:

فبعدما استمع للنصف الأول من سورة اقرأ من فم رسول الله ﷺ:

قال ورقة فوراً: "هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى، يا ليتني فيها جذع، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك"، فقال النبي ﷺ: "أومخرجي هم؟". قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا[(٢)]، وأسلم ورقة، ليسجِّل التاريخ أن أول رجل يصدِّقُ محمداً ﷺ ويعتنق دينه هو عالمٌ نصراني.

ثالثا: أول من أسلم:

أمر الله رسوله ﷺ بتبليغ الدعوة سراً لمدة ثلاث سنين، فدعا قومه إلى الإسلام، فحاز قصب السبق صديقه ووزيره أبو بكر، وزوجته خديجة، وابن عمه علي بن أبي طالب، وخادمه زيد بن حارثة.

وهؤلاء نواة الإسلام، ومنهم انبثق الدين الإسلامي، وانتشر في الناس، وعم نوره في البقاع.

---

(١) جورج سارتون، ٢٩ - ٣١ .

(٢) صحيح - رواه البخاري، بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، برقم ٣ .

يقول رالف لنتون: " اجتذب الوحي الذي نزل على محمد ﷺ عدداً من الأتباع، وبدأ ينتشر بين الناس. . "[١].

رابعا: إيذاء المسلمين:

لما دخل النآسُ في دين الله واحداً بعد واحدٍ، وكثر أتباع محمد ﷺ فحينئذ ناصبه الوثنيون العداوة، فحمى الله رسوله ﷺ بعمه أبي طالب، لأنه كان شريفًا معظماً في قومه. . وأما أصحابه فمن كان له عشيرة تحميه امتنع بعشيرته، وسائرهم صَبَّ عليهم المشركون العذاب صبًّا، وفتنوهم عن دينهم فتوناً، منهم بلال بن رباح العبد الأثيوبي ، وعمار بن ياسر وأمه سمية وأهل بيته الذين عُذِّبوا في الله عذاباً شديداً، حتى قضى ياسر نحبه، ومرَّ أبو جهل بسمية - أم عمار - وهي تُعذب، فطعنها بحربة في فرجها فقتلها.

كما قام صناديد قريش بتعذيب العديد من النساء اللائي أسلمن[٢]، وضربن أروع الأمثلة في الثبات والصبر والاعتزاز بدعوة الإسلام، وكانت من بينهن زِنِّيرَةُ - أمَة رومية قد أسلمت فعُذبت في الله، وأُصيبت في بصرها حتى عميت-، وأسلمت جارية عمر بن مؤمل من بني عدى، فكان عمر بن الخطاب يعذبها. وهو يومئذ على الشرك. فكان يضربها حتى يفتر، وممن أسلمن وعُذبن أيضاً: أم عُبَيْس والنهدية وابنتها.

خامسا: الهجرة إلى الحبشة وإسلام ملك نصارى الحبشة:

ويتحدث العلامة آتيين دينيه[٣]، عن مأساة المسلمين في هذه الفترة، قائلاً:

" وامتلأت نفس محمد ﷺ حزناً، أمام هذه المآسي التي كان يتحملها ضعاف المسلمين الذين لا يجدون من يحميهم. حقاً إن شجاعة المعذبين والشهداء في سبيل الله برهنت على إسلامهم العميق، ولكنه رأى أن من الخير ألا يستمر هذا البلاء، فنصح الضعفاء ومن لم تدعهم الضرورة إلى البقاء في مكة بالهجرة إلى

(١) رالف لنتون : شجرة الحضارة، ١/ ٣٤١ .

(٢) انظر: صفي الرحمن المباركفوري، ص ٧١ .

(٣) باحث فرنسي ، أشهر إسلامه عام ١٩٢٧م وتسمى بناصر الدين، وكان شديد الهجوم على المستشرقين المعادين للإسلام، ومن آثاره : "الشرق كما يراه الغرب"، و" أشعة خاصة بنور الإسلام"، و "محمد رسول الله ".

الحبشة حيث المسيحيون، وحيث التسامح والعدل اللذان اشتهر بهما ملكها النجاشي "[١].

وهو ملك نصراني صالح، لا يُظلم عنده أحد. فأقام المهاجرون عند النجاشي على أحسن حال، فبلغ ذلك قريشاً فأرسلوا وفداً، ليكيدوهم عند النجاشي، وليخرجهم النجاشي خارج أرضه إلى المشركين فرجعوا خائبين. وأسلم النجاشي على يد رئيس الوفد الإسلامي الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب، بعدما قرأ على النجاشي آيات بينات من سورة مريم. وظلَّ المهاجرون عند النجاشي ينشر عليهم ظله وحمايته حتى رجعوا إلى المدينة المنورة سنة سبع للهجرة.

سادسًا: الحصار وعام الحزن:

اشتد أذى المشركين لرسول الله ﷺ، فحاصروه وأهل بيته في شِعب (وهو مكان بين جبلين في مكة يشبه السجن المفتوح) عُرف بشعب أبي طالب، وسُجن النبي ﷺ مدة ثلاث سنين، حتى بلغهم الجوع و الجهد وسُمع أصوات صبيانهم بالبكاء من وراء الشِعب، و بدأ حبس محمد ﷺ وأصحابه في هلال المحرم سنة سبع من البعثة وخرج من الحصار وله تسع وأربعون سنة، وبعد ذلك بأشهر مات عمه أبو طالب، ثم ماتت خديجة بعد ذلك بيسير، فاشتد أذى الكفار له، وتطاولوا عليه.

وفي شوال سنة عشر من النبوة (في أواخر مايو أو أوائل يونيو سنة ٦١٩ م) خرج إلى الطائف هو وزيد بن حارثة يدعو إلى الله -تعالى- وأقام به أياماً، فلم يجيبوه وآذوه وأخرجوه ورجموه بالحجارة حتى أدموا قدميه، وكان أشد يوم في حياته.

وفي ذي القعدة سنة عشر من النبوة (في أواخر يونيو أو أوائل يوليو سنة ٦١٩م) عاد رسول الله ﷺ ليستأنف الدعوة الإسلامية مرة أخرى في مكة.

سابعًا: دعوة القبائل ولقاء الأنصار:

أقام النبي ﷺ بمكة يدعو القبائل إلى الله -تعالى- ويعرض نفسه عليهم في مواسم الحج، وأن يؤوه حتى يبّلغ رسالة ربه ولهم الجنة ليس غير، فلم تستجب

---

(١) آتيين دينيه، ١٤٥ .

له قبيلة واحدة، فلما رأى الأنصار رسول الله ﷺ، وتأملوا أحواله، وقد سمعوا عنه من أهل الكتاب، قال بعضهم لبعض: "يا قوم! تعلمون والله! إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه!"[١]. وكان اليهود ينتظرون مبعثه ﷺ، ويحذرون قبائل يثرب من اقتراب موعد نبي.

ثامنًا: الهجرة إلى المدينة المنورة:

وبايع رسول الله ﷺ وفد الأنصار، ووعدوه أن ينصروه ويمنعوه - في المدينة المنورة - حتى يبّلغ رسالة الإسلام، ومن ثم أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة.

يقول الباحث الإنكليزي جان باغوت غلوب:

"ولم تنقض سبعة أسابيع أو ثمانية حتى كان جميع المسلمين قد هاجروا من مكة باستثناء النبي ﷺ نفسه وابن عمه علي بن أبى طالب وولده بالتبني زيد بن حارثة ورفيقه الأمين أبو بكر الصديق... وجدير بنا أن نعترف هنا بأن محمداً ﷺ أبدى جرأة منقطعة النظير ببقائه في مكة حيث لم يعد يحظى بحماية عمه أبى طالب كبير بني هاشم. وأدركت قريش خطورة ما وقع من تطور وهالهم أن المسلمين أخذوا يقيمون الآن في يثرب مجتمعاً متلاحم الوشائج خارجاً على نفوذهم وبعيداً عن متناول أيديهم، وأنهم شرعوا يكسبون أنصاراً إلى جانبهم من أبناء القبائل الأخرى الذين قد يتحولون إلى معاداة قريش. واجتمع كبار القوم في دار الندوة يتشاورون في أمر محمد ﷺ ورأى بعضهم أن محمداً ﷺ هو سبب كل ما يواجهونه من متاعب، وأن من الخير لهم لو تخلصوا منه في أسرع وقت ممكن قبل أن يتمكن من اللحاق بأصحابه في يثرب [المدينة المنورة] "[٢].

وبالفعل حاول صناديد قريش - كما يقول رالف لنتون " ممن كانوا يكرهون عائلة محمد ﷺ، ورأوا في تعاليمه ما يهدد مصالحهم، حاولت أن تغتاله؛ ولكنها لم تنجح في محاولتها. وهاجر محمد ﷺ والجماعة المخلصة القليلة من أتباعه إلى المدينة يوم ١٦ يولية ٦٢٢م وهو تاريخ مهم يجب ألا ننساه لأنه عام الهجرة

---

(١) ابن سيد الناس ١/ ٢٠٥، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ١٧٦، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٨.
(٢) جان باغوت غلوب، ٨٠، ٨١.

الذي يؤرخ به جميع المسلمين حتى الآن"[١].

وهناك في المدينة المنورة جمع الله على محمد ﷺ أهل يثرب من قبيلتي الأوس والخزرج أخوةً متحابين بعد قتال مرير وعداوة وقعت بينهم بسبب قتيل، فلبثت بينهم الحروب والصراعات مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأها الله بمحمد ﷺ، وألف بينهم؛ حتى صاروا أمة واحدة، ودولة واحدة، ولكن المشركين ازداد حنقهم على الإسلام وأهله، لاسيما بعد هذا التقدم الهائل لدعوة الإسلام، وقيام دولة للمسلمين، فشن المشركون المكيون على رسول الله ﷺ سلسلة من الحروب المتتابعة، ومن ثم أذن الله للمسلمين بالقتال للدفاع عن دينهم وأنفسهم ودولتهم الناشئة.. التي يحاول الوثنيون القضاء عليها في مهدها. فشنوا على المسلمين حروباً، كمعركة بدر (١٧ رمضان ٢هـ-١٣مارس٦٢٤م)، ومعركة أُحد (شوال ٣هـ-إبريل٦٢٤ م)، ومعركة الأحزاب (شوال ٥ هـ - مارس٦٢٧م).

ولقد بلغ عدد الغزوات التي قادها النبي ﷺ ٢٨ غزوة، منها ٩ غزوات دار فيها القتال بين الطرفين، والباقي لم يحدث فيها قتال، واستمرت هذه الغزوات من العام الثاني للهجرة حيث غزوة ودَّان (الأبواء) (صفر ٢هـ - أغسطس ٦٢٣ م). وحتى العام التاسع حيث غزوة تبوك (رجب ٩ هـ / أكتوبر٦٣٠م).

يقول المؤرخ لويس سيديو[٢]- معلقًا على هذه المعارك:

"فدفع الله شرهم، وهو أولى أن يحفظ نبيه ﷺ القائم بالدعوة له، وأحق أن يجعل كيدهم في نحورهم وما زال آخذاً بيمينه، حتى غنى له الزمن، وصفق له الدهر"[٣].

وعقب هجرة النبي ﷺ أسلم عدد من خيار علماء اليهود في المدينة، صدَّقوا

(١) رالف لنتون: شجرة الحضارة، ١/ ٣٤١.

(٢) لويس سيديو (١٨٠٨ - ١٨٧٦): مستشرق فرنسي. ولد وتوفي بباريس. كان أبوه (جان جاك إمانويل سيديو، المتوفي سنة ١٨٣٢) فلكيًا من المستشرقين أيضاً. وتخرّج في كلية هنري الرابع، وعين مدرس للتاريخ في كلية "بوربون" سنة ١٨٢٣. وهو صاحب كتاب "Histire des Arabes" ألّفه بالفرنسية، وأشرف علي مبارك باشا علىَ ترجمته إلىَ العربية، وسماه "خلاصة تاريخ العرب العام" ومن آثار "سيديو" أيضًا: "جامع المبادئ والغايات في الآلات الفلكية".

(٣) لويس سيديو: خلاصة تاريخ العرب ص ٥٤.

بمحمدٍ ﷺ واتبعوه بعد أن عرفوه بنعته الوارد في كتبهم، منهم الحبر اليهودي العلامة: عبد الله بن سلام - رضوان الله تعالى عليه.

تاسعا: الفتح وانتشار الدعوة:

واستطاع النبي ﷺ بعد حوالي ١٩ سنة - كلها معاناة وإيذاء من المشركين - أن ينتزع من قريش صلحاً سمِّي صلح الحديبية في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة (في مارس٦٢٨ م)، ليتفرغ للدعوة ونشر الرسالة، فبعث رسلاً سفراء من أصحابه، وكتب معهم كتباً إلى الزعماء والملوك، يدعوهم فيها إلى الإسلام، في رسائل وخطابات رفيعة المستوى، سامقة الذوق.

ونجح النبي ﷺ في دعوته على نطاق واسع، وانتشر الإسلام في الجزيرة العربية كالنار في الهشيم، وزالت الجاهلية بتقاليدها المتخلفة، وعقائدها الفاسدة.

وفتح رسول الله خيبر معقل الدس والمؤامرات في المحرم سنة ٧ هـ (مايو ٦٢٨م).

ثم فتح مكة في رمضان ٨ هـ (يناير ٦٣٠ م) إثر نقض قريش للعهد، وأصدر عفواً عاماً عنهم. وأعلن الرسول ﷺ الأمان العام لكل الناس، فلا طوارئ ولا تعسف، فقال ﷺ: "من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ! ومن أغلق بابه عليه فهو آمن! ومن دخل المسجد فهو آمن !"[١]. وعهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم بدخول مكة ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم[٢].

" فما إن أُقر السلام؛ حتى انتشر الإسلام في كل ناحية، بخطى واسعة، لا . . ! لقد بدا وكأن قوة غير منظورة كانت تعمل على إدخال الناس في دين الله أفواجاً بعد أفواج "[٣].

وحُطمت الأصنام، وسقطت رموز الوثنية، وتوحدت الشعوب والقبائل المتناحرة، وخرج العربي من عبادة العباد إلى عبادة الخالق رب العباد، وألغيت الطبقيات والعصبيات والنعرات الجاهلية، وانتشر العدل والسلم والأمن.

---

(١) ابن سيد الناس ٢ / ١٨٨ . (٢) ابن سيد الناس ٢ / ١٩٤ .

(٣) مولانا محمد علي : حياة محمد ﷺ وسيرته ، ص٢٢١ .

وأصبحت دولة الإسلام مهيبة قوية أمام قوى الفرس والرومان.

ولما اعتدى عامل الرومان شرحبيل بن عمرو الغساني وقَتل سفير النبي ﷺ الصحابي السفير الحارث بن عمير الأزدي، عندما أرسله النبي ﷺ برسالة دعوية إلى عظيم بصرى في الشام، إذا بالنبي ﷺ يعلن التعبئة العامة، ويغزو حدود الرومان الجنوبية، في سرية مؤتة (جمادى الأولى ٨هـ - سبتمبر ٦٢٩ م)، وغزوة تبوك (رجب ٩ هـ - أكتوبر ٦٣٠م) التي ملأت قلب النظام الروماني بالفزع والهلع، من هذا القطب الدولي الثالث الناشئ المتمثل في دولة الإسلام.

عاشرًا: حجة الوداع، ووفاة النبي ﷺ:

بعد أن نجح النبي ﷺ في دعوته، وقويت دولة الإسلام، واستتب الأمن في الجزيرة العربية، ودخل الناس في الإسلام أفواجاً، وشاء الله أن يري رسوله ﷺ ثمار دعوته، التي عانى في سبيلها ثلاثة وعشرين عاماً، حافلة بالجهد والعمل والبلاء، وأحس رسول الله ﷺ بدنو أجله، ولذلك قصد نبي الله ﷺ الحج، ليجتمع بالأمة، فيأخذوا منه أصول الإسلام وكلياته، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة.

وفي اليوم التاسع من ذي الحجة (يوم عرفة) في العام العاشر من الهجرة (٦مارس ٦٣٢ م) وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وأربعون ألفاً من الناس، فقام فيهم خطيباً، وألقى خطبة بلغية جامعة تضمنت أول إعلانٍ عامٍ لحقوق الإنسان عرفته البشرية، أعلن فيها الإخاء والمساواة والعدالة وحرمة الدماء والأموال وحقوق المرأة، ووضع تقاليد الجاهلية الفاسدة، فألغى دماء الجاهلية، والمعاملات الربوية والنعرات الجاهلية.

وأهدى للبشرية أعظم وأحكم وأجمل شريعة في التاريخ، تلك الشريعة التي تحدث عنها العلامة "شبرل" [1] - مبديًا فخره واعتزازه بالنبي محمد ﷺ - قائلاً:

" إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد ﷺ إليها، إذ رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً؛ أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون؛ لو وصلنا

(١) عميد كلية الحقوق بجامعة "فيينا"، وقال هذه الجملة في مؤتمر الحقوق سنة ١٩٢٧ .

إلى قمته بعد ألفي سنة "[١].

وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، وسرعان ما أحس بالمرض ودنو الأجل.

وتُوفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول عام ١١هـ (٦يونيو٦٣٢م) وخلفه في حكم الدولة وزيره وصديقه الجليل أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم جميعاً - هذه لمحة سريعة جداً من سيرة النبي ﷺ، وهي غيض من فيض، كان لا بدَّ منها بين يدي الدراسة، ولتكون تمهيداً للحديث عن الغزوات وما يستفاد منها.

* * *

---

(١) انظر : عبد الله ناصح علوان ، ١٥٥ .

المبحث الثاني
أخلاقيات النبي ﷺ في أدبيات الغرب

المطلب الأول: شهادة إنجيل برنابا(١):

شهدت أدبيات الغرب وأشادت بأخلاق محمد ﷺ، ويأتي على رأس هذه الأدبيات إنجيل برنابا الذي بشر برحمة محمد ﷺ التي ينالها العالم عند قدومه من أرض الجنوب (الحجاز).

فيقول إنجيل برنابا: "سيأتي مسيا [أي محمد ﷺ] المرسل من الله لكل العالم، . . وحينئذ يسجد لله في كل العالم، وتنال الرحمة. . "(٢).

يقول القس إبراهيم فيلوبوس(٣):

" كلمة إنجيل كلمة يونانية تعني بشارة أو بشرى، ولعل هذا هو الذي نستفيده من سيرة سيدنا عيسى -عليه السلام- أنه كان بشرى من الله للرحمة، وبشرى بتبشيره عن المسيا الذي سيأتي للعالمين هدى ورحمة، ألا وهو محمد ﷺ "(٤).

(١) يقول المستشرق سايل : إن مكتشف النسخة الإيطالية لإنجيل برنابا هو راهب لاتيني يسمى "مرينو" . . .واتفق أنه أصبح حينا من الدهر مقربا من البابا "سكتس الخامس "، فحدث يوما أنهما دخلا معا مكتبة البابا العتيقة، فأخذ النوم هذا البابا ، فأحب الراهب مرينو أن يقتل الوقت بالمطالعة إلى أن يفيق البابا ، فكان الكتاب الأول الذي وضع يده عليه هو إنجيل القديس برنابا ، فخبأ هذا الإنجيل في ثوبه ، ولبث إلى أن إستفاق البابا فاستأذنه بالانصراف حاملاً ذاك الكنز معه ، فلما خلا بنفسه طالعه بشوق عظيم فاعتنق على إثر ذلك الإسلام . اهـ .وبعد اكتشاف هذا الإنجيل، شاع خبره في بداية القرن الثامن عشر فأحدث دوياً كبيراً، عند النصارى بشتى طوائفهم، وأجمعوا على محاربته وتكذيبه ، بل إن هذا العداء توارثته أجيال النصارى جيلاً بعد جيل ، بل قام أساقفة النصارى بتصنيف الردود على هذا الإنجيل الذي يبشر بشكل صريح جداً بمحمد ﷺ .

(٢) إنجيل برنابا ، ٨٢ : ١٦ - ١٨ .

(٣) أسلم وأطلق على نفسه اسم " إبراهيم خليل أحمد "، وهو حاصل على ماجستير في اللاهوت من جامعة برنستون الأمريكية .ومن كتبه (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن) و(المسيح إنسان لا إله) و(الإسلام في الكتب السماوية) و(اعرف عدوك إسرائيل) و(الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية) و(المبشرون والمستشرقون في العالم العربي الإسلامي). وقد كان راعياً للكنيسة الإنجيلية ، وأستاذاً للاهوت، وأسلم على يديه عدد كبير من الناس .

(٤) إبراهيم خليل أحمد (القس إبراهيم فيلوبوس سابقاً) ، ص ١١٥ .

وجاء في الفصل السادس والتسعين - في إنجيل برنابا - من محاورة بين المسيح ورئيس كهنة اليهود، أن الكاهن سأله عن نفسه فأجاب بذكر اسمه واسم أمه، وبأنه بشر ميت ثم قال الإنجيل ما نصه:

" أجاب الكاهن: إنه مكتوب في كتاب موسى أن إلهنا سيرسل لنا مسيّا الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله، وسيأتي للعالم برحمة الله ؛ لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق هل أنت مسيا الله الذي ننتظره؟ وأجاب يسوع: حقاً أن الله وعد هكذا ولكني لست هو؛ لأنه خلق قبلي وسيأتي بعدي. أجاب الكاهن: إننا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال أنك نبي وقدوس الله؛ لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها وإسرائيل كلها أن تفيدنا حباً في الله بأية كيفية سيأتي مسيا؟ فأجاب يسوع: لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي. أني لست مسيا الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم. قائلاً: بنسلك أبارك كل قبائل الأرض. ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى لهذه الفتنة المعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله ؛ فيتنجس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً. حينئذٍ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشياء لأجله. الذي سيأتي من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام. وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به. وسيكون من يؤمن بكلامه مباركاً" (١).

هكذا يتحدث إنجيل برنابا عن محمد ﷺ وأنه "سيأتي للعالم برحمة الله"، بل لن يأتي محمد - حسب إنجيل برنابا - إلا حين " يرحم الله العالم"، فيبعثه الله من الجنوب حيث أرض الحجاز ويهدم الأصنام في فتح مكة في العام الثامن الهجري، وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به، فيمكنَّ لهم الله في الأرض ويستخلفهم كما استخلف الذين من قبلهم.

المطلب الثاني: شهادة الراهب النصراني بحيرا:

إن أول جملة قالها الراهب النصراني الشهير "بحيرا" حين رأى محمداً ﷺ في رحلته الأولى إلى الشام مع أبي طالب:

---

(١) إنجيل برنابا، ٩٦ : ٣-١٦ .

" هذا سيد العالمين ! هذا رسول رب العالمين ! هذا يبعثه الله رحمة للعالمين ! " [(١)] .

وإن في ذلك لدلالة بينة على ما كان يتدارسه الرهبان والقساوسة في الأناجيل، حيث صفات الرحمة وشمائل العفو التي سجلتها الكتب السماوية السابقة في محمد ﷺ .

المطلب الثالث: شهادة العلامة توماس كارلايل:

في كلمات تنم عن عميق الحب وعلو التقدير، يتحدث توماس كارلايل (١٧٩٥ - ١٨٨١م) الكاتب الإنجليزي المعروف، في إعجاب بصفات النبي ﷺ فيقول:

" . . لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ﷺ . . . العظيم النفس، المملوء رحمة، وخيرًا، وحنانًا، وبرًا، وحكمة، وحجى، ونهى . . أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه . وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين ؟ فبينما نرى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق اعتبارات باطلة . إذ ترى محمدًا ﷺ لم يرض أن يلتفع بالأكاذيب والأباطيل . لقد كان منفردًا بنفسه العظيمة . . " [(٢)] .

المطلب الرابع: شهادة المفكر البريطاني لين بول:

لا يُخفي "لين بول" (١٦٥٢- ١٧١٩م) تأثره بمحمد ﷺ، فيتحدث في مؤلفه: "رسالة في تاريخ العرب "عن سجايا خلق محمد ﷺ في إعجاب جم قائلاً:

"إن محمداً ﷺ كان يتصف بكثير من الصفات كاللطف والشجاعة، وكرم الأخلاق، حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثر بما تطبعه هذه الصفات في نفسه، ودون أن يكون هذا الحكم صادراً عن غير ميل أو هوى، كيف لا، وقد احتمل محمد ﷺ عداء أهله وعشيرته سنوات بصبر وجلد عظيمين، ومع

---

(١) الحاكم (٤٢٢٩) ، ابن أبي شيبة (٣١٧٣٣)، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٣/ ٤، والطبري : تاريخ الأمم والملوك ١/ ٥٢٠، وسيرة ابن حبان ٥٨ ، الصالحي ٢/ ١٤٠ .

(٢) توماس كارلايل : الأبطال، ٥١، ٥٢ .

ذلك فقد بلغ من نبله أنه لم يكن يسحب يده من يد مصافحه حتى لو كان يصافح طفلاً ! وأنه لم يمر بجماعة يوماً من الأيام رجالاً كانوا أم أطفالاً دون أن يسلم عليهم، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة، وبنغمة جميلة كانت تكفي وحدها لتسحر سامعيها، و تجذب القلوب إلى صاحبها جذباً!! "[١].

المطلب الخامس: شهادة السير وليم موير:

وأما الباحث وليم موير فيتحدث في مؤلفه: "حياة محمد" عن أخلاقيات النبي ﷺ في تقدير بالغ لرقة النبي ﷺ ورفقه ورأفته، ولين عريكته، فيقول:

"ومن صفات محمد ﷺ الجليلة الجديرة بالذكر، والحَرية بالتنويه: الرقة والاحترام، اللذان كان يعامل بهما أصحابه، حتى أقلهم شأناً، فالسماحة والتواضع والرأفة والرقة تغلغلت في نفسه، ورسخت محبته عند كل من حوله، وكان يكره أن يقول لا، فإن لم يمكنه أن يجيب الطالب على سؤاله، فضل السكوت على الجواب، ولقد كان أشد حياء من العذراء في خدرها، وقالت عائشة -رضي الله عنها: وكان إذا ساءه شيء تبينا ذلك في أسارير وجهه، ولم يمس أحداً بسوء إلا في سبيل الله، ويُؤثر عنه أنه كان لا يمتنع عن إجابة الدعوة من أحد مهما كان حقيراً، ولا يرفض هدية مهداة إليه مهما كانت صغيرة، وإذا جلس مع أحد أياً كان لم يرفع نحوه ركبته تشامخاً وكبراً"[٢].

المطلب السادس: شهادة القس السابق دُرّاني:

يقول العلامة الإنجليزي دُرّاني[٣]، في النبي ﷺ:

"أستطيع أن أقول بكل قوة أنه لا يوجد مسلم جديد واحد لا يحمل في نفسه العرفان بالجميل لسيدنا محمد ﷺ لما غمره به من حب وعون وهداية وإلهام. . فهو القدوة الطيبة التي أرسلها الله رحمة لنا وحبّا بنا حتى نقتفي أثره ﷺ !"[٤].

---

(١) لين بول: رسالة في تاريخ العرب نقلا عن: عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الإسلامي، ص ٤٣٨.
(٢) وليم موير: حياة محمد، ١٤.

(٣) الدكتور م. ج. دُرّاني: سليل أسرة مسلمة منذ القدم، أصبح نصرانيًّا في فترة مبكرة من حياته وتحت تأثير إحدى المدارس التبشيرية المسيحية، وقضى ردحًا من حياته في كنيسة إنكلترا، حيث عمل قسيسًا منذ عام ١٩٣٩ وحتى عام ١٩٦٣ حيث عاد إلى الإسلام.

(٤) انظر: عرفات كامل العشي: رجال ونساء أسلموا، ٤ / ٢٧ - ٢٨.

المطلب السابع: شهادة الكاتب الإسباني "جان ليك":

يقول الدكتور جان ليك في كتابه (العرب): "وحياة محمد ﷺ التاريخية لا يمكن أن توصف بأحسن مما وصفها الله. بألفاظ قليلة، بين بها سبب بعث النبي محمد ﷺ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] وقد برهن بنفسه على أن لديه أعظم الرحمات لكل ضعيف، ولكل محتاج إلى المساعدة، كان محمدﷺ رحمة حقيقية لليتامى، والفقراء، وابن السبيل، والمنكوبين، والضعفاء، والعمال، وأصحاب الكد والعناء، وإني بلهفة وشوق. أصلي عليه وعلى أتباعه!" (١).

المطلب الثامن: شهادة الباحث الفرنسي جوستاف لوبون:

يتحدث جوستاف لوبون (٢) في كتابه (الدين والحياة)، عن سمو أخلاق النبي ﷺ، فيقول: "لقد كان محمد ﷺ ذا أخلاق عالية، وحكمة، ورقة قلب، ورأفة، ورحمة، وصدق، وأمانة" (٣).

وهذه الأخلاق هي التي جذبت آراء المنصفين لنبي الإسلام ﷺ، وعدَّتْه من أعاظم رجالات التاريخ.

فيقول جوستاف لوبون في موضع آخر:

"إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم؛ كان محمد ﷺ من أعظم من عرفهم التاريخ، وقد أخذ علماء الغرب ينصفون محمدًا ﷺ، مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله!" (٤).

المطلب التاسع: شهادة المؤرخ الشهير جيمس متشنر:

ويتحدث جيمس متشنر عن بعض صور الرحمة في شخص النبي ﷺ، مشيراً إلى بساطة النبي ﷺ، وإنسانيته، ونبله، وحزمه، فيقول متشنر:

"إن محمداً ﷺ هذا الرجل الملهم،

---

(١) جان ليك "العرب"، ص ٤٣.

(٢) جوستاف لوبون: ولد عام ١٨٤١ وهو مؤرخ فرنسي مشهور، عني بالحضارات الشرقية. من آثاره: (حضارة العرب) (باريس ١٨٨٤)، (الحضارة المصرية)، و(حضارة العرب في الأندلس).

(٣) جوستاف لوبون: الدين والحياة ٦٧.

(٤) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ١١٥.

الذي أقام الإسلام،

ولد في قبيلة عربية تعبد الأصنام،

ولد يتيماً محباً للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين.

وقد أحدث محمد ﷺ بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في شبه الجزيرة العربية وفي الشرق كله.

فقد حطم الأصنام بيديه،

وأقام ديناً يدعو إلى الله وحده،

ورفع عن المرأة قيد العبودية التي فرضتها تقاليد الصحراء،

ونادى بالعدالة الاجتماعية وقد عرض عليه في آخر أيامه أن يكون حاكماً بأمره، أو قديساً،

ولكنه أصر على أنه ليس إلا عبداً من عباد الله أرسله إلى العالم منذراً وبشيراً" (١).

* * *

(١) انظر: حسين الشيخ خضر الظالمي: قالوا في الإسلام، ٥٠.

الفصل الأول
أهم الأحداث العسكرية قبل بدر

المبحث الأول
اعتبارات الإذن بالقتال

هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة- في يولية ٦٢٢م - فرارًا بدينهم ولبناء مجتمع إسلامي جديد آمن، ولتكون المدينة مقرًا للدعوة الإسلامية تنطلق منها البعوث والرسل إلى شتى بقاع الأرض تبلغ رسالات الله إلى العالم.

وبالفعل نجح النبي والمهاجرون والأنصار في تأسيس أول دولة للمسلمين، وأخذ رسول الله ﷺ يعقد الأحلاف والعقود مع القبائل والجماعات على الصعيدين الداخلي والخارجي للمدينة، وأصبح للمسلمين لأول مرة كيان معترف به من هذه القبائل.

وفي كل يوم يزداد فيه التقدم الإسلامي عقب الهجرة، يزداد معه حنق الوثنيين وغيظهم على المسلمين.

وأصبح المسلمون في حاجة ماسة للتسلح والدفاع عن أنفسهم ولحماية عقيدتهم ودولتهم، وبالفعل نزل النص القرآني يجيز للمسلمين الدفاع عن أنفسهم بالسلاح، إضافة إلى جواز مطاردة المصالح المادية والتجارية لقريش، من أجل استرداد الأموال والحقوق التي استلبتها قريش من المسلمين المستضعفين عند هجرتهم.

قال الله تعالى:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الحج].

وكان الإذن بالقتال واسترداد الحقوق بالقوة، لعدة اعتبارات شرعية ومنطقية وجيهة، أهمها:

المطلب الأول: مصادرة أموال المسلمين وعقاراتهم:

عندما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة، أصبحوا في ضنك، وضيق من العيش، حيث صادر كفار مكة أموال وعقارات وتجارات المسلمين، وقام المشركون بتوزيع هذه الأموال بين صناديد مكة ظلمًا وسحتًا !

ووقف المسلمون أيام كانوا جماعة مستضعفة مكتوفي الأيدي، لا حول لهم ولا قوة، يرون بأم أعينهم الظلم والفساد يُمارس عليهم. تُصادر أموالهم وتجمد ممتلكاتهم عيانًا بيانًا، أمام العدو والصديق.

وبعد الهجرة، وإقامة الدولة، كانت تجارة قريش تمر بالمدينة في الذهاب وفي الإياب حال رحلتها الصيفية إلى الشام. وكانت بالنسبة للمسلمين فرصة ثمينة لاسترداد بعض حقوقهم.

ومن هنا قصر النبي ﷺ السرايا قبل بدر على المهاجرين دون الأنصار، فالمهاجرون هم أصحاب الأموال المسلوبة والعقارات المصادرة. فقرر لهم أن يأخذوا حقهم بالقوة، كما أُخذت منهم عنوة، وهو حق مكفول في جميع الشرائع والملل والقوانين السماوية والوضعية. فأرسل السرايا لتعترض طريق مكة التجارية. .محاولة منه ﷺ استعادة الأموال الإسلامية المنهوبة أيام استضعاف المسلمين في مكة.

إنه هو، هو، الذي استخلف "عليًا" رضي الله عنه، لما كان يوم الهجرة، ليرد الأمانات إلى المشركين، الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم بغير حق، إلا أن يقولوا ربنا الله. .! الآن يأمرهم أن يعترضوا قوافل مكة، ليأخذوا بضائع المشركين، والتي هي في الأصل أموال المسلمين.

وهو مثال للعدل والأمانة حتى مع الأعداء، ومثال للتمييز بين ما هو أمانة لا حق فيها، وما هو حق لا هوادة فيه، فمع حرصه على حفظ أمانات الظالم، نرى حرصه على أخذ الحق منه، دون المساس بالأمانة.

المطلب الثاني: إعلان الحرب على الدولة الإسلامية الناشئة:

والحق أن الحرب أعلنتها قريش صراحة أول ما أعلنتها في مكة أيام استضعاف الجماعة الإسلامية، فأعدم المشركون سمية بنت خياط - رضي الله عنها -

وزوجها ياسر، الذي عذبوه حتى الموت، وهاجر جمع من المسلمين إلى الحبشة، فرارًا من هذا الوضع الأسود، وتحولت رمضاء مكة إلى معتقلات مفتوحة للتعذيب، وشِعب أبي طالب إلى سجن مفتوح، حُبس فيه خيرة شباب البشرية، وعلى رأسهم أطهر الدعاة محمد ﷺ، مدة ثلاث سنوات متواصلات، ذاق فيها المسلمون ويلات المجاعة والعوذ والمرض. واستمر هذا العدوان على المسلمين، سنوات طويلة، والأمر يأتي من الله في كل مرة للمسلمين، أن كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة، والنهي عن القتال، أو حتى رد العدوان بالقوة، حتى بلغ من المسلمين الجهد الجهيد، والضنك الشديد، فنزل الأمر بالهجرة إلى المدينة.

وبعد الهجرة، بادر زعماء مكة في إعلان الحرب على المسلمين، في موطنهم الجديد، والسعي بشتى الطرق لإحداث حرب أهلية داخل المدينة، فأرسلوا إلى عميلهم عَبْدِ الله بْنَ أُبَيٍّ ابن سلول- وكان إذ ذاك مشركًا بصفته رئيس المدينة قبل الهجرة، فقد كاد الأوس والخزرج أن يجعلوه ملكًا عليهم، لولا هجرة النبي ﷺ- ومن خلفه من المنافقين كلمات تنم عن شدة الحنق والغيظ على المسلمين:

" إنكم آويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم ".

فلما وصل "خطاب مكة"، بلهجته الشديدة هذه، إلى عَبْدِ الله بْنَ أُبَيٍّ وجماعته من المنافقين وعَبَدَةِ الأوثان، خافوا وجبنوا، وأجمعوا أمرهم على قتال النَّبِيِّ ﷺ، إلا أن يَخرج عن المدينة. فخيم شعور الهجرة والغربة من جديد على قلب رسول الله ﷺ، وهو الذي هاجر إليهم، على قدم وساق، ونزل عليهم دون سواهم، فاستقبلوه استقبال الفاتحين. أبخطاب واحد من قريش يتحول الأمر رأسًا على عقب، فتنبري فرقة المنافقين وتحاول أن تحشد الناس لإخراج رسول الله من حيث استقبلوه؟!

وهنا تظهر القيادة الإسلامية الحكيمة، وتحل الأزمة في دقيقة، فيتوجه القائد البارع، إلى منبع الفتنة، ورأس الأفعى، فيغير حال الثوار رأسًا على عقب، بكلمات بليغة، مؤثرة، تضرب على وتر الأخوة الإنسانية، ووحدة الصف أمام

أعداء الأمة من خارج المدينة. فقال القائد الحكيم ﷺ: مخاطبًا الثوار من المنافقين والمشركين من أبناء المدينة:

" لَقَدْ بَلَغَ وَعِيدُ قُرَيْشٍ مِنْكُمْ المَبَالِغَ ! مَا كَانَتْ تَكِيدُكُمْ بِأَكْثَرَ مِمَّا تُرِيدُونَ أَنْ تَكِيدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ ! تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا أَبْنَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ؟! " . فلما سمعوا ذلك من النبي تفرقوا(١).

إنه بتلك الكلمات القليلة، هز كيانهم هزًا شديدًا، فمس أواصر القرابة والرحم بين المشركين والمسلمين في المدينة، فبين أن وعيد قريش ما كان ليهز وحدة العائلة والقبيلة، إنه وعيد يبغي فك العروة الأسرية بين الأخ وأخيه، والأب وبنيه، بغض النظر عن الاعتقاد والدين !

وهكذا، كانت من حكمته ﷺ أن تعصب لوحدة الصف ولم يتعصب لأصحابه المهاجرين دون الأنصار، أو المسلمين دون المشركين، إنما ركز في خطابه على مصلحة المدينة - بما فيها من طوائف وعقائد - ضد أعدائها من الخارج.

أليست هذه حصافة من القائد الإسلامي في ضرب هذا الوتر؟!

ومن ثم توجهت أنظار أبناء المدينة صوب عدوهم الخارجي الذي يريد فك أواصرهم وزرع الفتنة بينهم.

المطلب الثالث: تهديد أمن المسلمين:

وهو اعتبار آخر شرعي للإذن بالقتال، فبعد الهجرة، أصبح كل مسلم مطلوب القبض عليه وتسليمه إلى قريش، فلم ينعم المسلمون بأمن بعيد هجرتهم، حتى من أراد منهم الحج أو العمرة. ونستدل على ذلك بحادث محاولة منع سيد الأوس سعد بن معاذ - رضوان الله عليه - من أداء العمرة.

فقد كَانَ سَعْد بْنِ مُعَاذٍ صديقًا لِأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، فكَانَ أُمَيَّةُ إِذَا مَرَّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مَرَّ بمكة نزل عَلَى أُمَيَّةَ، فلما قدم رسول الله ﷺ المدِينَةَ مهاجرًا، انطلق سعد مُعْتَمِرًا، فنزل - كعادته - على أُمَيَّةَ بمكة. فقال لِأُمَيَّةَ: انظر لي ساعة خَلْوَةٍ لَعَلِّي أن أَطُوفَ بالبيت. فخرج به قريبًا من نصف

(١) سنن أبي داود، باب في خبر النضير(٢٦١٠)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود.

النهار، فلقيهما أبو جهل ! فقال يَا أَبَا صَفْوَانَ، من هذا معك ؟ فَقَالَ: هذا سعد. فَقَالَ أبو جهل لسعد: ألا أَرَاكَ تَطُوفُ بِمَكَّةَ آمِنًا وَقَدْ أَوَيْتُمْ الصُّبَاةَ ! وَزَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ تَنْصُرُونَهُمْ وَتُعِينُونَهُمْ ! أَمَا والله لَوْلاَ أَنَّكَ مَعَ أَبِي صَفْوَانَ مَا رَجَعْتَ إِلَى أَهْلِكَ سَالِمًا !!

فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ - في شجاعة - وَرَفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ قائلاً: أَمَا والله لَئِنْ مَنَعْتَنِي هَذَا لأَمْنَعَنَّكَ مَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْكَ مِنْهُ، طَرِيقَكَ عَلَى الْمَدِينَةِ [١].

تدل هذه الحادثة على أن أبا جهل يعتبر سعد بن معاذ من أهل الحرب بالنسبة إلى المشركين في مكة[٢]، ولولا أنه دخل في جوار زعيم من زعمائها لأهدر دمه. تأمل قول أبي جهل لسعد: "لَوْلاَ أَنَّكَ مَعَ أَبِي صَفْوَانَ مَا رَجَعْتَ إِلَى أَهْلِكَ سَالِمًا" ! فلم يكن أحد من المسلمين وإن كانوا معتمرين أو حجاج يستطيع أن يدخل مكة حاجًا أو معتمرًا أو نحو ذلك، إلا في جوار زعيم من الزعماء الوثنيين كما رأيت.

وهكذا يتبدى للمتبصر أن المسجد الحرام تحت احتلال فعلي، وإهانة واقعة، وعتو بيّن من قِبل هؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم أوصياء على المسجد الحرام، وما كان لهم هذا الحق. وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال].

"إنهم ليسوا أولياء هذا البيت ولا أصحابه. إنهم أعداء هذا البيت وغاصبوه! إن بيت الله الحرام ليس تركة يرثها الخلف عن السلف. إنه بيت الله يرثه أولياء الله المتقون لله" [٣].

ويدل هذا الحادث أيضًا - من كلام سعد - على أن المسلمين في هذا الوقت لم يتعرضوا ولو لمرة واحدة لقوافل مكة التجارية، وأن الدولة الإسلامية في هذا الوقت لم تعامل أهل مكة المشركين معاملة أهل الحرب. ومعنى هذا أن الأيدي

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي: باب ذكر النبي ﷺ مَنْ يُقْتَلُ بِبَدْرٍ (٣٦٥٦).
(٢) انظر: محمد خير هيكل ٣/ ٤٧٦، وعلى محمد الصلابي ١/ ٣٦٤.
(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، سورة الأنفال، الآية ٣٤.

الممسكة بزمام الأمور في مكة هي التي بادرت بالعدوان، وأعلنت الحرب على دولة الإسلام، وهددت الحجاج والمعتمرين من المسلمين، واعتبرت المسلمين أهل حرب لا يدخلون مكة إلا بصك أمان أو بصفة مستأمنين[١].

فهذه ثلاثة أسباب شرعية ومنطقية، لنزول الإذن بالقتال بهذه الصورة المبدئية، والذي يشبه عمليات القرصنة. ومن ثم ركز النبي ﷺ كحاكم وكقائد عسكري- نشاطه المسلح في هذه الفترة في إرسال البعوث العسكرية لمحاولة اصطياد الصفقات التجارية التي ترسلها قريش إلى الشام، ولإظهار هيبة المسلمين ودولتهم أمام القاصي والداني، ولخلق شخصية اعتبارية لدولة جديدة كانت في السالف جماعة إسلامية مستضعفة. ولتستكمل صورة الدولة النظامية، والتي لا يخلو منها ركن الجيش والسلاح.

فقرر النبي ﷺ القيام بحزمة من العمليات العسكرية التمهيدية - قبل غزوة بدر الفاصلة - لاصطياد ما يمكن اصطياده من صفقات مكة التجارية، وفي نفس الوقت لتدريب الجنود المسلمين على حمل السلاح وخوض المسافات، ونزول الساحات.

وبعد هذا البيان، لماذا يشبه المتخرصون هذه العمليات العسكرية، بأنها عبارة عن عمليات "قطع للطريق"؟ والمسلمون - كما رأيت - خاضوا هذه العمليات العسكرية، لعدة اعتبارات أخلاقية ومنطقية وشرعية.. فعدوهم سلب أموالهم في مكة عنوة، وأخذ يتاجر في هذه الأموال في الشام واليمن! وأصبحت حياة كل فرد مسلم مهددة سواء داخل المدينة أو خارجها، أو حتى في رحاب الحرم!

وفوق كل هذا تسعى قريشٌ بكل السبل لإحداث حروب داخلية في الدولة الإسلامية الناشئة، وترسل بخطابات إلى زعماء المدينة من المنافقين والمشركين واليهود، لتأجيج الفتن داخل الدولة، ولإخراج الرئيس الشرعي من المدينة..!

وبعد هذا كله، ألا يحق للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم ؟!

* * *

(١) انظر: محمد خير هيكل ٣/ ٤٧٦، وعلى محمد الصلابي ١/ ٣٦٤.

المبحث الثاني
النشاط السياسي قبل بدر

يتمثل النشاط السياسي للنبي ﷺ قبل بدر في كتابة الوثائق وعقد المعاهدات مع القبائل والجماعات غير المسلمة، على مستويين:

مستوى داخلي يتمثل في كتابة الدستور(الصحيفة)، ومستوى خارجي يتمثل في عقد المعاهدات والأحلاف مع القبائل المجاورة للدولة الإسلامية:

المطلب الأول: المستوى الداخلي: دستور المدينة:

كتب النبي دستورًا[١] تاريخيًّا ينظم العلاقة بين جميع طوائف وجماعات المدينة وعلى رأسها المهاجرين والأنصار والفصائل اليهودية وغيرهم[٢]، يتصدى بمقتضاه المسلمون واليهود وجميع الفصائل لأي عدوان خارجي على المدينة، وبإبرام هذا الدستور - وإقرار جميع الفصائل بما فيه - صارت المدينة دولة وفاقية رئيسها الرسول ﷺ، وصارت المرجعية العليا للشريعة الإسلامية، وصارت جميع الحقوق الإنسانية مكفولة، كحق حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر، والمساواة والعدل.

يقول المستشرق الروماني جيورجيو:

"وقد حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بنداً، كلها من رأي رسول الله ﷺ. خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، ولاسيما اليهود وعبدة الأوثان. وقد دون

---

(١) سماها ابن إسحاق وكتاب السير القدماء: الموادعة، وسماها الصلابي: الوثيقة أو الصحيفة، وسماها صفي الرحمن المباركفوري ميثاق التحالف الإسلامي، وسماها الحميدي صحيفة المعاهدة بين أهل المدينة، وسماها البوطي وثيقة بين المسلمين وغيرهم، واخترنا تسميتها بالدستور، فهو الاسم الحالي الرسمي للوثيقة التي تنظم الشأن العام للدولة. فالمعاهدة تنظم العلاقات الخارجية بين دولة ودولة، أما الدستور فيطلق على الوثيقة التي تنظم الشأن العام الداخلي للدولة.

(٢) كتبت هذه الوثيقة في الفترة بين أغسطس ٦٢٢ ويونيو ٦٢٤م، بعد الهجرة وقبل بدر.

هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء. وضع هذا الدستور في السنة الأولى للهجرة، أي عام ٦٢٣م. ولكن في حال مهاجمة المدينة من قبل عدو عليهم أن يتحدوا لمجابهته وطرده "(١).

ومن ثم دعونا نقف وقفات سريعة على أهم المعالم والثوابت الأخلاقية التي نراها جلية في هذا الدستور:

أولاً: مسئولية القائد العام على الدستور:

جاء ذلك في البند التالي:

"هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش (وأهل يثرب)، ومن تبعهم فَلَحق بهم وجاهد معهم "(٢).

ثانيا: الأمة الإسلامية فوق القبلية:

وفي ذلك جاء البند التالي:

"إنهم - أي المسلمون - أمة واحدة من دون الناس "(٣).

وبهذا البند اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم وأنسابهم إلى جماعة الإسلام، فالانتماء للإسلام فوق الانتماء للقبيلة أو العائلة، وبهذا نقل رسول الله ﷺ العرب من مستوى القبيلة إلى مستوى الأمة.

ثالثا: التكافل الاجتماعي بين فصائل الشعب:

وفي هذه القيمة كُتبت البنود التالية:

"المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين" (٤).

"وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها

---

(١) ك. جيورجيو : نظرة جديدة في سيرة رسول الله ﷺ ، ص ١٩٢ .
(٢) ابن سيد الناس ١/ ٢٦٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢١ .
(٣) ابن سيد الناس ١/ ٢٦٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢١ .
(٤) ابن سيد الناس ١/ ٢٦٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢١ .

بالمعروف والقسط بين المؤمنين "[١].

"وبنو سَاعِدَةَ على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين "[٢].

"وبنو جُشَم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين "[٣].

"بنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف، والقسط بين المؤمنين "[٤].

"وَبَنُو الْأَوْسِ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الْأُولَى، وَكُلّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ "[٥].

"وَإِنّ المؤْمِنِينَ لاَ يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ بِالمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ "[٦].

رابعا: ردع الخائنين للعهود:

وفي هذا الحق كُتب البند التالي:

"وإن المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[٧] ظلم أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم "[٨].

وهذا نص في جواز حمل السلاح على أي فصيل من فصائل المدينة إذا اعتدى على المسلمين.

وبموجب هذا النص حُكم بالإعدام على مجرمي قريظة - بعد معركة الأحزاب (في ذي القعدة ٥ هـ - إبريل ٦٢٧ م) - لما تحالفوا مع جيوش الأحزاب الغازية للمدينة، وبغوا وخانوا بقية الفصائل، رغم أنهم أبناء وطن واحد !

---

(١) ابن سيد الناس: ١/ ٢٦٠ . (٢) ابن هشام ١/ ٥٠١ . (٣) ابن هشام ١/ ٥٠١ .
(٤) ابن هشام ١/ ٥٠١ . (٥) ابن هشام ١/ ٥٠١ . (٦) ابن هشام ١/ ٥٠١ .
(٧) أي: طلب دفعًا على سبيل الظلم، ويجوز أن يراد بها العطية.
(٨) ابن سيد الناس: ١/ ٢٦٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢١، ابن هشام ١/ ٥٠١ .

خامسا: احترام أمان المسلم:

وجاء في هذا الأصل الأخلاقي البند التالي:

"وإن ذمة الله واحدة، يجير عاليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس "(١).

فلأي مسلم الحق في منح الأمان لأي إنسان، ومن ثم يجب على جميع أفراد الدولة أن تحترم هذا الأمان، وأن تجير من أجار المسلمُ، ولو كان المجير أحقرهم.

فيُجير على المسلمين أدناهم، بما في ذلك النساء، وقد قال النبي ﷺ لأم هانئ: "أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمّ هَانِئٍ "(٢).

سادسا: حماية أهل الذمة والأقليات غير الإسلامية:

وجاء في هذا الأصل:

"وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم"(٣).

وهو أصل أصيل في رعاية أهل الذمة، والمعاهدين، أو الأقليات غير الإسلامية التي تخضع لسيادة الدولة وسلطان المسلمين. فلهم - إذا خضعوا للدولة - حق النصرة على من رامهم أو اعتدى عليهم بغير حق سواء من المسلمين أو من غير المسلمين، من داخل الدولة أو من خارجها.

سابعا: الأمن الاجتماعي وضمان الديات:

وجاء في هذا الأصل:

"وإنه من اعتبط(٤) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول (بالعقل)، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه"(٥).

---

(١) ابن سيد الناس: ١/ ٢٦٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢١، ابن هشام ١/ ٥٠٢ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٣/ ١٠٨ .

(٣) ابن سيد الناس: ١/ ٢٦٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢١، ابن هشام ١/ ٥٠٢ .

(٤) أي قتله دون جناية أو سبب يوجب قتله.

(٥) ابن سيد الناس: ١/ ٢٦٠، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام ١/ ٥٠٢ .

وبهذا أقر الدستور الأمن الاجتماعي، وضمنه بضمان الديات لأهل القتيل، وفي ذلك إبطال لعادة الثأر الجاهلية، وبين النص أن على المسلمين أن يكونوا جميعًا ضد المعتدي الظالم حتى يحكم عليه بحكم الشريعة.

"ولا شك أن تطبيق هذا الحكم ينتج عنه استتباب الأمن في المجتمع الإسلامي منذ أن طبق المسلمون هذا الحكم" (١).

ثامنًا: المرجعية في الحكم إلى الشريعة الإسلامية:

وجاء في هذا الأصل:

"وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله - عز وجل - وإلى محمد" (٢).

"وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردَّه إلى الله، وإلى محمد رسول الله، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره" (٣).

تاسعًا: الدعم المالي للدفاع عن الدولة مسئولية الجميع:

وجاء في هذا الأصل:

"وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين" (٤).

فعلى كل الفصائل بما فيها اليهود أن يدعموا الجيش ماليًا وبالعدة والعتاد من أجل الدفاع عن الدولة، فكما أن المدينة وطن لكل الفصائل، كان على هذه الفصائل أن تشترك جميعها في تحمل جميع الأعباء المالية للحرب.

عاشرًا: الاستقلال المالي لكل طائفة:

وجاء في هذا الأصل:

"وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم" (٥).

---

(١) عبد العزيز بن عبد الله الحميدي ٣/ ٤٩.
(٢) ابن سيد الناس ١/ ٢٦١، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام ١/ ٥٠٣.
(٣) ابن سيد الناس ١/ ٢٦١، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام ١/ ٥٠٣.
(٤) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام ١/ ٥٠٣.
(٥) ابن سيد الناس ١/ ٢٦١، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام ١/ ٥٠٣.

فمع وجوب التعاون المالي بين جميع طوائف الدولة لرد أي عدوان خارجي، فإن لكل طائفة استقلالها المالي عن غيرها من الطوائف.

حادي عشر: وجوب الدفاع المشترك ضد أي عدوان:

وجاء في هذا الأصل:

"وإن بينهم النصر على من دهم يثرب "(١).

"وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة "(٢).

وفي هذا النص دليل صريح على وجوب الدفاع المشترك، ضد أي عدوان على مبادئ هذه الوثيقة.

ثاني عشر: النصح والبر بين المسلمين واليهود:

وجاء في هذا الأصل:

"وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم "(٣).

فالأصل في العلاقة بين جميع طوائف الدولة مهما اختلفت معتقداتهم هو النصح المتبادل، والنصيحة التي تنفع البلاد والعباد، والبر والخير والصلة بين هذه الطوائف.

ثالث عشر: حرية كل فصيل في عقد الأحلاف التي لا تضر الدولة:

وجاء في هذا الأصل:

"وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه "(٤).

رابع عشر: وجوب نصرة المظلوم:

وجاء في هذا الأصل: "وإن النصر للمظلوم "(٥).

(١) ابن سيد الناس ١/ ٢٦١، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام ١/ ٥٠٣.
(٢) ابن سيد الناس ١/ ٢٦١، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام ١/ ٥٠٣.
(٣) ابن سيد الناس ١/ ٢٦١، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام ١/ ٥٠٣.
(٤) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، وابن سيد الناس ١/ ٢٦١، وابن هشام ١/ ٥٠٣، والسهيلي ٢/ ٣٤٥.
(٥) ابن سيد الناس ١/ ٢٦١، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٣، ابن هشام ١/ ٥٠٣، والسهيلي ٢/ ٣٤٥.

خامس عشر: تحريم التعاون مع الأعداء ضد المسلمين:

وجاء في هذا الأصل:

"وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها" (١).

سادس عشر: حق الأمن لكل مواطن:

" إنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول" (٢).

سابع عشر: حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر مكفولة لكل فصائل الشعب:

وجاء في هذا الأصل:

"وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأَثِم فإنه لا يوتغ (٣) إلا نفسه وأهل بيته" (٤).

المطلب الثاني: المستوى الخارجي:

على المستوى الخارجي عقد النبي ﷺ المعاهدات مع القبائل المجاورة للمدينة لا سيما تلك القبائل التي كانت على الطريق التجاري المؤدي إلى الشام، وذلك من أجل أربعة أهداف:

الهدف الأول: تحييد هذه القبائل في قضية الصراع بين المسلمين والمشركين، وألا يكونوا يدًا مع المشركين على المسلمين.

الهدف الثاني: تأمين الحدود الخارجية للدولة.

الهدف الثالث: اعتراف هذه القبائل بدولة المسلمين.

الهدف الرابع: تهيئة هذه القبائل لقبول الإسلام، والدخول فيه.

أنموذجان لهذه المعاهدات:

---

(١) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٣، ابن هشام ١/ ٥٠٣، والسهيلي ٢/ ٣٤٥.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٣، وابن سيد الناس ١/ ٢٦٢، ابن هشام ١/ ٥٠٣، والسهيلي ٢/ ٣٤٥.

(٣) يعني: يُهلك.

(٤) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٣٢٢، ابن هشام ١/ ٥٠٣.

أولاً: مُوَادَعَةُ بَنِي ضَمْرَةَ

وَهُمْ بَطْنٌ مِنْ كِنَانَةَ وَكَانَ نص وثيقة الْمُوَادَعَةِ على النحو التالي:

"بِسْمِ الله الرّحْمَنِ الرّحِيمِ. هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ الله لِبَنِي ضَمْرَةَ، فَإِنّهُمْ آمِنُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَنّ لَهُمُ النّصْرَ عَلَى مَنْ رَامَهُمْ - إلاّ أَنْ يُحَارِبُوا فِي دِينِ الله - مَا بَلّ بَحْرٌ صُوفَةً[١] وَإِنّ النّبِيّ إذَا دَعَاهُمْ لِنَصْرِهِ أَجَابُوهُ، عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ ذِمّةُ الله وَذِمّةُ رَسُولِهِ، وَلَهُمُ النّصْرُ عَلَى مَنْ بَرّ مِنْهُمْ وَاتّقَى"[٢].
وكانت هذه المعاهدة عقب أول غزوة للنبي ﷺ وهي الأبواء أو ودان (في صفر ٢هـ - أغسطس ٦٢٣ هـ).

كما عقد النبي معاهدة مع بَنِي مُدْلِجٍ[٣] في (جمادي الأولى ٢هـ- نوفمبر ٦٢٣م)، وكانت على نفس النحو من وثيقة بني ضمرة.

ثانيًا: مُوَادَعَةُ جهينة:

وهذه القبيلة تسكن منطقة العيص على ساحل البحر الأحمر، وكان نص هذه المعاهدة:

"إنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، وإن لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلا في الدين والأهل، ولأهل باديتهم من بر منهم واتقى ما لحاضرتهم"[٤].

وقد دلت هذه الوثائق على مقتضيات أخلاقية سامية، فنرى فيها الرسول القائد السمح ﷺ يوادع هذه القبائل على النصرة المتبادلة في المعروف، ويضمن لهم النبي ﷺ الأمن والأمان على الأموال والأنفس، ويظهر لهم النبي ﷺ أخلاق الإحسان والصلة.

* * *

(١) دلالة على تأبيد هذا العقد، وفيه جواز تأبيد المعاهدات بين المسلمين وغير المسلمين مالم يكن في هذه المعاهدات ما يخالف الشرع.
(٢) السهيلي ٣/ ٣٨.
(٣) ابن سيد الناس ١ / ٣٠٠.
(٤) انظر: محمد حميد الله ٦٢.

المبحث الثالث
النشاط العسكري قبل بدر

فور الإذن بالقتال، للاعتبارات المبدئية التي أسلفنا ذكرها؛ ركز النبي ﷺ نشاطه العسكري في هذه الفترة في إرسال البعوث العسكرية الخفيفة، بشكل أقرب للتمهيد للمعارك الكبرى. وبلغ عدد هذه السرايا والغزوات - التي كانت قبل بدر - ثمان، (أربع سرايا، وأربع غزوات)[١]، وهي:

١- سرية حمزة إلى ساحل البحر الأحمر، في ثلاثين جنديًا، لاعتراض قافلة تجارية لقريش جاءت من الشام، يقودها أبو جهل بن هشام - قاتل سمية- وكانت هذه السرية في رمضان ١هـ [مارس ٦٢٣ م].

٢- سرية عُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ المُطَّلِب إلى رابغ، في ستين جنديًا، مشاة، فلقي أبا سفيان في مائتي وثني، فكانت بينهما مناوشات بالسهام، وكانت في شوال ١هـ [أبريل ٦٢٣ م].

٣- سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخَرَّار، في عشرين جنديًا راكبًا، لمحاولة اصطياد صفقة أخرى لقريش، ولكن العير أفلتت، وكانت في ذي القعدة ١هـ [مايو ٦٢٣ م].

٤- غزوة ودَّان (الأبواء)، وهي أول عملية عسكرية، يخرج فيها حاكم الدولة بنفسه، فخرج في سبعين جنديًا، لمحاولة القبض على قافلة تجارية جديدة لقريش، ولكنها أفلتت، وكانت هذه الغزوة في صفر ٢هـ [أغسطس ٦٢٣ م].

٥- غزوة بُواط، في ربيع الأول ٢هـ [سبتمبر ٦٢٣ م]، وخرج فيها الرسول بنفسه للمرة الثانية، في مائتين من جنوده، يعترض عيرًا لقريش، فيها أمية بن خلف، ومائة رجل من قريش، ولم تفلح العملية في اصطياد القافلة.

---

(١) سمى كتاب السير ما خرج فيه الرسول ﷺ بنفسه غزوة، حارب فيها أم لم يحارب، وما خرج فيه أحد قادته : سرية.

٦- غزوة سَفَوان (بدر الأولى) [ربيع الأول ٢هـ- سبتمبر ٦٢٣ م]، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين جندياً لمحاولة القبض على كرز بن جابر الفهري، الذي أغار على مزارع المدينة، بجيش من الوثنيين، فأفسد في المزارع ونهب بعض المواشي، وفر هاربًا !

٧- غزوة ذي العُشَيرة وكانت في جمادى الأولى ٢هـ [سبتمبر ٦٢٣ م]، فخرج رسول الله ﷺ في خمسين ومائة، يعترضون صفقة جديدة لقريش إلى الشام، فأفلتت القافلة، وهي القافلة التي خرج في طلبها حين رجعت، وكانت سببًا لغزوة بدر .

٨- سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة، وكانت سرية استخباراتية لجمع المعلومات، ولكن رجال السرية خالفوا التعليمات النبوية، فحولوا هدفها الاستخباراتي إلى عسكري، ونزل في أمرهم قرآن، وكانت في رجب ٢هـ [يناير ٦٢٤م] (١) .

المطلب الأول: سرية حمزة بن عبد المطلب إلى سرية سيف البحر (رمضان ١هـ -مارس ٦٢٣) (٢):

وفي هذه السرية كَانَ أَوّلُ لِوَاءٍ عَقَدَهُ رَسُو لُ الله ﷺ لِحَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطّلِبِ، وَكَانَ لِوَاءً أَبْيَضَ وَكَانَ حَامِلُهُ أَبُو مَرْثَدٍ كَنّازُ بْنُ الْحُصَيْنِ الْغَنَوِيّ - حَلِيفُ حَمْزَةَ - وَبَعَثَهُ فِي ثَلَاثِينَ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ خَاصّةً (٣)، منهم أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرّاحِ، وَأَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَسَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَعَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَعَمْرُو بْنُ سُرَاقَةَ، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَكَنّازُ بْنُ الْحُصَيْنِ وَابْنُهُ مَرْثَدُ بْنُ كَنّازٍ، وَأَنَسَةُ مَوْلَى رَسُولِ الله ﷺ، وكانت مهمة حمزة أن يَعْتَرِض قافلة تجارية لِقُرَيْشٍ جَاءَتْ مِنْ

(١) انظر بيان هذه الغزوات والسرايا في : ابن هشام ١ / ٥٩١، والطبري ٢/ ٢٥٩، ابن سيد الناس ١/ ٢٢٤، ابن القيم : زاد المعاد ٢/ ٢١٢، و السهيلي ٤ / ٣٩٥، وابن حزم : جوامع السيرة ١٧، والمقريزي ٥٣، والحلبي٢/ ٣٤٢، وعبد العزيز بن عبد الله الحميدي ٤/ ٥٩، ومصطفى السباعي ٨٥، ومحمد الغزالي ١٦٢، وصفي الرحمن المباركفوري ١٥٠، وعلي محمد الصلابي ٢/ ٣٦٣ .

(٢) على رأس سبعة أشهر من الهجرة (الصالحي ٣/ ١١) .

(٣) غير أن الواقدي (١ / ٩) قال : بعثه في ثلاثين راكبا شطرين : خمسة عشر من المهاجرين وخمسة عشر من الأنصار .

الشّام، وَفِيهَا أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ فِي ثَلاثِمِائَةِ رَجُلٍ. فَبَلَغ المسلمون ساحل الْبَحْرِ الأحمر مِنْ نَاحِيَةِ الْعِيصِ[١]، مِن أرض جهينة، فَالْتَقَوْا وَاصْطَفّوا لِلْقِتَالِ، فَمَشَى مَجْدِي بْنُ عَمْرٍو الْجُهَنِي - وَكَانَ حَلِيفًا لِلْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا- بَيْنَ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ، فَلَمْ يَزَلْ يَمْشِي إِلَى هَؤُلاَءِ وَإِلَى هَؤُلاَءِ، حَتّى حَجَزَ[٢] بَيْنَهُمْ، انْصَرَفَ الْقَوْمُ، وَلَمْ يَقْتَتِلُوا[٣].

فَلَمّا رَجَعَ حَمْزَةُ إِلَى النّبِيّ ﷺ أَخبَرَهُ بِمَا حَجَزَ بَيْنَهُمْ مَجْدِي، وَأَنّهُمْ رَأَوْا مِنْهُ نَصَفَةً لَهُمْ، فاستحسن النبي ﷺ صنيع حمزة وصنيع مجدي. ولما قَدِمَت جماعة لمجدي من جهينة عَلَى النّبِيّ ﷺ أكرمهم وَكَسَاهُمْ وَصَنَعَ إِلَيْهِمْ خَيْرًا، وَذَكَرَ مَجْدِي بْنُ عَمْرٍو بخير وأثنى عليه، قائلاً: "إِنّهُ مَا عَلِمْت مَيْمُونُ النّقِيبَةِ[٤] مُبَارَكُ الْأَمْرِ" أَوْ قَالَ: "رَشِيدُ الْأَمْرِ"[٥].

الدروس الأخلاقية المستفادة من هذه السرية:

في هذه السرية نرى كيف أن الجيش الإسلامي يحترم الحلفاء، ومساعيهم السلمية لوقف القتال، وكان رد الجيش الإسلامي لهذه المساعي السلمية أن استجاب المسلمون لمبادرة مَجْدِي بْنُ عَمْرٍو الْجُهَنِي حليف المسلمين. كما أن تحالفه مع المشركين لم يكن ليشينه، ما دام التزم بموقف الحياد الأخلاقي على الأقل.

ونلاحظ أن السرايا والغزوات قبل بدر كانت للمهاجرين خاصة، ولم يخرج أنصاري واحد في أي سرية من السرايا التي خرجت قبل بدر[٦].

---

(١) العيص - بالكسر - مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.

(٢) فصل بينهم، وأوقف الحرب.

(٣) ابن القيم: زاد المعاد١/ ٥٩٥، الصالحي ٦ / ١١، الواقدي ١/ ٩.

(٤) منجح الأفعال مظفر المطالب.

(٥) الواقدي ١/ ٩، الصالحي ٦/ ١١.

(٦) راجع سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ (شوال ١هـ. أبريل ٦٢٣م) في ستين جنديًا من المهاجرين، وسرية سعد بن أبي وقاص إلى الخَرّار (في ذي القعدة، ١هـ. مايو ٦٢٣م) في عشرين جنديًا من المهاجرين، وغزوة الأبواء أو ودّان (في صفر ٢هـ. ٦٢٣م) بقيادة النبي ﷺ في سبعين رجلاً من المهاجرين.

وذلك لأن المهاجرين هم أصحاب الحقوق المسلوبة والأموال المصادرة في الأصل، كما أنه ﷺ خصهم بهذه السرايا لأنم ذاقوا مرارة التهجير والتعذيب في مكة، فهو بذلك يحيي القضية في نفوسهم، خشية أن ينسيهم استقرارهم في يثرب القضية الأساسية التي هاجروا من أجلها.

هذا فضلاً عن كون الأنصار غير مطالبين بالقتال خارج المدينة!

فقد نصت بيعة العقبة أن يحموا رسول الله داخل المدينة.

وتبين هذه السرية أهمية تقديم العمل السياسي قبل العمل العسكري، فقد رأيت أن المعاهدات التي عقدتها الدولة الإسلامية مع القبائل المجاورة كان سابقاً على الأعمال العسكرية التي قامت بها، بدليل أن حركة السرايا الأولى الموجهة ضد اقتصاد قريش كان قد سبقها معاهدة سلام بين دولة الإسلام وقبيلة جهينة المقيمة على ساحل البحر الأحمر، وقد توسطت لمنع القتال بين المسلمين وكفار مكة.

ومن فقه هذه المعاهدة، جواز عقد معاهدة سلام بين دولة الإسلام ودولة أخرى هي بدورها مرتبطة بمعاهدة سلام مع أعداء الدولة الإسلامية بشرط أن لا تجاوز تلك المعاهدة إلى الاتفاق على أن تنصر الدولة المعاهدة للمسلمين تلك الدولة العدو إذا ما اشتبكت مع المسلمين في قتال، ويجوز للدولة الإسلامية أن تترك قتال أعدائها بعد أن تستعد لذلك استجابة لوساطة دولة أخرى، إذا لم يترتب على ذلك ضرر للمسلمين[١].

المطلب الثاني: سرية عبد الله بن جحش (رجب ٢هـ - يناير ٦٢٤):

أولاً: أحداث السرية:

قَالَ عَبْدُ الله بْنُ جَحْشٍ: دَعَانِي رَسُولُ الله ﷺ حِينَ صَلّى الْعِشَاءَ.. فَقَالَ: "وَافِ مَعَ الصّبْحِ، مَعَك سِلاَحُك، أَبْعَثُك وَجْهًا".

قَالَ: فَوَافَيْت الصّبْحَ وَعَلَيّ سَيْفِي وَقَوْسِي وَجَعْبَتِي وَمَعِي دَرَقَتِي[٢]، فَصَلّى

(١) بريكك محمد بريكك ٨٦، وعلي محمد الصلابي ١/ ٣٧١.
(٢) دورق للشرب.

النَّبِيّ ﷺ بِالنَّاسِ الصُّبْحَ، ثُمّ انْصَرَفَ فَيَجِدُنِي قَدْ سَبَقْته، وَاقِفًا عِنْدَ بَابِهِ، وَأَجِدُ نَفَرًا مَعِي مِنْ قُرَيْشٍ. فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ أُبَيّ بْنَ كَعْبٍ فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَأَمَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَكَتَبَ كِتَابًا. ثُمّ دَعَانِي فَأَعْطَانِي صَحِيفَةً مِنْ أَدِيمٍ خَوْلاَنِيّ، فَقَالَ: "قَدْ اسْتَعْمَلْتُك عَلَى هَؤُلاَءِ النّفَرِ، فَامْضِ حَتّى إذَا سِرْت لَيْلَتَيْنِ فَانْشُرْ كِتَابِي، ثُمّ امْضِ لِمَا فِيهِ "(١).

وبعدما سَارَ عَبْدُ الله بْنُ جَحْشٍ يَوْمَيْنِ فَتَحَ الْكِتَابَ فَنَظَرَ فِيهِ فَإِذَا فِيهِ:

" إذَا نَظَرْت فِي كِتَابِي هَذَا فَامْضِ حَتّى تَنْزِلَ نَخْلَةَ، بَيْنَ مَكّةَ وَالطّائِفِ، فَتَرَصّدْ بِهَا قُرَيْشًا وَتَعَلّمْ لَنَا مِنْ أَخْبَارِهِمْ ".

فَلَمّا نَظَرَ عَبْدُ الله بْنُ جَحْشٍ فِي الْكِتَابِ قَالَ: سَمْعًا وَطَاعَةً. ثُمّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: " قَدْ أَمَرَنِي رَسُولُ الله أَنْ أَمْضِيَ إلَى نَخْلَةَ، أَرْصُدَ بِهَا قُرَيْشًا، حَتّى آتِيَهُ مِنْهُمْ بِخَبَرِ وَقَدْ نَهَانِي أَنْ لاَ أَسْتَكْرِهَ أَحَدًا مِنْكُمْ. فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُرِيدُ الشّهَادَةَ وَيَرْغَبُ فِيهَا فَلْيَنْطَلِقْ وَمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ فَلْيَرْجِعْ فَأَمّا أَنَا فَمَاضٍ لِأَمْرِ رَسُولِ الله "(٢).

فَمَضَى وَمَضَى مَعَهُ أَصْحَابُهُ لَمْ يَتَخَلّفْ عَنْهُ أَحَدٌ. فسلك الحجاز، حتى إذا كان فِي بُحْرَانُ نَاحِيَةُ مَعْدِنِ بَنِي سُلَيْمٍ(٣) أَضَلّ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ وَعُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ بَعِيرًا لَهُمَا، كَانَا يَعْتَقِبَانِهِ. فَتَخَلّفَا عَلَيْهِ فِي طَلَبِهِ.

وَمَضَى عَبْدُ الله بْنُ جَحْشٍ وَبَقِيّةُ أَصْحَابِهِ حَتّى نَزَلَ بِنَخْلَةَ، فَمَرّتْ بِهِ عِيرٌ لِقُرَيْشٍ تَحْمِلُ زَبِيبًا وَأَدَمًا، وَتِجَارَةً مِنْ تِجَارَةِ قُرَيْشٍ، فِيهَا عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيّ. وفِيهَا خَمْرٌ وَأَدَمٌ وَزَبِيبٌ جَاءُوا بِهِ مِنْ الطّائِفِ(٤).

فَلَمّا رَآهُمْ الْقَوْمُ هَابُوهُمْ، وَقَدْ نَزَلُوا قَرِيبًا مِنْهُمْ فَأَشْرَفَ لَهُمْ عُكّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، وَكَانَ قَدْ حَلَقَ رَأْسَهُ، فَلَمّا رَأَوْهُ أَمِنُوا، وَقَالُوا: عُمّارٌ لاَ بَأْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ(٥).

فأمنوا وقيدوا ركابهم وسرحوها وصنعوا طعامًا(٦).

(١) الواقدي ١ / ١٤ . (٢) السهيلي ٣ / ٤٢ .
(٣) ابن حزم : جوامع السيرة ١ / ١٠٥، الصالحي ٦ / ١٧، الواقدي ١/ ١٧ .
(٤) الواقدي ١/ ١٦ . (٥) السهيلي ٣ / ٤٢ . (٦) الصالحي ٦ / ١٧ .

فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم. ثم اتفقوا على ملاقاتهم - وقد دخلت الأشهر الحرم - التي تعظمها العرب. وقد عظمها الإسلام وأقر حرمتها. فَرَمَى وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ الله التَّمِيمِيّ عَمْرَو بْنَ الْحَضْرَمِيّ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، وشد المسلمون عليهم فأسروا عُثْمَانَ بْنَ عَبْدِ الله، وَالْحَكَمَ بْنَ كَيْسَانَ؛ أسره المقداد بن عمرو، وَأَفْلَتَ نَوْفَلُ بْنُ عَبْدِ الله. وَأَقْبَلَ عَبْدُ الله بْنُ جَحْشٍ وَأَصْحَابُهُ بِالْعِيرِ وَبِالأَسِيرِينَ حَتَّى قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ الْمَدِينَةَ(١).

فَلَمَّا قَدِمَ أفراد السرية عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ المدِينَة، قَالَ-مستنكرًا ما فعلوه: "مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ!!". فَوَقَّفَ الْعِيرَ وَالأَسِيرَيْنِ. وَأَبَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا(٢)!

فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ سُقِطَ فِي أَيْدِي الْقَوْمِ وَظَنّوا أَنَّهُمْ قَدْ هَلَكُوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وندم الصحابة على ما سلكوه في هذه السرية(٣).

ثانيًا: آداب الحروب:

١-أهمية التربية الأمنية في الحروب:

كانت سرية عبد الله بن جحش قد حققت أهدافها، وظهرت قدرتها على التوغل في المناطق الخاضعة لنفوذ قريش مما أذهلها، وزاد دهشتها وذهولها، تلك السرية التامة، والدقة المتناهية التي تمت بها العملية، حتى إن جواسيس قريش لم تستطع رصدها ولا معرفة الوجهة التي قصدتها، وكان ذلك ما أراده رسول الله ﷺ وخطط له بابتكاره أسلوب الرسائل المكتوبة للمحافظة على الكتمان وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التي تفيده عن تحركات المسلمين(٤).

٢-أهمية الضبط العسكري في الحروب:

تظهر آثار التربية العسكرية النبوية في الضبط العسكري الرفيع الذي تميز به قائد

(١) الصالحي ٦ / ١٧.
(٢) ابن هشام ١ / ٦٠٣.
(٣) الصالحي ٦ / ١٨.
(٤) علي محمد الصلابي ١/ ٣٧٤.

السرية وطاعته للأوامر النبوية العليا دون تردد أو تخاذل، فما إن قرأ الكتاب حتى امتثل فورا للأمر بحذافيره معطيًا من نفسه القدوة الحسنة، وباثًّا في نفوس جنوده الحماس[(١)] وهو يقول لهم: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُرِيدُ الشَّهَادَةَ وَيَرْغَبُ فِيهَا فَلْيَنْطَلِقْ، وَمَنْ كَرِهَ ذَلِكَ فَلْيَرْجِعْ. فَأَمَّا أَنَا فَمَاضٍ لِأَمْرِ رَسُولِ الله "[(٢)]. فَمَضَى القائد وَمَضَى مَعَهُ الجنود لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ أَحَدٌ.

٣-احترام الأعراف والتقاليد التي لا تصدم الشرع:

فقد كان العرب يحرمون القتال في الأشهر الحرم أو داخل حدود الحرم المكي، وجاء الإسلام وأقر ذلك، وقد أنكر النبي ﷺ على أصحاب هذه السرية فعلهم، وقد كانت تعليمات النبي واضحة في هذا الشأن، ووضح الهدف الوحيد من هذه السرية في الكتاب الذي كتبه لعبد الله بن جحش، وهو عمل حركة استكشاف وترصد لتحركات قريش بين مكة والطائف وتقديم تقرير تفصيلي بذلك للنبي ﷺ ليس إلا!

٤-الدعايات المغرضة ليست من آداب الحروب:

وقد استغلت قريش ما حدث في هذه السرية من قتل في الشهر الحرام بغرض تشويه صورة الإسلام ونبي الإسلام والمسلمين أمام الرأي العام في الجزيرة العربية. فقَالَتْ قُرَيْشٌ: قَدْ اسْتَحَلّ مُحَمّدٌ وَأَصْحَابُهُ الشّهْرَ الْحَرَامَ! وَسَفَكُوا فِيهِ الدّمَ! وَأَخَذُوا فِيهِ الْأَمْوَالَ! وَأَسَرُوا فِيهِ الرّجَالَ! فرد المسلمون المستضعفون في مكة دفاعًا عن المعسكر الإسلامي وقالوا: إنّمَا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا فِي شَعْبَانَ.

وتحالف يهود المدينة إعلاميًّا مع هذه الحملة الإعلامية المغرضة ضد المسلمين، وقالوا بكلام قريش، وتَوَقّعَ الْيَهُودُ بِالمسْلِمِينَ الشّرّ وَقَالَتْ يَهُودُ - تَفَاءَلَ بِذَلِكَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ: عَمْرُو بْنُ الْحَضْرَمِيّ قَتَلَهُ وَاقِدُ بْنُ عَبْدِ الله، عَمْرٌو، عَمُرَتْ الْحَرْبُ وَالْحَضْرَمِيّ، حَضَرَتْ الْحَرْبُ وَوَاقِدُ بْنُ عَبْدِ الله، وَقَدَتْ الْحَرْبُ. فَجَعَلَ الله ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لاَ لَهُمْ[(٣)].

"وانطلقت الدعاية المضللة على هذا النحو بشتى الأساليب الماكرة التي تروج في البيئة العربية، وتظهر محمداً وأصحابه بمظهر المعتدي الذي يدوس مقدسات

(١) علي محمد الصلابي ١/ ٣٧٤. (٢) السهيلي ٣ / ٤٢. (٣) ابن هشام ١ / ٦٠٤.

العرب، وينكر مقدساته هو كذلك عند بروز المصلحة! حتى نزلت هذه النصوص القرآنية. فقطعت كل قول. وفصلت في الموقف بالحق. فقبض الرسول ﷺ الأسيرين والغنيمة" [(١)].

قال الله تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾[البقرة].

نزلت هذه الآية تقرر حرمة الشهر الحرام، وتقرر أن القتال فيه كبيرة نعم! ولكن الصد عن طريق الله والكفر به واضطهاد الضعفاء وإخراجهم من بيوتهم بغير حق - هو أكبر عند الله. والفتنة أكبر من القتل..

إن المسلمين لم يبدأوا القتال، ولم يبدأوا العدوان.

إنما هم المشركون. هم الذين وقع منهم الصد عن سبيل الله، والكفر به وبالمسجد الحرام، لقد صنعوا كل كبيرة لصد الناس عن سبيل الله. ولقد كفروا بالله وجعلوا الناس يكفرون. ولقد كفروا بالمسجد الحرام. انتهكوا حرمته؛ فآذوا المسلمين فيه، وفتنوهم عن دينهم طوال ثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة. وأخرجوا أهله منه وهو الحرم الذي جعله الله آمناً، فلم يأخذوا بحرمته ولم يحترموا قدسيته.

وإخراج أهله منه أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام.. وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل. وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم في التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام. ومن ثم كان على المسلمين أن يقاتلوهم أنى وجدوهم، لأنهم عادون باغون أشرار، لا يرقبون حرمة، ولا يتحرجون أمام قداسة. وكان على المسلمين ألا يدعوهم يحتمون بستار زائف من الحرمات التي لا احترام لها في نفوسهم ولا قداسة!

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ج١، ص ٢٠٦ تفسير الآية ٢١٧ من سورة البقرة.

لقد كانت كلمة حق يراد بها باطل. وكان التلويح بحرمة الشهر الحرام مجرد ستار يحتمون خلفه، لتشويه موقف الجماعة المسلمة، وإظهارها بمظهر المعتدي.. وهم المعتدون ابتداء. وهم الذين انتهكوا حرمة البيت ابتداء[(١)].

هؤلاء قوم طغاة بغاة معتدون. لا يقيمون للمقدسات وزناً، ولا يتحرجون أمام الحرمات، ويدوسون كل ما تواضع المجتمع على احترامه من خلق ودين وعقيدة. يقفون دون الحق فيصدون الناس عنه، ويفتنون المؤمنين ويؤذونهم أشد الإيذاء، ويخرجونهم من البلد الحرام الذي يأمن فيه كل حي حتى الهوام!.. ثم بعد ذلك كله يتسترون وراء الشهر الحرام، ويقيمون الدنيا ويقعدونها باسم الحرمات والمقدسات، ويرفعون أصواتهم: انظروا ها هو ذا محمد ومن معه ينتهكون حرمة الشهر الحرام!

فكيف يواجههم الإسلام؟ يواجههم بحلول مثالية نظرية طائرة؟ إنه إن يفعل يجرد المسلمين الأخيار من السلاح، بينما خصومهم البغاة الأشرار يستخدمون كل سلاح، ولا يتورعون عن سلاح..! كلا إن الإسلام لا يصنع هذا؛ لأنه يريد مواجهة الواقع، لدفعه ورفعه. يريد أن يزيل البغي والشر، وأن يقلم أظافر الباطل والضلال[(٢)].

إن الإسلام يرعى حرمات من يرعون الحرمات، ويشدد في هذا المبدأ ويصونه.

ولكنه لا يسمح بأن تتخذ الحرمات متاريس لمن ينتهكون الحرمات، ويؤذون الطيبين، ويقتلون الصالحين، ويفتنون المؤمنين، ويرتكبون كل منكر وهم في منجاة من القصاص تحت ستار الحرمات التي يجب أن تصان!

وهو يمضي في هذا المبدأ على اطراد.. إنه يحرم الغيبة.. ولكن لا غيبة لفاسق.. فالفاسق الذي يشتهر بفسقه لا حرمة له يعف عنها الذين يكتوون بفسقه. وهو يحرم الجهر بالسوء من القول. ولكنه يستثني "إلا من ظلم ".. فله أن يجهر في حق ظالمه بالسوء من القول؛ لأنه حق، ولأن السكوت عن الجهر به يطمع

(١)، (٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ١ / ٢٠٦.

الظالم في الاحتماء بالمبدأ الكريم الذي لا يستحقه[١]!

هذا، وقد رأينا كيف استنكر القرآن الكريم هذه الدعاية المغرضة التي شنتها قريش على المسلمين، وعمدوا إلى تشويه صورة العقيدة الإسلامية، وأذاعوا أنها عقيدة تجنح إلى سفك الدماء واستحلال الحرام. وهي شبه قديمة حديثة يرددها الجاهليون في العصر القديم والعصر الحالي على حد سواء. في حين لم نر النظام الإسلامي في عهد النبي استخدم ولو لمرة واحدة هذا الأسلوب الرخيص في الدعاية أثناء الحروب!

صحيح كان يقول الحرب خدعة لكن ليس على حساب القيم الأخلاقية. فالجيش الإسلامي مثلاً يستخدم "السرية" في تحركاته العسكرية، لكن لا يستخدم أبدًا "الخيانة". وفرق كبير بين السرية والخيانة.

٥- حرص القائد على سلامة جنوده:

فلما بعثت قريش في فداء الأسيرين عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان قال رسول الله ﷺ: "لا نُفْدِيكُمُوهما حَتّى يَقْدَمَ صَاحِبَانَا - يَعْنِي سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقّاصٍ، وَعُتْبَةَ بْنَ غَزْوَانَ - فَإِنّا نَخْشَاكُمْ عَلَيْهِمَا، فَإِنْ تَقْتُلُوهُمَا، نَقْتُلْ صَاحِبَيْكُمْ".

فقدم سعد وعتبة، فأفداهما رسول الله ﷺ[٢].

فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأما عثمان بن عبدالله فلحق بمكة فمات بها كافرًا[٣].

ونفهم من المنهاج النبوي ضرورة أن يهتم القائد بسلامة جنده؛ لأنهم هم الذين يقدمون أنفسهم في سبيل نصرة دين الله وإقامة دولة الإسلام[٤].

إن المدارس العسكرية الحديثة تقول: إن الجندي حين يحس باهتمام القيادة به وسلامته وبأمنه، لا يتردد في أن يبذل غاية البذل ويعطي أقصى العطاء[٥].

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ١ / ٢٠٧.

(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ٢ / ٣٦٩، الصالحي ٦ / ١٩، السهيلي ٣ / ٤٤.

(٣) ابن كثير: السيرة النبوية ٢ / ٣٦٩. (٤) علي محمد الصلابي ١/ ٣٧٣.

(٥) انظر: محمد عبد القادر أبو فارس: غزوة بدر ٢٣.

٦-الاعتراف بالخطأ والعمل على إصلاحه:

فقد رأينا في هذه السرية نموذج الاعتراف بالخطأ والعمل على إصلاحه، وهو من آداب الحروب، فقد أطلق رسول الله ﷺ صراح الأسيرين وأدى دية المقتول إلى أوليائه.

* * *

الفصل الثاني
غزوة بدر الكبرى
(الجمعة ١٧ رمضان ٢هـ - ١٣مارس٦٢٤م)

المبحث الأول
ملخص الغزوة

وسببها أن النبى ﷺ سمع بقافلة تجارية لقريش قادمة من الشام بإشراف أبى سفيان بن حرب، وتتكون من ألف بعير محملة بالبضائع، يحرسها أربعون رجلاً فقط، فندب المسلمين إليها، ليأخذوها لقاء ما صادر المشركون من أموال وعقارات المسلمين في مكة. فخف بعضهم لذلك وتثاقل آخرون، إذ لم يكونوا يتصورون قتالاً فى ذلك.

وتحسس أبو سفيان الأمر وهو فى طريقه إلى مكة، فبلغه عزم المسلمين على خروجهم لأخذ القافلة، فأرسل إلى مكة من يخبر قريشاً بالخبر ويستفزهم للخروج لإنقاذ أموالهم.

فبلغ الخبر قريشاً فتجهزوا سراعاً وخرج كل منهم قاصدين القتال حتى إنهم لم يتخلف من أشراف قريش أحد وكانو قريباً من ألف مقاتل.

وخرج رسول الله ﷺ فى ليال مضت من شهر رمضان مع أصحابه، أما أبو سفيان فقد أتيح له أن يحرز عيره، فلما أخبر قريشًا بأن القافلة التجارية قد نجت، وأنه لا داعي للقتال، رفض أبو جهل إلا المواجهة العسكرية.

وخرجت قريش في نحو من ألف مقاتل، منهم ستمائة دارع (لابس للدرع) ومائة فرس، وسبعمائة بعير، ومعهم عدد من القيان يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء الإسلام والمسلمين.

أما المسلمون فكانت عدتهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، من المهاجرين ثلاثة وثمانون، وباقيهم من الأنصار (٦١ من الأوس، و١٧٠ من الخزرج)، وكان

معهم سبعون بعيرًا، وفرسان، وكان يتعاقب النفر اليسير على الجمل الواحد فترة بعد أخرى، وقبل المعركة، استشار النبي أصحابه، وخاصة الأنصار، في خوض المعركة، فأشاروا عليه بخوض المعركة إن شاء، وتكلموا خيرًا. ثم سار النبي ﷺ إلى أرض المعركة في بدر(١)، عند أدنى ماء من العدو نزولاً على اقتراح الحباب بن المنذر، وتم بناء مقر القيادة كما أشار سعد بن معاذ، وقبيل المعركة، أخذ الرسول ﷺ يسوي صفوف الجيش، ويحرضهم على القتال، ويرغبهم في الشهادة، ورجع إلى مقر القيادة ومعه أبو بكر، وأخذ الرسول ﷺ في الدعاء والابتهال إلى الله أن ينصر الإسلام ويعز المسلمين، ثم حمي القتال، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، وقد قُتل منهم أربعة عشر، وقُتل من جيش المشركين سبعون، وأُسر سبعون، وافتدى المشركون أسراهم بالمال ونحوه. وأصدر النبي ﷺ عفوًا عن بعض الأسرى دون أن يأخذ منهم الفداء، نظرًا لفقرهم، وكلّف المتعلمين منهم بتعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة.

ونزلت سورة الأنفال تعقّب على هذه الغزوة وتستنكر على الصحابة اختلافهم على الأنفال. وتركز على سلبيات المعركة لمحاولة تلافيها في المعارك القادمة.

وكثيرة هي تلك المبادئ الأخلاقية للحرب التي ظهرت في هذه الغزوة كأحداث رئيسية في هذه المعركة.. وفيما يلي نقف على أهم مظاهر آداب الحروب في هذه الغزوة.

* * *

(١) مدينة بدر تبعد ١٥٥ كيلومتر عن المدينة، و٣١٠ كيلومتر عن مكة، و٣٠ كيلومتر عن ساحل البحر الأحمر.

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول: حفظ العهود:

قال حذيفة بن اليمان: ما منعنا أن نشهد بدرًا إلا أني وأبي أقبلنا نريد رسول الله ﷺ فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده إنما نريد المدينة، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيرن إلى المدينة ولا تقاتلوا مع محمد ﷺ، لما جاوزناهم أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ما قالوا وما قلنا لهم فما ترى؟ قال: "نستعين الله عليهم ونفي بعهدهم"، فانطلقنا إلى المدينة، فذاك الذي منعنا أن نشهد بدرًا(١) !!

وهذا الموقف من رسول الله ﷺ يعد من مفاخر أخلاقيات الحروب في تاريخ الإنسانية، فلم ير المؤرخون في تاريخ الحروب قاطبة موقفًا يناظر هذا الموقف المبهر، ذلك الموقف الذي نرى فيه القيادة الإسلامية تحترم العهود والعقود لأقصى درجة، حتى العهود التي أخذها المشركون على ضعفاء المسلمين أيام الاضطهاد، برغم ما يعلو هذه العقود من شبه الإكراه.

المطلب الثاني: لا نستعين بمشرك على مشرك:

لما خرج رسول الله ﷺ، إلى بدر فلما كان بحرة الوبرة أدركه خبيب بن إساف(٢)، وكان ذا بأس ونجدة ولم يكن أسلم، ولكنه خرج منجدًا لقومه من الخزرج طالبا للغنيمة، وكانت تُذكر منه جرأة وشجاعة، ففرح أصحاب النبي ﷺ، حين رأوه، فلما أدركه قال: جئت لأتبعك وأصيب معك، فقال له النبي ﷺ: "أتؤمن بالله ورسوله؟" قال: لا، قال: "فارجع فلن نستعين بمشرك"(٣)، "لا يصحبنا إلا من كان على ديننا"(٤). قَالَ خُبَيْبٌ: قَدْ عَلِمَ قَوْمِي أَنّي عَظِيمُ الْغِنَاءِ فِي الْحَرْبِ شَدِيدُ النّكَايَةِ، فَأُقَاتِلُ مَعَك لِلْغَنِيمَةِ وَلَنْ أُسْلِمَ.

---

(١) الحاكم (٤٨٩٦).
(٢) الصالحي ٤ / ٢٣.
(٣) ابن سعد ٣ / ٥٣٥.
(٤) الصالحي ٤ / ٢٣.

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "لاَ، وَلَكِنْ أَسْلِمْ ثُمّ قَاتِلْ" (١). ثم مضى رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بموضع آخر أدركه خُبَيْبٌ فقال مثل مقالته الأولى فقال له النبي ﷺ، كما قال أول مرة فقال الرجل: لا، فقال: "ارجع فلن نستعين بمشرك"، فرجع ثم أدركه بالبيداء فقال مثل ما قال أول مرة فقال له النبي ﷺ مثل ما قال أول مرة: "أتؤمن بالله ورسوله؟" فقال خُبَيْبٌ: نعم، أَسْلَمْت لله رَبّ الْعَالَمِينَ وَشَهِدْت أَنّك رَسُولُ الله (٢) فَسُرّ رَسُولُ اللهﷺ بِذَلِكَ، وَقَالَ: "امْضِهِ" (٣) أو "انطلق" (٤)، وَكَانَ عَظِيمَ الْغِنَاءِ فِي بَدْرٍ وَغَيْرِ بَدْرٍ.

وعلى النقيض من هذا الموقف، جاء أبو قَيْسُ بْنُ مُحَرّثٍ، يطلب القتال مع المسلمين وقد كان مشركًا، فلما رفض الإسلام، رده رَسُولُ الله ﷺ وَرَجَعَ الرجل إلى المدينة، وأسلم بعد ذلك (٥).

نرى القائد الإسلامي في هذا الموقف، يرفض أشد الرفض أن يستعين بمشرك على قتال مشرك، وأقل ما نُعَنون به هذا الموقف الحضاري المتكرر في السيرة الغراء، هو عنوان الحرب الشريفة النظيفة، التي تكون من أجل العقائد والمثل، لا من أجل القهر والظفر بالمغانم.. ففي هذا الموقف دلالة على أن الحرب في الإسلام لا تكون إلا من أجل العقيدة، فلا يصح إذن - إذا كنا نقاتل من أجل العقيدة - أن نستعين بأعداء هذه العقيدة في الحرب.

وتخيل معي شعور الجيش المشرك، عندما تأتيه أنباء رفض القائد الإسلامي الاستعانة عليهم بغير المسلمين.. بيد أن الحروب الجاهلية في الماضي والحاضر يستعين فيها الخصم على خصمه بشتى الملل والنحل، الصالحة والطالحة، المهم أن يظفر الخصم بخصمه، فينهب ويسلب ويغدر.. دون الالتفات إلى قيم أو مثل!

أما القيادة الإسلامية الكريمة فترسخ هذا الأصل الأصيل في أخلاقيات الحروب، بحيث تُظهر عقيدتها السمحة، وتستميل نفوس الجنود الذين جاءوا

---

(١) الواقدي ٤٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) ابن سعد ٣ / ٥٣٥.
(٥) الواقدي ٤٨.

لحرب المسلمين، ناهيك عن البعد الإعلامي، الذي يسحب القائد الإسلامي بساطه من تحت خصمه، الذي جاء بطرًا ورئاء الناس، فيظهر الخصم المشرك أمام الرأي العام العالمي والإقليمي بمظهر المتعجرف. . أما الجيش الإسلامي فيظهر بمظهر جيش الخير، الذي يحترم العقيدة، إلى الدرجة التي يرفض فيها أن يستعين في قتاله بمن يخالف عقيدته.

المطلب الثالث: مشاركة القائد جنوده في الصعاب:

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: كنا يوم بدر، كل ثلاثة على بعير، فكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ قال: فكانت إذا جاءت عقبة رسول الله ﷺ قالا: نحن نمشي عنك قال: "ما أنتما بأقوى مني وما أنا بأغنى عن الأجر منكما "[١].

فالقائد الصالح هو من يشارك جنوده الصعاب، ويحفزهم على القليل والكثير من الصالحات، ليكون قدوة طيبة أخلاقية لجنوده في المنشط والمكره، وليس القائد بالذي يتخلف عن جيشه رهبًا من الموقف أو يتلذذ بصنوف النعيم الدنيوي وجنده يكابد الحر والقر.

المطلب الرابع: استشارة القادة والجنود:

في وداي ذَفِرَانَ[٢] بلغ النبي ﷺ نجاة القافلة وتأكد من حتمية المواجهة العسكرية مع العدو أو الفرار. . استشار الناس ووضعهم أمام الوضع الراهن إما ملاقاة العدو وإما الهروب إلى المدينة. . . . فقال لجنوده: "أَشِيرُوا عَلَيّ أَيّهَا النّاسُ" ورددها مرارًا، وما زال يكررها عليهم، فيقوم الواحد تلو الآخر ويدلو بدلوه، فقام أبو بكر فقال وأحسن. ثم قام عمر فقال وأحسن. ثم قام الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فقال وأحسن. . حتى قام القيادي الأنصاري البارز سعد بن معاذ، فحسم نتيجة الشورى لصالح الحل العسكري، قائلا:

" لَقَدْ آمَنّا بِك وَصَدّقْنَاك، وَشَهِدْنَا أَنّ مَا جِئْت بِهِ هُوَ الْحَقّ، وَأَعْطَيْنَاك عَلَى

---

(١) ابن سيد الناس ١/ ٣٢٧، و ابن هشام ٢/ ٣٨٩، وحسنه الألباني في تحقيق فقه السيرة ١٦٧ .

(٢) يبعد وادي ذفران ٩٠ - ١١٠ كيلومتر عن المدينة ، وكان في هذا الوادي المجلس الاستشاري الشهير لمعركة بدر .

ذَلِكَ عُهُودِنَا وَمَوَاثِيقِنَا، عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ. فَامْضِ يَا رَسُولَ الله لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَك، فَوَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْته لَخُضْنَاهُ مَعَك، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إنّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ. لَعَلّ الله يُرِيك مِنّا مَا تَقَرّ بِهِ عَيْنُك، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ الله "[١].

فهذا هو المجتمع الإسلامي، الذي يعتبر الشورى ركنًا من أركانه، وأصلاً في بنيانه.. في أيام كانت أوربا تحت حكم وراثي كنسي مستبد، يقيد الجنود بالسلاسل – في المعارك – حتى لا يفروا. لا قيمة عندهم لرأي، ولا وزن – في تصوراتهم – لفكر.

المطلب الخامس: التفاؤل والتبشير بالنصر:

سُرّ رَسُولُ الله ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ وَنَشّطَهُ ذَلِكَ ثُمّ قَالَ: "سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنّ الله تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إحْدَى الطّائِفَتَيْنِ! والله لَكَأَنّي الْآنَ أَنْظُرُ إلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ!!"[٢].

وفي اليوم السابق ليوم بدر مشى ﷺ في أرض المعركة وجعل يُري جنوده مصارع رؤوس المشركين واحدًا واحدًا.

وَجَعَلَ يُشِيرُ بِيَدِهِ: هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ [ووضع يده بالأرض][٣]، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ – إنْ شَاءَ الله، فَمَا تَعَدّى أَحَد مِنْهُمْ مَوْضِعَ إشَارَتِهِ[٤]. فَعَلِمَ الْقَوْمُ أَنّهُمْ يُلَاقُونَ الْقِتَالَ وَأَنّ الْعِيرَ تُفْلِتُ وَرَجَوْا النّصْرَ لِقَوْلِ النّبِيّ ﷺ[٥].

قال أنس: "ويضع يده على الأرض هاهنا هاهنا. فما ماطَ أحدهم عن موضع يد رسول الله"[٦].

وقال عمر: "فوالذي بعثه بالحق! ما أخطؤوا الحدود التي حد رسول الله"[٧].

---

(١) السهيلي ٣ / ٥٧ . (٢) السهيلي ٣ / ٥٧ . (٣) الصالحي ٤ / ٥٤ .
(٤) ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ١٥٣ . (٥) الواقدي ٤٩ .
(٦) البيهقي : دلائل نبوة النبي ﷺ، باب ذكر رسول الله ﷺ من قتل ببدر من المشركين، وما في ذلك من دلائل النبوة (٢١).
(٧) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه=

وقوله ﷺ لعقبة بن أبي معيط – المجرم المعروف: "إن وجدتك خارج جبال مكة قتلتك صبرا" [١]، فحقق الله -تعالى- ذلك.

وأخبر بقتل المسلمين لأمية بن خلف[٢]، ولذلك قال سعد بن معاذ لأمية عندما ذهب إلى مكة قبيل بدر: يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله يقول: "إنهم قاتلوك" ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً[٣].

المطلب السادس: النهي عن استجلاب المعلومات بالعنف:

وهذا مظهر آخر من مظاهر آداب الحروب، فقد حذر رسولنا ﷺ من انتزاع المعلومات بالقوة من الناس.

ففي ليلة المعركة بَعَثَ النبي ﷺ عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَالزّبَيْرَ بْنَ الْعَوّامِ، وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقّاصٍ، فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إلَى مَاءِ بَدْرٍ في مهمة استخباراتية لجمع المعلومات، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين، فألقوا عليهما القبض، وَأَتَوْا بِهِمَا فَسَأَلُوهُمَا، وَرَسُولُ الله ﷺ قَائِمٌ يُصَلّي، فَقَالاَ: نَحْنُ سُقَاةُ قُرَيْشٍ، بَعَثُونَا نَسْقِيهِمْ مِنْ الْمَاءِ. فَكَرِهَ الْقَوْمُ خَبَرَهُمَا، وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَا لِأَبِي سُفْيَانَ – لا تزال في نفوسهم بقايا أمل في اصطياد القافلة التجارية دون حرب – فَضَرَبُوهُمَا ضربًا موجعًا، حتى اضطر الغلامان أن يقولا: نَحْنُ لِأَبِي سُفْيَانَ فَتَرَكُوهُمَا.

فلما أتم رسول الله ﷺ صلاته؛ قَالَ لهما مستنكرًا: "والذي نفسي بيده إنكم لتضربونهما إذا صدقا و تتركونهما إذا كذبا" [٤]. ثم قال لهما: "إذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا؟! ، صَدَقَا، والله إنّهُمَا لِقُرَيْشٍ" [٥].

هكذا كانت معاملة القيادة الإسلامية لمن وقع في قبضة المخابرات الإسلامية للاستجواب، فنهى القائد عن تعذيب المستجوَب، أو انتزاع المعلومات منه بالقوة، فسبق اتفاقية جنيف الثالثة لعام ١٩٤٩ التي تحظر إجبار الأسير على

=وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه (٢٨٧٣).

(١) الصالحي ٤ / ١٨.

(٢) البيهقي: دلائل نبوة النبي، باب ذكر رسول الله ﷺ من قتل ببدر من المشركين، وما في ذلك من دلائل النبوة (٢١).

(٣) المصدر السابق.

(٤) ابن كثير: الفصول في السيرة ٢٧.

(٥) ابن هشام ١ / ٦١٦.

الإدلاء بمعلومات سوى معلومات تتيح التعرف عليه مثل اسمه وتاريخ ميلاده ورتبته العسكرية، وجرّم رسول الله ﷺ كل أعمال التعذيب أو الإيذاء أو الضغط النفسي والجسدي التي تمارس على الأسير ليفصح عن معلومات حربية.

وثمة تقدم إسلامي على هذه الاتفاقات الأخيرة، فرسول الله ﷺ قد طبق هذه التعاليم التي تحترم حقوق الأسير، بيد أن دول الغرب في العصر الحديث لم تُعِرْ اهتمامًا لهذه الاتفاقات ولم تحترمها، والدليل على ذلك ما يفعله الجنود الأمريكيون في الشعب العراقي والأفغاني، وما يفعله الصهاينة في الشعب الفلسطيني.

المطلب السابع: احترام آراء الخبراء والجنود:

فقد قال عبد الله بن رواحة في موقف من مواقف بدر: "يا رسول الله إني أريد أن أشير عليك" [(١)] فأنصت رسول الله ﷺ لقول ابن رواحة وقال له قولاً حسنًا.

ولما تحرك رسول الله ﷺ إلى موقع ماء بدر في موقع المعركة، نزل بالجيش عند أدنى بئر من آبار بدر من الجيش الإسلامي، وهنا قام الْحُبَاب بْنَ الْمُنْذِرِ وأشار على النبي ﷺ بموقع آخر أفضل من هذا الموقع قائلا:

يَا رَسُولَ الله ! أَرَأَيْت هَذَا الْمَنْزِلَ، أَمَنْزِلاً أَنْزَلَكَهُ الله، لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدّمَهُ وَلاَ نَتَأَخّرَ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ؟ قَالَ: "بَلْ هُوَ الرّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ" . فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله فَإِنّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلِ، فَانْهَضْ بِالنّاسِ حَتّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ، فَنَنْزِلَهُ ثُمّ نُغَوّرَ [(٢)] مَا وَرَاءَهُ مِنْ الْقُلُبِ، ثُمّ نَبْنِيَ عَلَيْهِ حَوْضًا فَنَمْلَؤُهُ مَاءً، ثُمّ نُقَاتِلَ الْقَوْمَ، فَنَشْرَبَ وَلاَ يَشْرَبُونَ. .

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ – مشجعًا: " لَقَدْ أَشَرْت بِالرّأْيِ" .

وبادر النبي بتنفيذ ما أشار به الحباب، ولم يستبد برأيه برغم أنه القائد الأعلى، وعليه ينزل الوحي من السماء، فَنَهَضَ رَسُولُ الله ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ النّاسِ فَسَارَ حَتّى إذَا أَتَى أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ، نَزَلَ عَلَيْهِ، ثُمّ أَمَرَ بالآبار فخُربت، وَبَنَى حَوْضًا

(١) الصالحي ٤ / ٣٧، و الطبراني في الكبير ٤ / ٢١٠ ، والسيوطي في الدر المنثور ٣ / ٢٦٣ ، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.
(٢) أي ندفن. وفي رواية : نعور.

عَلَى الْبئر الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ فَمُلِئَ مَاءً، ثُمّ قَذَفُوا فِيهِ الْآنِيَةَ[١].

إن هذه المواقف لتبين كيف تكون العلاقة بين القائد وجنوده، إنها علاقة تحترم الآراء الناضجة وتشجع الأفكار الصاعدة.

المطلب الثامن: تأمين مقر القيادة:

فقد قال القائد الإسلامي سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ - مبينًا أهمية تأمين سلامة القائد والقيادة: "يَا نَبِيّ الله، أَلاَ نَبْنِي لَك عَرِيشًا [من جريد[٢]] تَكُونُ فِيهِ نُعِدّ عِنْدَك رَكَائِبَك [أو رواحلك[٣]]، ثُمّ نَلْقَى عَدُوّنَا، فَإِنْ أَعَزّنَا الله وَأَظْهَرَنَا عَلَى عَدُوّنَا، كَانَ ذَلِكَ مَا أَحْبَبْنَا، وَإِنْ كَانَتْ الْأُخْرَى، جَلَسْتَ عَلَى رَكَائِبِك، فَلَحِقْتَ بِمَنْ وَرَاءَنَا، فَقَدْ تَخَلّفَ عَنْك أَقْوَامٌ يَا نَبِيّ الله، مَا نَحْنُ بِأَشَدّ لَك حُبّا مِنْهُمْ ! وَلَوْ ظَنّوا أَنّك تَلْقَى حَرْبًا مَا تَخَلّفُوا عَنْك، يَمْنَعُك الله بِهِمْ يُنَاصِحُونَكَ وَيُجَاهِدُونَ مَعَك"[٤].

فَأَثْنَى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ خَيْرًا، وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ.

وقال مبشرًا: "أو يقضي الله خيراً من ذلك يا سعد!"[٥].

ثُمّ بُنِيَ لِرَسُولِ الله ﷺ عَرِيش على تل مرتفع يشرف على ساحة القتال[٦] استجابة لمطلب سعد رضي الله عنه.

وكان فيه أبو بكر، ما معهما غيرهما[٧].

كما تم انتخاب فرقة من جنود الأنصار بقيادة سعد بن معاذ لحراسة مقر قيادة حضرة النبي ﷺ[٨].

المطلب التاسع: حسن الظن بالجنود القاعدين:

وذلك في قول سعد بن معاذ للنبي ﷺ عندما اقترح عليه فكرة العريش، قال

(١) السهيلي ٣ / ٦٢، ابن سيد الناس ١ / ٣٣٢، ابن هشام - ١ / ٦٢٠، ابن كثير: السيرة النبوية ٢ / ٤٠٢، والصالحي ٤ / ٣٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١ / ٢٨٣، والطبري ١ / ٤٤٥.

(٣) الواقدي ٤٩. (٤) السهيلي ٣ / ٦٣. (٥) الواقدي ١٧. (٦) السهيلي ٣ / ٦٣.

(٧) ابن الأثير: أسد الغابة ٢ / ١٤٣، والذهبي: تاريخ الإسلام للذهبي ١ / ١٧٩.

(٨) انظر: ابن هشام ٢/ ٢٣٣.

سعد - في رواية:

إنّا قَدْ خَلَفْنَا مِنْ قَوْمِنَا قَوْمًا مَا نَحْنُ بِأَشَدّ حُبًا لَك مِنْهُمْ، وَلاَ أَطْوَعَ لَك مِنْهُمْ، لَهُمْ رَغْبَةٌ فِي الْجِهَادِ وَنِيّةٌ، وَلَوْ ظَنّوا يَا رَسُولَ الله أَنّك مُلاَقٍ عَدُوّا مَا تَخَلّفُوا، وَلَكِنْ إنّمَا ظَنّوا أَنّهَا الْعِيرُ (١).

المطلب العاشر: العدل بين القائد والجندي:

قلما نرى في تاريخ الحروب صورة تعبر عن العدل بين القادة والجنود، فالتاريخ الإنساني حافل بصور استبداد القادة العسكريين وظلمهم للجنود.. أما محمد ﷺ فنراه في أرض المعركة يقف أمام جندي من جنوده لَيَقتص الجندي منه.. أما الجندي فهو سَوَادِ بْنِ غَزِيّةَ، لما اسْتَنْتَل من الصف، غمزه النبي غمزة خفيفة في بَطْنِهِ - بالسهم الذي لا نصل له - وقال: "اسْتَوِ يَا سَوّادُ!".. قال: يا رسول الله! أوجعتني! وقد بعثك الله بالحق والعدل؛ فَأَقِدْنِي! فكشف رسول الله ﷺ عَنْ بَطْنِهِ، وَقَالَ: "اسْتَقِدْ".. فَاعْتَنَقَهُ فَقَبّلَ بَطْنَهُ! فَقَالَ النبي ﷺ: "مَا حَمَلَك عَلَى هَذَا يَا سَوّادُ؟"، قال: حضر ما ترى، فَأَرَدْتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك! فدعا له رسول الله بخير (٢).

المطلب الحادي عشر: دعاء القائد لجنده:

لما عَدّلَ رَسُولُ الله ﷺ الصّفُوفَ وَرَجَعَ إلَى مقر القيادة، فَدَخَلَهُ وَمَعَهُ فِيهِ أَبُوبَكْرٍ الصّدّيقُ، لَيْسَ مَعَهُ فِيهِ غَيْرُهُ، إذا بَرَسُول الله ﷺ يُنَاشِدُ رَبّهُ مَا وَعَدَهُ مِنْ النّصْرِ وَيَقُولُ فِيمَا يَقُولُ: "اللهمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي. اللهمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي.. اللهمَّ إنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإسلام لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ!!" (٣).. وبالغ في الابتهال، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: "يَا نَبِيَّ الله! كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ" (٤)... ثُمّ انْتَبَهَ فَقَالَ "أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ! أَتَاك نَصْرُ الله! هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ

(١) الواقدي ١ / ٤٩.

(٢) ابن هشام ١ / ٦٢٦، السهيلي ٣ / ٦٧، الواقدي ٥٧، ابن سيد الناس ١ / ٣٣٦، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢٨٣٥.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (٣٣٠٩).

(٤) المصدر السابق.

بِعَنَانِ فَرَسٍ يَقُودُهُ عَلَى ثَنَايَاهُ النَّقْعُ "(١).

وكان من دعاء النبي ﷺ ما ذكره علي بن أبي طالب، حيث قال: "لما كان يوم بدر قاتلت شيئا من قتال، ثم جئت مسرعًا إلى النبي ﷺ لأنظر ما فعل، فإذا هو ساجد يقول: "يا حي يا قيوم"، لا يزيد عليهما، ثم رجعت إلى القتال ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك، ثم ذهبت إلى القتال. ثم رجعت وهو ساجد يقول ذلك"(٢).

ونظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثرهم وإلى المسلمين فاستقلهم، فركع ركعتين، وقام أبو بكر عن يمينه، فقال رسول الله ﷺ في صلاته: "اللهم لا تودع مني، اللهم لا تخذلني، اللهم أنشدك ما وعدتني"(٣).

وكان من دعائه كذلك لجنوده: "اللهم إنهم حفاة فاحملهم، اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم"(٤). قال عبد الله بن عمرو: ففتح الله له يوم بدر فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا.

وَدَعَا يَوْمَئِذٍ لِأَهْلِ المدِينَةِ فَقَالَ: "اللهمّ إنّ إبْرَاهِيمَ عَبْدُك وَخَلِيلُك وَنَبِيّك، دَعَاك لِأَهْلِ مَكّةَ وَإِنّي مُحَمّدٌ عَبْدُك وَنَبِيّك، أَدْعُوك لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ، أَنْ تُبَارِكَ لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ وَمُدّهِمْ وَثِمَارِهِمْ اللهمّ حَبّبْ إلَيْنَا الْمَدِينَةَ، وَاجْعَلْ مَا بِهَا مِنْ الْوَبَاءِ بِخُمّ(٥)، اللهمّ إنّي قَدْ حَرّمْت مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا كَمَا حَرّمَ إبْرَاهِيمُ خَلِيلُك مَكّةَ"(٦).

قال ابن مسعود: "ما سمعت مناشدًا ينشد مقالة، أشد مناشدة من رسول الله ﷺ لربه يوم بدر"(٧).

---

(١) السهيلي ٣ / ٦٨، والسيوطي في الدر المنثور ٣ / ١٧٢، وعزاه للبيهقي في الدلائل وأخرجه البيهقي في الدلائل (٢ / ٣٣٦)، (٣ / ٥٤).

(٢) الصالحي ٤ / ٣٧.

(٣) الصالحي ٤ / ٣٨، وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٨٧٢).

(٤) أبو داود، كتاب الجهاد، باب في نفل السرية تخرج من العسكر، (٢٧٤٧)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٠٣).

(٥) خُمّ عَلَى مِيلَيْنِ مِنَ الْجُحْفَةِ.

(٦) الواقدي ٢٣، والصالحي ٤ / ٢٣، وصحح الألباني نحو هذه الصيغة في صحيح وضعيف سنن الترمذي، رقم ٣٩١٤، وهناك صيغة في الصحيحين هي: "إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة".

(٧) ابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٤١٩.

المطلب الثاني عشر: الحوار قبل الصدام:

أراد النبي أن يستنفد كل وسائل الصلح والسلام قبل أن يخوض المعركة، فما أُرسل إلا رحمة للعالمين، فأراد أن يبادر بمبادرة للسلام ليرجع الجيشان إلى ديارهما، فتُحقن الدماء، أو ليقيم الحجة على المشركين، فلما نَزَلَ الجيش الوثني أرض بدر أَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ إلى قُرَيْشٍ، وقد كان سفيرهم في الجاهلية، فنصحهم عمر بالرجوع إلى ديارهم حقنًا للدماء.. فتلقفها حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ أحد عقلاء المشركين، فقال: قد عَرَضَ نصْفًا، فَاقْبَلُوهُ، والله لا تُنْصَرُونَ عليه بعد ما عرض من النّصْفِ. فقَالَ أَبُو جَهْلٍ: والله لاَ نَرْجِعُ بَعْدَ أَنْ أَمْكَنَنَا الله مِنْهُمْ، وَلاَ نَطْلُبُ أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ، وَلاَ يَعْتَرِضُ لِعِيرِنَا بَعْدَ هَذَا أَبَدًا[١].

ومن ثم فشلت مبادرة السلام من النبي ﷺ، ولكن يبقى له فضل السبق بطلب السلام؛ ليحقق ذلك المبدأ الأخلاقي الكبير "الحوار قبل الصدام".

المطلب الثالث عشر: الوفاء حتى مع المشركين:

فقد قال النَّبِي ﷺ فِي أُسَارَى بَدْرٍ: "لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا[٢] ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاَءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ"[٣]. وفي رواية: "لأطلقتهم له".

وذلك لأن المطعم قد أدخل النبي ﷺ في جواره فور رجوعه من الطائف إلى مكة، فقد منعه المشركون الدخول إلى وطنه، وفي الوقت الذي تخلى فيه الناس عن حماية النبي خوفًا من بطش أبي جهل، قال المطعم: "يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدًا فلا يهجه أحد منكم".

وقد حفظ النبي ﷺ للمطعم هذا الصنيع وهذه الشهامة.

وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ زَوّجَ عُتْبَةَ بْنَ أَبِي لَهَبٍ رُقَيّةَ أَوْ أُمّ كُلْثُوم. فَلَمّا بَادَى قُرَيْشًا بِأَمْرِ الله تَعَالَى وَبِالْعَدَاوَةِ قَالُوا: إنّكُمْ قَدْ فَرّغْتُمْ مُحَمّدًا مِنْ هَمّهِ فَرُدّوا عَلَيْهِ بَنَاتِهِ فَاشْغَلُوهُ بِهِنّ. فمَشَوْا إلَى عُتْبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ، فَقَالُوا لَهُ طَلّقْ بِنْتَ مُحَمّدٍ وَنَحْنُ

(١) الواقدي ١ / ٦٢، و الصالحي ٤ / ٣٣.

(٢) فقد مات المطعم بمكة - في صفر من العام الثاني للهجرة- كافراً، ودفن بالحجون وهو ابن بضع وتسعين سنة، أقيم النوح سنة عليه. (ابن الجوزي: المنتظم - ١ / ٣١٦).

(٣) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما مَن النبي ﷺ على الأسارى من غير أن يُخَمِّسَ (٢٩٠٦).

نُنْكِحُكَ أَيّ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ شِئْت، ففعل. وَمَشَوْا إِلَى أَبِي الْعَاصِ فَقَالُوا لَهُ: فَارِقْ بِنْتَ مُحَمّدٍ وَنَحْنُ نُنْكِحُكَ أَيّ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ شِئْت، قَالَ: لاَ وَالله إنّي لاَ أُفَارِقُ صَاحِبَتِي، وَمَا أُحِبّ أَنّ لِي بِامْرَأَتِي امْرَأَةً مِنْ قُرَيْشٍ[(١)]، فحفظ له رسول الله هذا الصنيع، وقد كان أبو العاص في أسرى بدر، فأفرج عنه رسول الله دون فداء، كما سنذكر في صور إكرام الأسرى.

وعن ابْنِ عَبّاسٍ: أَنّ النّبِيّ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: "إنّي قَدْ عَرَفْت أَنّ رِجَالاً مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أُخْرِجُوا كُرْهًا، لاَ حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلاَ يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيّ بْنَ هِشَامِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ أَسَدٍ فَلاَ يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطّلِبِ، فَلاَ يَقْتُلْهُ، فَإِنّهُ إنّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا."[(٢)]، وقد كان العباس في مكة بمثابة قلم المخابرات للدولة الإسلامية، وقد كان مسلمًا يكتم إيمانه.

وَإِنّمَا نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنْ قَتْلِ أَبِي الْبَخْتَرِيّ لِأَنّهُ كَانَ أَكَفّ الْقَوْمِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ بِمَكّةَ، وَكَانَ لاَ يُؤْذِيهِ وَلاَ يَبْلُغُهُ عَنْهُ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ، وَكَانَ مِمّنْ قَامَ فِي نَقْضِ الصّحِيفَةِ الّتِي كَتَبَتْ قُرَيْشٌ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطّلِبِ. فَلَقِيَهُ الْمُجَذّرُ بْنُ ذِيَادٍ الْبَلَوِيّ فَقَالَ الْمُجَذّرُ لِأَبِي الْبَخْتَرِيّ: "إنّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ نَهَانَا عَنْ قَتْلِك.."[(٣)].

فمثل هذه المواقف تؤكد أن القيادة الإسلامية تحفظ الجميل لأصحاب الشهامة وإن كانوا من فسطاط المشركين.

المطلب الرابع عشر: إكرام الأسرى:

أولاً: جنوح القيادة الإسلامية للعفو عن الأسرى:

بعدما أكرم الله الجيش الإسلامي بالنصر، واستوثق المسلمون من الأسرى، استشار النبي ﷺ وزراءه في أسارى بدر فأشار عليه أبو بكر أن يأخذ منهم فدية،

(١) ابن هشام ١ / ٦٥٢ .

(٢) ابن هشام ١ / ٦٢٨، ابن سيد الناس ١ / ٣٣٩، ابن كثير: السيرة النبوية ٢ / ٤٣٦، الصالحي ٤/ ٤٩، ابن سعد ٤ / ١٠ .

(٣) ابن هشام ١ / ٦٢٨، ابن سيد الناس ١ / ٣٣٩، ابن كثير: السيرة النبوية ٢ / ٤٣٦، الصالحي ٤/ ٤٩ .

فهم بنو العم والعفو عنهم أحسن، ولعل الله أن يهديهم إلى الإسلام. وقال عمر: لا والله ما أرى الذي رأى أبو بكر ولكن أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها!!

فهوي النبي ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قال عمر. فلما كان من الغد أقبل عمر فإذا رسول الله ﷺ يبكي هو وأبو بكر فقال: يا رسول الله! من أي شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: "أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء! لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة!" وأنزل الله تعالى قوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال].

وقد تكلم العلماء في أي الرأيين كان أصوب فرجحت طائفة قول عمر لهذا الحديث ورجحت طائفة قول أبي بكر لاستقرار الأمر عليه وموافقته الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم ولموافقته الرحمة التي غلبت الغضب، ولتشبيه النبي ﷺ له في ذلك بإبراهيم وعيسى، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء ولموافقة رسول الله ﷺ لأبي بكر أولاً ولموافقة الله له آخراً حيث استقر الأمر على رأيه ولكمال نظر الصديق فإنه رأى ما يستقر عليه حكم الله آخراً وغلب جانب الرحمة على جانب العقوبة(١).

ثانيا: تكفل المجتمع الإسلامي بإكرام الأسرى:

حين أقبل بالأسارى - بعد بدر - فرقهم النبي ﷺ بين أصحابه وقال: "استوصوا بهم خيراً" (٢).

وبهذه التوصية النبوية الرفيعة، تحقق في هذا الجيل الإسلامي الفضيل قول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾[الإنسان].

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد، ٣ / ٩٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ٣/ ٣٠٧.

ثالثًا: توفير الرعاية الغذائية للأسرى:

وهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يحدثنا عما رأى. قال: كنت في الأسرى يوم بدر[١]، فقال رسول الله ﷺ: " اسْتَوْصُوا بِالْأُسَارَى خَيْرًا "[٢]. وكُنْتُ فِي رَهْطٍ مِنْ الْأَنْصَارِ حِينَ أَقْبَلُوا بِي مِنْ بَدْرٍ فَكَانُوا إِذَا قَدَّمُوا غَدَاءَهُمْ وَعَشَاءَهُمْ خَصّونِي بِالْخُبْزِ وَأَكَلُوا التَّمْرَ لِوَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ إِيَّاهُمْ بِنَا، مَا تَقَعُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ كِسْرَةُ خُبْزٍ إِلاّ نَفَحَنِي بِهَا. قَالَ فَأَسْتَحْيِيَ فَأَرُدّهَا عَلَى أَحَدِهِمْ فَيَرُدّهَا عَلَيّ ما يَمَسّهَا [٣].

لقد سبق تلاميذ محمد ﷺ تلك الاتفاقات الحديثة التي نصت على ضرورة إطعام الأسرى الطعام الجيد وتوفير الرعاية الصحية والنفسية لهم. فقد جاء في المادة (٢٠) من اتفاقية جنيف الثالثة بشأن معاملة أسرى الحرب المؤرخة في ١٢ آب – أغسطس ١٩٤٩ أن "على الدولة الحاجزة أن تزود أسرى الحرب الذين يتم إجلاؤهم بكميات كافية من ماء الشرب والطعام وبالملابس والرعاية الطبية اللازمة. وعليها أن تتخذ جميع الاحتياطات لضمان سلامتهم أثناء نقلهم، وأن تعد بأسرع ما يمكن قائمة بأسرى الحرب الذين يتم إجلاؤهم. فإذا اقتضى الأمر مرور أسرى الحرب أثناء نقلهم بمعسكرات انتقالية، وجب أن تكون مدة إقامتهم في هذه المعسكرات أقصر ما يمكن" [٤].

رابعًا: تبادل الأسرى:

ولما أُسر عمرو بن أبي سفيان بن حرب، في معركة بدر، ووقع أسيرًا في يد رسول الله ﷺ فقيل لأبي سفيان: افد عمرًا ابنك! قال: أيجمع علي دمي ومالي، قتلوا حنظلة وأفدي عمرًا، دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم.

فبينا هو كذلك محبوس بالمدينة عند رسول الله ﷺ إذ خرج شيخ كبير مسلم إلى مكة لأداء العمرة، وكان اسمه سعد بن النعمان بن أكال – أخو بني عمرو بن عوف– فخرج معتمرًا، رغم أن الظروف السياسية عصيبة لاسيما بعد بدر. ولم يظن أنه يحبس بمكة، إنما جاء معتمراً، وقد كان عهد أن قريشًا لا يعرضون لأحد

(١) أيام كان على غير الإسلام، وكان في جيش المشركين.

(٢) ابن هشام ١ / ٦٤٤ .

(٣) ابن هشام ١ / ٦٤٤، وابن سيد الناس ١/ ٣٩٣ .

(٤) الموقع الرسمي للجنة الدولية للصليب الأحمر www.icrc.org .

جاء حاجًا أو معتمرًا إلا بخير، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة، فحبسه بابنه عمرو.

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ فأخبروا خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان، فيفكوا به الشيخ، ففعل رسول الله ﷺ، وأفرج عن ابن أبي سفيان على الفور، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلى سبيل سعد(١).

خامسًا: تأثر الأسرى بالأخلاق الإسلامية السمحة:

فهذا أبو العاص بن الربيع يحدثنا - في إعجاب وتأثر بأخلاق المسلمين - فيقول: كنت في رهط من الأنصار (٢) - جزاهم الله خيرًا -، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده كسرة فيدفعها إليَّ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد: وكانوا يحملوننا ويمشون(٣).

وقد كان أَبُو الْعَاصِ بْنُ الرّبِيعِ في الأسارى، وختن رسول الله ﷺ، وزوج ابنته زينب، أسره خِرَاشُ بْنُ الصّمّةَ، فلما بعثت قريش فداء الأسرى بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص وأخيه عمرو بن الربيع بقلادة لأمها خديجة، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، وقال: "إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا"، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها(٤).

إن هذه المواقف كان لها بالغ الأثر في نفس "أبي الْعَاصِ بْنُ الرّبِيعِ" الأمر الذي دفعه إلى إعلان إسلامه بين ظهراني قريش.

المطلب الخامس عشر: النهي عن المثلة بالأسير:

فلما قال عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ لِرَسُولِ الله ﷺ: يَا رَسُولَ الله، دَعْنِي أَنْزِعْ ثَنِيّتَيْ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَيَدْلَعُ لِسَانَهُ فَلاَ يَقُومُ عَلَيْك خَطِيبًا فِي مَوْطِنٍ أَبَدًا". وقد كان خطيبًا مثقعًا، يهجو الرسول ﷺ.

---

(١) الطبري ١ / ٤٥٥، الصالحي ٤/ ٧٠.

(٢) قبل إسلامه، أيام كان في جيش قريش، وأسره الصحابة في معركة بدر.

(٣) انظر: الواقدي ١/ ١١٩. (٤) الصالحي ٤ / ٧١.

فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "لاَ أُمَثِّلُ بِهِ، فَيُمَثِّلُ الله بِي وَإِنْ كُنْتُ نَبِيًا !!". ثم قال لعمر: "إِنَّهُ عَسَى أَنْ يَقُومَ مَقَامًا لاَ تَذُمَّهُ" (١).

فقام سهيل بن عمرو حين ارتد قبائل العرب، يثبت الناس، ويحثهم على التمسك بالإسلام، وقال عمر حين بلغه كلام سهيل: أشهد إنك لرسول الله! يريد حيث قال النبي ﷺ: "لعله يقوم مقاماً لا تكرهه" (٢).

لقد سبق رسول الله ﷺ كل الاتفاقات الدولية بشأن تحريم المثلة بالأسير أو إهانته. رغم ما تفعله جيوش الدول التي تسمي نفسها متحضرة في أسرى المسلمين في العراق وفلسطين وبلاد المسلمين الأخرى المحتلة.

وقد جاء في المادة (١٣) من اتفاقية جنيف الثالثة بشأن معاملة أسرى الحرب المؤرخة في ١٢آب - أغسطس ١٩٤٩:

" يجب معاملة أسرى الحرب معاملة إنسانية في جميع الأوقات. ويحظر أن تقترف الدولة الحاجزة أي فعل أو إهمال غير مشروع يسبب موت أسير في عهدتها، ويعتبر انتهاكاً جسيماً لهذه الاتفاقية. وعلى الأخص، لا يجوز تعريض أي أسير حرب للتشويه البدني أو التجارب الطبية أو العلمية من أي نوع كان مما لا تبرره المعالجة الطبية للأسير المعني أو لا يكون في مصلحته" (٣).

في حين نجد الصهاينة قد حولوا السجون - الممتلئة بالشبان الفلسطينيين -إلى حقل تجارب طبية، إلى جانب انتشار ظاهرة سرقة أعضاء وأجزاء من جسد السجين في سجون الصهاينة. الأمر الذي ترفضه كل الشرائع والأعراف والمواثيق.

* * *

(١) ابن هشام ١ / ٦٤٩، الذهبي : تاريخ الإسلام ١ / ١٧٥ ، ابن كثير: البداية والنهاية ٣ / ٣٧٨ .
(٢) الواقدي ١ / ٣٩ .
(٣) الموقع الرسمي للجنة الدولية للصليب الأحمر wwww.icrc.org .

الفصل الثالث
غزوة بني قينقاع

١٥ شوال سنة ٢ هـ – ٩ إبريل ٦٢٤م .

المبحث الأول
ملخص الغزوة

كان سبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة وَادَعَ يهودها، وكتب بينه وبينها كتاباً، عاهدهم فيه وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم كما بينا – فلما انتصر المسلمون على الوثنيين في بدر وقدم النبي ﷺ المدينة غانماً منتصرًا، بغت يهود بني قينقاع وحقدت على انتصار المسلمين، وقطعت العهد. وكانوا أشجع يهود، وكانوا صاغة، ولما ذهب إليهم النبي ﷺ في سوقهم يدعوهم إلى الإسلام، ردوا عليه بكلام فيه استهزاء، ونقض صريح لكل بنود الاتفاق التي عقدها النبي ﷺ معهم. بل وصل بهم الأمر أن حاولوا إشعال الفتنة بين الأوس والخزرج، وقد أوشكت الحرب أن تقوم في المدينة بسبب يهود قينقاع لولا أن النبي ﷺ أصلح ما أفسده اليهود بين الأوس والخزرج، ومما زاد الطين بلة أن يهود قينقاع عمدوا إلى كشف عورة سيدة مسلمة في مكان عام وتواطئوا على ذلك، مما اضطر النبي ﷺ إلى إجلائهم، فصار إليهم بجيش – واستخلف على المدينة أبا لبابة ابن عبد المنذر، وكان الذي حمل لواء الجيش يومئذ حمزة بن عبد المطلب – فحاصرهم النبي ﷺ أشد الحصار، حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ وأمر رسول الله ﷺ أن يُجلوا من الدولة، ووكل بإجلائهم عبادة بن الصامت(١)، وأمهلهم ثلاثة أيام. وبالفعل خرجوا أذلة من الدولة، وهاجروا إلى أذرعات بالشام(٢).

---

(١) وكان لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي ابن سلول، فجعلهم إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله تعالى ورسوله من حلفهم، وقال: يا رسول الله: أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الرجال. (الصالحي، ج ٤ / ص ١٨٠).

(٢) انظر: ابن سعد ٢ / ٢٩، الصالحي ٤ / ١٨٠، ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ١٦٩ .

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول: موقف الحليف من حليفه المنتصر:

إن العرف الأخلاقي يقتدي أن يفرح الحليف إذا انتصر حليفه على العدو الأكبر للدولة، ولكن يهود المدينة أظهروا الحقد والعداوة لحلفائهم المسلمين جراء انتصارهم على قريش الوثنية، فلما بعث رسول الله ﷺ حين فرغ من بدر بشيرين إلى أهل المدينة - زيد بن حارثة و عبد الله بن رواحة - يبشران الأمة بانتصار المسلمين في موقعة بدر، فلما بلغ ذلك كعب بن الأشرف قال لمن أخبره: ويلك أحق هذا ؟ هؤلاء ملوك العرب وسادة الناس [يعنى قتلى قريش] ثم خرج إلى مكة، فجعل يبكى على قتلى قريش، ويحرض على رسول الله ﷺ(١).

ولما أعلن يهود قينقاع صراحة نقضهم للعهد، وحقدهم على انتصار المسلمين في بدر، وتطاولهم المتزايد على الإسلام ونبي الإسلام، وعمالاتهم الصارخة للوثنيين، توجه نبي الله ﷺ إلى ديار بني قينقاع يحذرهم من مغبة هذه التصرفات السيئة اللاأخلاقية، فجمع اليهود في سوق قينقاع، وألقى عليهم موعظة دعوية، وحذرهم من أن يصيبهم ما أصاب قريشًا في بدر.

غير أنهم ردوا على النبي ﷺ بسوء الأدب وسيئ الأخلاق والتهديد والوعيد له، فقالوا: "يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا ! " . فأنزل الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾ [آل عمران] (٢).

(١) البيهقي: السنن الكبرى ٩ / ١٨٣ .
(٢) البيهقي: السنن الكبرى ٩ / ١٨٣، الطبري: تاريخ الطبري ٢ / ١٧٢ .

كان هذا هو سلوك يهود قينقاع مع حلفائهم من المسلمين، وهو نموذج سيئ لعلاقة الحليف بحليفه، وكان أحرى بهؤلاء اليهود أن يشاركوا المسلمين فرحتهم بالنصر، ويباركوا لهم الظفر. فهذه هي أخلاق الحلفاء في المنشط والمكره.

المطلب الثاني: حينما يتحول الحليف إلى معول هدم لوحدة الصف:

لقد تحولت طائفة اليهود داخل الدولة إلى جماعة فتنة، وتفريق بين عناصر الأمة وفصائل الدولة الناشئة، فقد مَرّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ اليهودي - وكان شيخًا من شيوخ اليهود وكبرائهم، عظيم الكفر شديد الضّغَنِ عَلَى المسلمين، شَدِيدَ الْحَسَدِ لَهُمْ - عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ مِنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ. فِي مَجْلِسٍ قَدْ جَمَعَهُمْ يَتَحَدّثُونَ فِيهِ، فَغَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ أُلْفَتِهِمْ وَجَمَاعَتِهِمْ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ عَلَى الإسلام بَعْدَ الّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ فِي الْجَاهِلِيّةِ. فَقَالَ: "قَدْ اجْتَمَعَ مَلأُ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ! لاَ والله مَا لَنَا مَعَهُمْ إذَا اجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ!". فَأَمَرَ فَتًى شَابّا مِنْ يَهُودَ كَانَ مَعَهُمْ فَقَالَ: "اعْمِدْ إلَيْهِمْ فَاجْلِسْ مَعَهُمْ، ثُمّ اُذْكُرْ يَوْمَ بُعَاثَ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا تَقَاوَلُوا فِيهِ مِنَ الأَشْعَارِ". فَفَعَلَ. فَتَكَلّمَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ وَتَنَازَعُوا وَتَفَاخَرُوا وتنابذوا، حَتّى تَوَاثَبَ رَجُلَانِ مِنَ الْحَيّيْنِ عَلَى الرّكَبِ: أَوْسُ بْنُ قَيْظِيّ أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ مِنْ الأَوْسِ، وَجَبّارُ بْنُ صَخْرٍ، أَحَدُ بَنِي سَلَمَةَ مِنْ الْخَزْرَجِ، فَتَقَاوَلاَ، ثُمّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إنْ شِئْتُمْ رَدَدْنَاهَا الآنَ جَذَعَةً[1]! فَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ جَمِيعًا، وَقَالُوا: قَدْ فَعَلْنَا!

وتواعدوا على أن يلتقوا في يومهم ذاك بموضع (الحرة) واندفعوا في دروب المدينة يتداعون إلى الحرب وهم يتصايحون: السلاح السلاح.

وجمت دار الهجرة وهي تسمع صيحة الحرب.

وكادت أن تقوم الحرب الأهلية.

وجاء النبي ﷺ في جماعة من الْمُهَاجِرِينَ، فأدرك الأوس والخزرج في الحرة وقد هموا بقتال.

فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ!! الله الله!! أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ

(١) يعني إن شئتم رددنا هذه الحرب من جديد.

بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمْ الله لِلإِسْلَامِ، وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنْ الْكُفْرِ، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟!!" (١).

فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنَّهَا نَزْغَةٌ مِنْ الشَّيْطَانِ، وَكَيْدٌ مِنْ أعدائهم الخونة، وتذكروا ميثاق الوحدة الإسلامية والأخوة الإيمانية الذي أخذه رسول الله عليهم، فَبَكَوْا، وَعَانَقَ الرِّجَالُ مِنْ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمّ انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ قَدْ أَطْفَأَ الله عَنْهُمْ كَيْدَ اليهود.

وهذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه ويحاولونه من إثارة القلاقل والفتن داخل الدولة، وإقامة العراقيل في سبيل وحدة الصف، وقد كانت لهم خطط شتي في هذا السبيل. فكانوا يبثون الدعايات الكاذبة، ويؤمنون وجه النهار، ثم يكفرون آخره؛ ليزرعوا بذور الشك في قلوب الضعفاء، وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالى، فإن كان لهم عليه يتقاضونه صباح مساء، وإن كان له عليهم يأكلونه بالباطل، ويمتنعون عن أدائه وكانوا يقولون: إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك، فأما إذ صبوت فليس لك علينا من سبيل. .كانوا يفعلون كل ذلك على رغم المعاهدة التي عقدوها مع رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يصبرون على كل ذلك؛ حرصاً على وحدة الصف، وعلى بسط الأمن والسلام في المنطقة (٢).

المطلب الثالث: حماية الدماء والأعراض واجب على كل الفضائل:

كَانَ مِنْ أَمْرِ بَنِي قَيْنُقَاع - أَيضًا - أَنّ امْرَأَةً مِنْ المسلمين قَدِمَتْ بشيء تريد أن تبيعه بِسُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَجَلَسَتْ إلَى صَائِغ يهودي بالسوق، فَجَعَلَ اليهود يُرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا، فَأَبَتْ السيدة المسلمة، فَعَمِدَ الصّائِغُ إلَى طَرَفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ إلَى ظَهْرِهَا، فَلَمّا قَامَتْ انْكَشَفَتْ عورتها، فَضَحِكُوا منهَا، فَصَاحَتْ. فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصّائِغِ فَقَتَلَهُ، وَشَدّتْ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ. فَاسْتَصْرَخَ أَهْلُ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ، فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ فَوَقَعَ الشّرّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي قَيْنُقَاعَ (٣).

---

(١) ابن هشام ١ / ٥٥٤، ٥٥٥، و ذكره السيوطي في الدر ٢ / ٥٧ وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) انظر: صفي الرحمن المباركفوري ٢٧٥.

(٣) ابن هشام ٢ / ٤٧، والصالحي ٤ / ص ١٧٩، و السهيلي ٣ / ٢٢٤، وابن كثير: السيرة النبوية=

وبهذا الصنيع المشين من هؤلاء الحلفاء، يكونوا قد أكدوا نقضهم العهود والعقود مع كل فضائل الدولة.

فقد كشفوا عورة امرأة مسلمة في مكان عام.. "إن عرض المرأة المسلمة كفيل أن يشعل حربًا رهيبة مع العدو.." (١). فضلاً عن جريمة قتل المسلم.

وحماية الدماء والأعراض من الأمور الواجبة على كل فصيل وحليف.

المطلب الرابع: حلم القائد على السفهاء:

لما فعل يهود قينقاع ما فعلوا، ونزل فيهم قول الله تعالى:

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال].

حَاصَرَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، في أموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم فكُتفوا، وحينئذ قام حليفهم القديم عَبْدُ الله بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ المنافق، بمطالبة النبي ﷺ بطريقة غير مهذبة - بإصدار العفو عن اليهود، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَحْسِنْ فِي مَوَالِيّ !

وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَحْسِنْ فِي مُوَالِيّ !

فَأَعْرَضَ عَنْهُ. فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِ دِرْعِ (٢) رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: "أَرْسِلْنِي ! "، وَغَضِبَ رَسُولُ الله ﷺ لسوء تصرف المنافق، حَتَّى رَأَوْا لِوَجْهِهِ ظُلَلاً، ثُمَّ قَالَ: "وَيْحَك أَرْسِلْنِي !!"، قَالَ: لاَ والله لاَ أُرْسِلُك حَتَّى تُحْسِنَ فِي مُوَالِيّ، أَرْبَعَمائَةِ حَاسِرٍ وَثَلاَثُمائَةِ دَارِعٍ، قَدْ مَنَعُونِي مِنْ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ تَحْصُدُهُمْ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، إِنّي والله امْرُؤٌ أَخْشَى الدَّوَائِرَ". فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "هُمْ لَكَ" (٣).

وفي هذا النموذج نرى حلم القائد على سفهاء قومه.. رغم سوء أدب زعيم المنافقين.

* * *

=٣/ ٦، وابن سيد الناس ١ / ٣٨٦.

(١) منير محمد الغضبان ٢٠٩.

(٢) كان الصحابة يسمونها ذَاتَ الْفُضُولِ.

(٣) ابن هشام ٢ / ٤٨.

الفصل الرابع
غَزْوَة السّوِيقِ[١]
الأحد ٥ ذو الحجة ٢هـ[٢] - ٢٨ مايو ٦٢٤ م

المبحث الأول
ملخص الغزوة

خرج أبو سفيان في مائتي راكب، وسار إلى المدينة ونزل على سَلاَّم بن مِشْكَم سيد بني النضير، فَقَرَاه وسقاه الخمر، ثم خرج أبو سفيان مع جيشه، فبعث مفرزة منهم، فأغارت على ناحية من المدينة، فأفسدوا وأحرقوا هناك أصوَارًا من النخل، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما، وفروا راجعين إلى مكة.

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فسارع لمطاردة المعتدين، ولكنهم فروا[٣].

* * *

(١) وهي غزوة قَرْقَرَةَ الْكُدْرِ عند ابن كثير في السيرة النبوية ٢ / ٥٤٠، وعند الواقدي ١٨٣ ، والصالحي ١/ ١٥: أن غزوة بني سليم يقال لها قرقرة الكدر.

(٢) ابن سعد ٢ / ٣٠ .

(٣) انظر: الواقدي ١٨٢، وابن هشام ٣/ ٤٧، وابن سعد ٢ / ١: ٢٠، والطبري ٢/ ٢٩٩، والبلاذري : أنساب الأشراف ١/ ١٤٧، وابن سيد الناس ١/ ٣٤٤، والمقريزي ١٠٦، وابن حزم: جوامع السيرة ١/ ١٥٢، الواقدي ١/ ١٨١، الحلبي ٢/ ٣٧٨، وابن كثير: السيرة النبوية ٢/ ٥٤٠ .

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول: لا يجوز للحليف استضافة الأعداء على أرض الإسلام:

أولاً: النموذج الإيجابي:

لَمّا رَجَعَ فَلّ[1] الْمُشْرِكِينَ إِلَى مَكّةَ مَوْتُورِينَ مَحْزُونِينَ من بدر؛ نَذَرَ أَبُو سُفْيَانَ أَنْ لاَ يَمَسّ رَأْسَهُ مَاءٌ، ولا يغتسل من جنابة، وحَرّمَ الدّهْنَ أوهو الطيب - على نفسه[2]، حَتّى يَغْزُوَ مُحَمّدًا ﷺ فَخَرَجَ فِي مِائَتَيْ رَاكِبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، لِيَبَرّ يَمِينَهُ فَسَلَكَ النّجْدِيّةَ[3]، حَتّى نَزَلَ بِصَدْرِ قَنَاةٍ[4] إلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ ثَيْب، مِنْ الْمَدِينَةِ عَلَى بَرِيدٍ أَوْ نَحْوِهِ، ثُمّ خَرَجَ مِنْ اللّيْلِ حَتّى أَتَى بَنِي النّضِيرِ تَحْتَ اللّيْلِ فَأَتَى حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ[5] - أحد زعماء اليهود -، فَضَرَبَ عَلَيْهِ بَابَهُ فَأَبَى أَنْ يَفْتَحَ لَهُ بَابَهُ وَخَافَهُ[6]، فلا يجوز له كقائد فصيل من فصائل الدولة أن يستقبل على أرض المدينة عدواً من الأعداء، فذلك محض خيانة، فَانْصَرَفَ أبو سفيان عَنْهُ.

وهذا صنيع جيد من حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ.

ثانيا: النموذج السلبي:

لما رفض حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ استضافة قائد جيش المشركين، ذهب أبو سفيان إِلَى سَلاّمِ بْنِ مِشْكَمٍ - وَكَانَ سَيّدَ بَنِي النّضِيرِ فِي زَمَانِهِ ذَلِكَ وَصَاحِبَ كَنْزِهِمْ[7] - فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُ فَقَرَاهُ وَسَقَاهُ، وقام بدور الجاسوس الخائن لوطنه، وكشف له عن أسرار المسلمين، وبحث معه إحدى الطرق لإيقاع الأذى بالدولة، ولم تكن المخابرات الإسلامية غافلة عن ذلك.

---

(١) الجيش المنهزم. (٢) الواقدي ١ / ١٨١.

(٣) منسوبة إلى نجد، وهو ما ارتفع من الأرض.

(٤) بفتح القاف وتخفيف النون وفي آخره تاء تأنيث - وهو واد من أودية المدينة.

(٥) وهو أبو صفية أم المؤمنين - رضي الله تعالى عنها. (٦) ابن هشام ٢ / ٤٤.

(٧) يعني بالكنز هنا المال الذي كانوا يجمعونه لنوائبهم، وما يعرض لهم، فهو المسئول المالي لهذا الفصيل من اليهود.

المطلب الثاني: تجريم قتل المدنيين وإفساد المزارع

لما خَرَجَ أبو سفيان فِي عَقِبِ لَيْلَتِهِ حَتّى أَتَى أَصْحَابَهُ فَبَعَثَ مفرزة منهم إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَأَتَوْا نَاحِيَةً يُقَالُ لَهَا : الْعَرِيضُ - وادٍ بالمدينة في طرف حرة واقم- فقتل رجلين - أحدهما معبد بن عمرو الأنصاري (١)، والثاني : أجيره كان يعمل له في زرعه- وأحرق نخلاً، وَحَرّقَ بَيْتَيْنِ بِالْعُرَيْضِ، وتبنًا، وفر عائدًا إلى مكة(٢).

فلما قام الجيش الوثني بهذه القرصنة - غير الأخلاقية - بغتة على حدود المدينة، وأحرق ونهب وقتل . . نَدَبَ رَسُولُ الله ﷺ أَصْحَابَهُ - فورًا ، وَخَرَجَ في مائتين من المهاجرين والأنصار - يوم الأحد الخامس من ذي الحجة(٣) - فِي طَلَبِهِمْ وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ بَشِيرَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ - وَهُوَ أَبُو لُبَابَةَ(٤) - حَتّى بَلَغَ قَرْقَرَةَ الْكُدْرِ، ثُمّ انْصَرَفَ رَاجِعًا، فَقَدْ هرب أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ(٥).

فقد أحس المشركون بالطلب فجدوا في الهرب، والمسلمون يقطعون الصحراء خلفهم راغبين في اللحاق بهم، فلما أحس أَبُو سُفْيَانَ بالخطر أخذ يتخفف من الأزواد التي يحملها حتى تمكن من النجاة(٦).

وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ بَدْرٍ بِشَهْرَيْنِ.

ووجد الجيش الإسلامي أزوادًا كثيرة قد ألقاها المشركون و طَرَحُوهَا فِي الْحَرْثِ، وعامتها جرب فيها سويق(٧)، فأخذها المسلمون، فسميت غزوة السويق(٨).

وفي هذا الموقف دلالة على يقظة القائد الإسلامي وتعقبه لأي محاولة نهب أو إفساد من قبل العدو في أرض الإسلام . .

---

(١) الصالحي٤ / ١٧٤، الحلبي ٢ / ٣٧٨ .

(٢) ابن سعد : ٢/ ٣٠، السهيلي ٣/ ٢٢٠، ابن كثير : السيرة النبوية ٢/ ٥٤١، وابن هشام ٢ / ٤٥، الواقدي ١ / ١٨١ .

(٣) الصالحي ٤ / ١٧٤ .

(٤) مات أبو لبابة في خلافة علي رضي الله عنهما

(٥) ابن هشام ٢ / ٤٤ .

(٦) محمد الغزالي ، فقه السيرة ، ص ١٨٨ .

(٧) قمح أو شعير تحمص ثم تطحن باللبن والعسل والسمن . يقلى ثم يطحن فيتزود ويستف تارة بما يثرى به أو بسمن أو بعسل وسمن . (الصالحي ٤ / ١٧٤) .

(٨) ابن كثير : السيرة النبوية ٢ / ٥٤١ .

ورد فعل النبي ﷺ بملاحقة ميلشيات العدو دلالة على تجريم أسلوب النهب والسلب والتعدي على المدنيين والزراع.

وهذا الصنيع من رسول الله ﷺ يوافق ما تنص عليه الاتفاقات الحديثة في تجريم التعدي على المدنيين أو العسكريين الذين ألقوا السلاح..

ولقد نصت المادة (٣) من اتفاقية جنيف الأولى لتحسين حال الجرحى والمرضى بالقوات المسلحة في الميدان المؤرخة في ١٢ آب - أغسطس ١٩٤٩. أن "الأشخاص الذين لا يشتركون مباشرة في الأعمال العدائية، بمن فيهم أفراد القوات المسلحة الذين ألقوا عنهم أسلحتهم، والأشخاص العاجزون عن القتال بسبب المرض أو الجرح أو الاحتجاز أو لأي سبب آخر، يعاملون في جميع الأحوال معاملة إنسانية، دون أي تمييز ضار يقوم على العنصر أو اللون، أو الدين أو المعتقد، أو الجنس، أو المولد أو الثروة أو أي معيار مماثل آخر"[1].

المطلب الثالث: حرص الجندي على ثواب الله:

لما فشل الجيش الإسلامي في القبض على المجرمين، بعد أن استمر رسول الله ﷺ في مطاردتهم وقد غاب عن المدينة خمسة أيام[2]. خشي الأبطال أن يحرموا ثواب الله، لفشل هذه المناوشة، فَقَالَوا - حَيْنَ رَجَعَ بِهِمْ رَسُولُ الله ﷺ: يَا رَسُولَ الله، أَتَطْمَعُ لَنَا أَنْ تَكُونَ غَزْوَةً؟ قَالَ: "نَعَمْ"[3].

وفي ذلك درس في استحضار ثواب الله على القليل والكثير في أمر الجهاد، والحرص على ثواب الله في كل أحوال القتال، في النصر والهزيمة، أو في نجاح المهمة أو فشلها.

* * *

(١) على الموقع الرسمي للجنة الدولية للصليب الأحمر www.icrc.org .
(٢) ابن سيد الناس ١ / ٣٩٠، الحلبي ٢ / ٣٧٨ .
(٣) ابن سيد الناس ١ / ٣٩٠ .

الفصل الخامس
غَزْوَةُ أُحُد

السبت ١٥ شوال ٣ هـ - ٣٠ مارس ٦٢٥ م[(١)]

المبحث الأول
ملخص الغزوة

سببها أن قريشًا أرادت أن تثأر ليوم بدر، فما زالت تستعد حتى تجهزت لغزو المدينة، فخرجت في ثلاثة آلاف مقاتل، ومعهم سبع عشرة امرأة لتحميس الجنود، ثم ساروا حتى وصلوا شمال المدينة على بعد ميلين منها قرب جبل أحد، ونزل الرسول ﷺ على رأي الجماعة، وقرر الخروج بالجيش لملاقاة العدو خارج المدينة عند أحد، في نحو ألف من المسلمين. وفي منتصف الطريق انخذل عن المسلمين جماعة من المنافقين بقيادة عبد الله بن أبي بن سلول، فبقي عدد المسلمين سبعمائة رجل فحسب، ثم مضى الرسول ﷺ حتى وصل إلى ساحة أحد، فجعل ظهره للجبل ووجهه للمشركين، وصف الجيش، وجعل على كل كتيبة منه قائدًا، واختار خمسين من الرماة، ليحموا ظهر المسلمين من التفاف المشركين وراءهم، وحذرهم من ترك موقعهم مهما كانت نتائج المعركة.. ثم ابتدأ القتال، وكانت الدائرة للجيش الإسلامي في أول المعركة، حتى فر معظم الجيش الوثني وولوا الأدبار، فانغمس المسلمون في أخذ الغنائم وترك الرماة أماكنهم، ورأى خالد بن الوليد - وكان قائد ميمنة المشركين - خلو ظهر المسلمين من الرماة، فكرَّ عليهم من خلفهم، فما شعر المسلمون إلا والسيوف تناوشهم من هنا وهناك، فاضطرب حبلهم، وفر بعضهم عائدا إلى المدينة، وانهزم المسلمون، وتكاثر المشركون على الرسول يريدون قتله. ومثَّل المشركون بجثث قتلى المسلمين في نهاية المعركة.

---

(١) هذا التاريخ الذي التقى فيه الطرفان في ساحة القتال، أما تاريخ خروج الجيش الإسلامي من المدينة فهو الجمعة ٧ شوال ٣ هـ - ٢٢ مارس ٦٢٥م .

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول: نزول القائد على رأي الجماعة:

أشار النبي ﷺ على قادة الجيش في الخروج أو البقاء، ومعبرًا عن رأيه قائلاً: "إنا في جنة حصينة" (١)، "فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُقِيمُوا بِالْمَدِينَةِ وَتَدْعُوهُمْ حَيْثُ نَزَلُوا، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرّ مُقَامٍ، وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا عَلَيْنَا قَاتَلْنَاهُمْ فِيهَا" (٢). وَكَانَ رَأْيُ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيّ ابْنِ سَلُولَ مَعَ رَأْيِ رَسُولِ الله ﷺ يَرَى رَأْيَهُ فِي ذَلِكَ وألا يَخْرَجَ إلَيْهِمْ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يفضل التحصن بالمدينة، والبقاء بها والاستعداد لحرب الشوارع. فَقَالَ رِجَالٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مِمّنْ كَانَ فَاتَهُ بَدْرٌ: يَا رَسُولَ الله أُخْرُجْ بِنَا إلَى أَعْدَائِنَا، لاَ يَرَوْنَ أَنّا جَبُنّا عَنْهُمْ وَضَعُفْنَا ؟ فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ: يَا رَسُولَ الله أَقِمْ بِالْمَدِينَةِ لاَ تَخْرُجْ إلَيْهِمْ فَوالله مَا خَرَجْنَا مِنْهَا إلَى عَدُوّ لَنَا قَطّ إلاّ أَصَابَ مِنّا، وَلاَ دَخَلَهَا عَلَيْنَا إلاّ أَصَبْنَا مِنْهُ فَدَعْهُمْ يَا رَسُولَ الله فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرّ مَحْبِسٍ وَإِنْ دَخَلُوا قَاتَلَهُمْ الرّجَالُ فِي وَجْهِهِمْ وَرَمَاهُمْ النّسَاءُ وَالصّبْيَانُ بِالْحِجَارَةِ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَإِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ كَمَا جَاءُوا. فبادر قطاع كبير من فضلاء الصحابة - ممن فاته بدر - وأشاروا على رسول الله بالخروج. وألحوا عليه. وكان في مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب، الذي كان قد أبلي أحسن بلاء في معركة بدر. فقد قال للنبي ﷺ: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة. فَلَمْ يَزَلْ النّاسُ بِرَسُولِ الله ﷺ حَتّى دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْتَهُ فَلَبِسَ لأْمَتَهُ وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ حَيْنَ فَرَغَ مِنْ الصّلاَةِ. ثُمّ خَرَجَ عَلَيْهِمْ - في كامل عدته وسلاحه مدججًا - وَقَدْ نَدِمَ النّاسُ وَقَالُوا: اسْتَكْرَهْنَا رَسُولَ الله ﷺ وَلَمْ يَكُنْ لَنَا ذَلِكَ. فَلَمّا خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله اسْتَكْرَهْنَاك وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَنَا، فَإِنْ شِئْتَ فَاقْعُدْ صَلّى الله عَلَيْك، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَا يَنْبَغِي لِنَبِيّ إذَا

---

(١) انظر: الطبري ٢/ ٦٠.

(٢) ابن هشام ٢ / ٦٣.

لَبِسَ لأَمْته(١) أَنْ يَضَعَهَا حَتّى يُقَاتِلَ "(٢).

ثُمّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أَنْظُرُوا مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَاتّبِعُوهُ، امْضُوا عَلَى اسْمِ الله فَلَكُمْ النّصْرُ مَا صَبَرْتُمْ "(٣).

ونزل رَسُولُ الله ﷺ على رأي الجماعة، وعلم الله أنه ما به إليهم من حاجة. ولكن ليستن به من بعده من القادة، كما قال الحسن رحمه الله(٤)، وخرج بالجيش نحو أُحد.

يتجلى هنا المبدأ الذي كان رسول الله ﷺ يأخذ به نفسه وهو التزام التشاور مع أصحابه في كل أمر يحتمل المشاورة و البحث(٥)، ومبدأ الشورى مبدأ عظيم وأصل أصيل في قوام الدولة الإسلامية، لاسيما في أمور الحرب، والتشاور سمة أساسية في أخلاق القائد الإسلامي الناجح. و" الفرق بين الحكم الإسلامي العادل الرشيد وبين الحكم الاستبدادي ترك الشورى"(٦).

ومن الواضح أن الرسول ﷺ عوَّد أصحابه على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم حتى ولو خالفت رأيه، فهو إنما يشاورهم فيما لا نص فيه تعويدًا لهم على التفكير في الأمور العامة ومعالجة مشاكل الأمة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرأي، ولم يحدث أن لام الرسول ﷺ أحدًا؛ لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يوفق في رأيه، وكذلك فإن الأخذ بالشورى ملزم للإمام.. وهنا يظهر الوعي السياسي عند الصحابة - رضوان الله عليهم - فرغم أن لهم إبداء الرأي، فإنه ليس لهم فرضه على القائد، فحسبهم أن يبينوا رأيهم ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجح لديه من الآراء، فلما رأوا أنهم ألحوا في الخروج وأن الرسول ﷺ عزم على الخروج بسبب إلحاحهم، عادوا فاعتذروا إليه، لكن الرسول الكريم ﷺ علمهم درسًا آخر هو من صفات القيادة الناجحة وهو عدم التردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع(٧).

---

(١) أي درعه.
(٢) ابن هشام ٢ / ٦٣، و محمد بن عبد الوهاب ٢٤٠.
(٣) الواقدي ١ / ٢١٤.
(٤) علي بن عبدالخالق القرني ٢٠.
(٥) محمد سعيد رمضان البوطي ١٧٧.
(٦) فريد عبد الخالق: في الفقه السياسي الإسلامي ٤١.
(٧) انظر: علي محمد الصلابي ٢/ ٨٦، وأكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٣٨٠.

المطلب الثاني: من صفات المنافقين الانخذال عن الأمة وقت الشدة:

لما وصل الجيش الإسلامي إلى الشَّوْطِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَأُحُدٍ، انْخَذَلَ عَنْهُ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ بِثُلُثِ الجيش وَقَالَ: أطاع الولدان ومن لا رأى له وعصاني[1]، مَا نَدْرِي عَلامَ نَقْتُل أَنْفُسَنَا هَاهُنَا أَيّهَا النّاسُ ؟! فَرَجَعَ بِمَنْ اتّبَعَهُ مِنْ أَهْلِ النّفَاقِ وَالرّيْبِ، وحاول عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ ـ والد جابر بن عبد الله ـ تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم الشرعي والوطني في هذا الظرف الحساس، فتبعهم وهو يوبخهم ويحضهم على الرجوع، ويقول: يَا قَوْمِ أُذَكّرُكُمْ الله ألا تَخْذُلُوا قَوْمَكُمْ وَنَبِيّكُمْ عِنْدَمَا حَضَرَ مِنْ عَدُوّهِمْ ! فَقَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ أَنّكُمْ تُقَاتِلُونَ لَمَا أَسْلَمْنَاكُمْ وَلَكِنّا لاَ نَرَى أَنّهُ يَكُونُ قِتَالٌ. فَلَمّا اسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ وَأَبَوْا إلاّ الانْصِرَافَ عَنْهُمْ قَالَ: أَبْعَدَكُمْ الله أَعْدَاءَ الله فَسَيُغْنِي الله عَنْكُمْ نَبِيّهُ[2].

وأنزل الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران] قال مجاهد: "ميزهم يوم أحد" وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾[آل عمران][3].

ولا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ رأيه، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوي إلى هذا المكان معنى. ولو كان هذا هو السبب لانعزل عن الجيش منذ بداية سيره، بل كان هدفه الرئيسي من هذا التمرد ـ في ذلك الظرف الدقيق ـ أن يحدث البلبلة والاضطراب في الجيش الإسلامي على مرأى ومسمع من عدوهم، حتى ينحاز عامة الجيش عن النبي ﷺ، وتنهار معنويات من يبقى معه، بينما يتشجع العدو، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي ﷺ وأصحابه المخلصين، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه[4].

---

(١) الصالحي ٤ / ١٨٨ .
(٢) ابن هشام ٢ / ٦٤ .
(٣) الصالحي ٤ / ١٨٨ .
(٤) صفي الرحمن المباركفوري ١٩٦ .

وكاد المنافق ينجح في تحقيق بعض ما كان يهدف إليه، فقد همت طائفتان. بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج. أن تفشلا، ولكن الله تولاهما، فثبتتا بعدما سري فيهما الاضطراب، وهمتا بالرجوع والانسحاب[(١)]، وعنهما يقول الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران].

المطلب الثالث: عدم القتال إلا بأمر القائد:

لما نزل رسول الله ﷺ في ساحة المعركة، في الشعب من أُحُد في عُدوة الوادي إلى الجبل، وصف جيشه ووزع المهام على القادة والكتائب، قال: " لا يُقَاتِلَنّ أَحَدٌ مِنْكُمْ حَتّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ "[(٢)].

فلا بد من توحيد القيادة، واحترام القائد والسمع له والطاعة في غير معصية. ثم إن التهور في المبادءة قد يترتب عليه ضرر يلحق بالجيش كله، واهتزاز صورة القائد أمام جموع الجنود، والخروج على العرف العام في القتال، حيث تكون إشارة البدء وكلمة الانطلاق من القائد العام وحده.

المطلب الرابع: وضوح المهام والتعليمات:

من الآداب النبوية في القتال، قيام القائد بتوضيح المهام لجنوده غاية التوضيح وغاية التبيين، لاسيما قبل المعركة، ويؤكد عليها من حين إلى آخر على مسامع الجند، وذلك حتى لا ينسى الغافل ولا يتعلل الفاشل ولا يتشوش الأمر على الساهي.

ونجد هذا المبدأ واضحًا جليًا في التعليمات التي وجهها للرماة:

فلما أمرَّ رسول الله ﷺ على الرماة عبد الله بن جبير، قال لجماعة الرماة: " إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ "[(٣)].

---

(١) صفي الرحمن المباركفوري ١٩٦.

(٢) ابن هشام ٢ / ٦٥، السهيلي ٣ / ص ٢٤٦، الطبري ١ / ٤٧١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه (٢٨١٢).

وأكد الأمر مرارًا وتكرارًا بقوله: "الزموا مكانكم لا تبرحوا منه، فإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تغيثونا ولا تدفعوا عنا، وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم"(١)!

المطلب الخامس: حسن النظام والتنظيم:

إن من أشد الأسلحة التي ترهب العدو النظام ودقة الصفوف وسهولة التنسيق في الجيش الآخر. فقد جَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ في أرض المعركة، يُسَوّي الصّفُوفَ، وَيُبَوّئُ أَصْحَابَهُ لِلْقِتَالِ، يَقُولُ: "تَقَدّمْ يَا فُلاَنٌ وَتَأَخّرْ يَا فُلاَنٌ... "حَتّى إنّهُ لَيَرَى مَنْكِبَ الرّجُلِ خَارِجًا فَيُؤَخّرُهُ فَهُوَ يُقَوّمُهُمْ كَأَنّمَا يُقَوّمُ بِهِمْ الْقِدَاحَ حَتّى إِذَا اسْتَوَتْ الصّفُوفُ سَأَلَ مَنْ يَحْمِلُ لِوَاءَ الْمُشْرِكِينَ؟ قِيلَ بَنُو عَبْدِ الدّارِ. قَالَ نَحْنُ أَحَقّ بِالْوَفَاءِ مِنْهُمْ. أَيْنَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ؟ قَالَ هَا أَنَا ذَا قَالَ خُذْ اللّوَاءَ. فَأَخَذَهُ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، فَتَقَدّمَ بِهِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ(٢).

ولقد وضع النبي ﷺ خطة محكمة لمواجهة الجيش الوثني، حيث اختار الموقع المناسب، وانتخب من يصلح للقيادة، ورد الصغار وأصحاب الأعذار، واختار خمسين رجلاً من الرماة المخضرمين، وقام بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب، هي:

١- كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير - رضي الله عنه.

٢- كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحباب بن المنذر - رضي الله عنه.

٣- كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أسيد بن حضير - رضي الله عنه.

وبهذا الموقف الفذ؛ ضرب رسولنا الكريم ﷺ المثل الأعلى في مبدأ حسن النظام والتنظيم في الحرب.

---

(١) الحلبي ٢/ ٤٩٦، وعلي محمد الصلابي ٢/ ٩٢.

(٢) الواقدي ٢٢١.

المطلب السادس: أهمية التوجيهات الأخلاقية والإيمانية قبل المعركة:

إن العرف في الحروب القذرة، هو تحميس الجنود على السلب والنهب وهتك الأعراض وسفك الدماء بلا رحمة أو مراعاة لطفل أو امرأة أو شيخ. نلحظ ذلك في حروب الماضي والحاضر، وخير شاهد على الماضي تلك الحروب الصليبية التي أوصت بقتل الأطفال والشيوخ والنساء بل وقتل الحجاج والنساك، أما الحاضر، فليست حروب الصهاينة في فلسطين منا ببعيد، حيث هدم منازل الأبرياء، وتجريف المزارع، وضرب المساجد بالصواريخ، وقتل الأطفال والنساء.

أما في أصول الحرب عند نبي الرحمة ﷺ نجد أنه لما صف الصفوف في أحد قبل المعركة، قَامَ فَخَطَبَ الجيش، وأوصى الجيش بالتقوى وجملة من فضائل الأخلاق فَقَالَ:

" يَا أَيّهَا النّاسُ أُوصِيكُمْ بِمَا أَوْصَانِي الله فِي كِتَابِهِ مِنْ الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَالتّنَاهِي عَنْ مَحَارِمِهِ. ثُمّ إنّكُمْ الْيَوْمَ بِمَنْزِلِ أَجْرٍ وَذُخْرٍ لِمَنْ ذَكَرَ الّذِي عَلَيْهِ ثُمّ وَطّنَ نَفْسَهُ لَهُ عَلَى الصّبْرِ وَالْيَقِينِ وَالْجِدّ وَالنّشَاطِ فَإِنّ جِهَادَ الْعَدُوّ شَدِيدٌ شَدِيدٌ كَرْبُهُ، قَلِيلٌ مَنْ يَصْبِرُ عَلَيْهِ - إلاّ مَنْ عَزَمَ الله رُشْدَهُ - فَإِنّ الله مَعَ مَنْ أَطَاعَهُ، وَإِنّ الشّيْطَانَ مَعَ مَنْ عَصَاهُ، فَافْتَتِحُوا أَعْمَالَكُمْ بِالصّبْرِ عَلَى الْجِهَادِ وَالْتَمِسُوا بِذَلِكَ مَا وَعَدَكُمْ الله، وَعَلَيْكُمْ بِالّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ فَإِنّي حَرِيصٌ عَلَى رُشْدِكُمْ فَإِنّ الاخْتِلاَفَ وَالتّنَازُعَ وَالتّثْبِيطَ مِنْ أَمْرِ الْعَجْزِ وَالضّعْفِ مِمّا لاَ يُحِبّ الله وَلاَ يُعْطِي عَلَيْهِ النّصْرَ وَلاَ الظّفَرَ. يَا أَيّهَا النّاسُ! جُدّدَ فِي صَدْرِي أَنّ مَنْ كَانَ عَلَى حَرَامٍ فَرّقَ الله بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَمَنْ رَغِبَ لَهُ عَنْهُ غَفَرَ الله ذَنْبَهُ، وَمَنْ صَلّى عَلَيّ صَلّى الله عَلَيْهِ وَمَلاَئِكَتُهُ عَشْرًا، وَمَنْ أَحْسَنَ مِنْ مُسْلِمٍ أَوْ كَافِرٍ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى الله فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُ أَوْ آجِلِ آخِرَتِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاَللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَعَلَيْهِ الْجُمُعَةُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إلاّ صَبِيّا أَوْ امْرَأَةً أَوْ مَرِيضًا أَوْ عَبْدًا مَمْلُوكًا، وَمَنْ اسْتَغْنَى عَنْهَا اسْتَغْنَى الله عَنْهُ وَاَللّهُ غَنِيّ حَمِيدٌ. مَا أَعْلَمُ مِنْ عَمَلٍ يُقَرّبُكُمْ إلَى الله إلاّ وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ وَلاَ أَعْلَمُ مِنْ عَمَلٍ يُقَرّبُكُمْ إلَى النّارِ إلاّ وَقَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ. وَإِنّهُ قَدْ نَفَثَ فِي روعِي الرّوحُ الْأَمِينُ أَنّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتّى تَسْتَوْفِيَ أَقْصَى رِزْقِهَا، لاَ يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا. فَاتّقُوا الله رَبّكُمْ وَأَجْمِلُوا فِي طَلَبِ الرّزْقِ وَلاَ يَحْمِلَنّكُمْ اسْتِبْطَاؤُهُ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ رَبّكُمْ فَإِنّهُ لاَ

يُقْدَرُ عَلَى مَا عِنْدَهُ إلاّ بِطَاعَتِهِ. قَدْ بَيّنَ لَكُمْ الْحَلاَلَ وَالْحَرَامَ غَيْرَ أَنّ بَيْنَهُمَا شَبَهًا مِنَ الْأَمْرِ لَمْ يَعْلَمْهَا كَثِيرٌ مِنْ النّاسِ إلاّ مَنْ عَصَمَ فَمَنْ تَرَكَهَا حَفِظَ عِرْضَهُ وَدِينَهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِيهَا كَانَ كَالرّاعِي إلَى جَنْبِ الْحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ. وَلَيْسَ مَلِكٌ إلاّ وَلَهُ حِمًى، أَلاَ وَإِنّ حِمَى الله مَحَارِمُهُ. وَالْمُؤْمِنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كَالرّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ إذَا اشْتَكَى تَدَاعَى عَلَيْهِ سَائِرُ الْجَسَدِ. وَالسّلاَمُ عَلَيْكُمْ »[(١)].

ويستفاد من هذه الخطبة عدة دروس منها:

١- خطورة المعاصي والكبائر على الجيش.

٢- أهمية الجد والنشاط في ساحة الحرب.

٢- ضرورة الصبر والمثابرة عند قتال الأعداء.

٣- خطر الاختلاف والتنازع على الجيش.

٤- أهمية الأخوة والحب في الله بين الجنود.

٦- أهمية عقيدة القضاء والقدر في وجدان الجنود.

٧- ضرورة المحافظة على الذكر والأوراد والصلاة على النبي ﷺ.

٨- ضرورة الابتعاد عن الشبهات.

المطلب السابع: أخلاقيات المبارزة:

لما ترآى الجمعان، صاح طلحة بن عثمان، صاحب لواء المشركين، قائلا: يا معشر أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن الله يعجّلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجّلكم بسيوفنا إلى الجنة! فهل منكم أحد يعجّله الله بسيفي إلى الجنة! أو يعجّلني بسيفه إلى النار؟ فقام إليه علي بن أبي طالب، فقال: والذي نفسي بيده، لا أفارقك حتى يعجّلك الله بسيفي إلى النار، أو يعجّلني بسيفك إلى الجنة! فضربه علي فقطع رجلَه، فسقط، فانكشفت عورته، فقال: أنشدك الله والرحم، ابنَ عم! فتركه.

فكبّر رسول الله ﷺ، وقيل لعليّ: ما منعك أن تجهز عليه؟ قال: إنّ ابن عمي

(١) الواقدي ٢٢٢، والصالحي ٤ / ١٨٩، ١٩٠.

ناشدني حين انكشفت عورته، فاستحييت منه[١].

ثمة مشهد نقف أمامه يعد من مفاخر السيرة العسكرية في العهد النبوي، ذلك العهد الذي تخرج فيه من مدرسة محمد ﷺ أمثال هؤلاء الرجال الأبطال، الذين يقاتلون من أجل راية الله لا من أجل راية نفس أو منصب أو جاه، وهم مع ذلك يعلون من القيم الأخلاقية والشهامة حتى في أثناء طاحونة الحرب ودوامة المعركة. لا ينسون "الأخلاق" حتى في أشد اللحظات. وذلك بلا شك يبين طبيعة النبت الذي ينمو ويربو في بيئة إسلامية تعلي مكارم الإخلاق تحت قيادة نبي بُعث ليتممها !

المطلب الثامن: الهزيمة في دبر المعصية ومخالفة الجندي لقائده:

بعدما أكد النَّبِيُّ ﷺ على الرماة بعدم ترك أماكنهم مهما كانت الظروف، وانهزم المشركون في أول المعركة، قَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ الله بْنِ جُبَيْرٍ: الْغَنِيمَةَ! . . . ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟! فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ الله ﷺ ؟ قَالُوا: والله لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ[٢] !

ثم غادر أربعون رجلاً أو أكثر مواقعهم من الجبل، والتحقوا بالجيش ليشاركوه في جمع الغنائم. وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا عَبْدُ الله بْنُ جُبَيْرٍ وحوالي تسعة من الرماة والتزموا مواقفهم مصممين على البقاء. وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فكرَّ بسرعة خاطفة إلى جبل الرماة ليدور من خلفه إلى مؤخرة الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن أباد البقية المتبقية من جيش الرماة، ثم انقض خالد على المسلمين من خلفهم، فانقلبوا على المسلمين، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف، فهرب الكثير منهم، والرَّسُولُ يدعوهم فِي أُخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِي ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً فَأَصَاب المشركون من المسلمين سَبْعِينَ[٣].

وهكذا حدثت المصيبة. بسبب:

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١ / ٢٩٤، الطبري ١ / ٤٧٢ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه ٢٨١٢ .

(٣) المصدر السابق .

١- مخالفة تعليمات القائد الأعلى (النبي ﷺ).

٢- مخالفة تعليمات القائد المباشر (عبد الله بن جبير رضي الله عنه).

٣- عدم الصبر على السراء (فلم يطيقوا الانتظار والغنائم تجمع أمام أعينهم).

٤- الانشغال بالدنيا وغنائمها بدلاً من الانشغال بالغايات السامقة للجهاد.

المطلب التاسع: تجريم التمثيل بجثث القتلى:

أعلن أبو سفيان انتصاره على المسلمين قائلاً: "يَوْمٌ بِيَوْم بَدْرٍ وَالْحَرْبُ سِجَالٌ إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي!"[١].

وقد أعمل المشركون التمثيل والإهانة بجثث الشهداء، فبقروا البطون، وجدعوا الأنوف، وقطعوا الآذان وذبحوا الفروج.

ونظر المسلمون فإذا حمزة[٢] قد بقر بطنه وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها[٣].

أما الإسلام، فقد نهى عن المثلة وحرمها، كما ثبت ذلك بأحاديث شتى[٤].

ففي حديث بريدة: أن النبي ﷺ كان يقول لقواده: "اغزوا ولا تغُلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا"[٥].

وعن عمر بن عبد العزيز: كتب إلى عامل من عماله (ولاته): أنه بلغنا أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سرية يقول لهم: "اغْزُوا بِاسْمِ الله فِي سَبِيلِ الله تُقَاتِلُونَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ لاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تُمَثِّلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا" وقل ذلك لجيوشك وسراياك إن شاء الله والسلام عليك[٦].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) وهو يومئذ ابن تسع وخمسين سنة، كان أسن من رسول الله ﷺ بأربع سنين (ابن سعد ٣/ ١٠).

(٣) ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٨١.

(٤) انظر: يوسف القرضاوي: أحكام الأسرى في الإسلام، ملف على شبكة إسلام أون لاين. نت.

(٥) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها (٣٢٦١).

(٦) مالك بن أنس: الموطأ، كتاب الجهاد (١١)، وصحح الألباني نحو هذا الحديث في إرواء الغليل=

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "أعفُّ الناس قِتْلةً: أهلُ الإيمان" (١) ومعنى هذا: أنهم يعفّون عن الانتقام من الموتى، والتمثيل بأعضائهم وجثثهم، فهذا يتنافى مع عفة أهل الإيمان.

وعن الهياج بن عمران: أن عمران أبَق له غلام، فحلف بالله عليه: لئن قدر عليه ليقطعنّ يده، فأرسلني لأسال له، فأتيت سمُرة بن جندب فسألته، فقال: كان النبي ﷺ يحثنا على الصدقة، وينهانا عن المُثْلة" (٢).

ومن ثم التزم المسلمون في جميع حروبهم: أن يراعوا حرمة الموتى، ولا يتعرضوا لجثثهم بأي تشويه، ولهذا منع الخلفاء الراشدون نقل رؤوس المحاربين من قادة أعدائهم إلى خلفائهم؛ ليتشفوا بالنظر إليها.

وعن عبد الله بن عامر أنه قدم على أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- برأس البطريق، فأنكر ذلك، فقال: يا خليفة رسول الله، إنهم يفعلون ذلك بنا! قال: فاستنان بفارس والروم؟! لا يحمل إليّ رأس! فإنه يكفي الكتاب والخبر (٣). اهـ.

فانظر إلى هذا الموقف الرائع من الخليفة الأول: إنكار حمل الرأس إليه، وقوله: آستنان بفارس والروم؟ ينكر عليهم أن يتخذوا من تقاليد فارس والروم أسوة لهم، فقد جعلهم الله رؤوسًا لا ذيولاً، فهم يُتبعون لا يَتّبعون. ثم أصدر هذا الأمر الحاسم: "لا يحمل إليّ رأس" (٤)!

وأُتي أبو بكر برأس، فقال: بغيتم! أي إن هذا من فعل أهل البغي والظلم لا من فعل أهل الإيمان.

قال الإمام الزهري: لم يؤت إلى النبي ﷺ برأس، وأُتي أبو بكر برأس فقال: لا يؤتى بالجيف إلى مدينة رسول الله ﷺ. وأول من أُتي برأس: ابن الزبير (٥).

=(١٢٤٧ و ٧ / ٢٩٢) ، الروض النضير ١٦٧ .

(١) سنن أبي داود، كتاب الجهاد. باب النهي عن المثلة (٢٦٦٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٢٢).

(٢) سنن أبي داود، كتاب الجهاد. باب النهي عن المثلة (٢٦٦٧)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٢٢).

(٣) ابن قدامة : المغني ١٠/ ٥٦٥ .

(٤) عبد الرزاق الصنعاني ٥/ ٣٠٦، والبيهقي : السنن الكبرى (٩/ ١٣٢).

(٥) انظر: المصدر السابق .

وعلى هذا استقر الفقه الإسلامي، ورجحه المحققون من علمائه. يقول ابن عابدين في حاشيته: لو تمكن من كافر حال قيام الحرب: ليس له أن يمثل به(١).

واستثنى بعض الفقهاء: من كان مثَّل بالمسلمين، فيجوز أن يُمثَّل به قصاصًا، استنادًا لما فعله النبي ﷺ بالعُرَنيين(٢). ولكن هذا لم يكن في الحرب، إنما هو حكم القضاء عليهم، بما قتلوا وسرقوا وعاثوا في الأرض فسادًا.

* * *

(١) حاشية ابن عابدين (٤/ ١٣١).

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير (٢٧٩٥)، وصحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص (٣١٦٢) عن أنس بن مالك -رضي الله عنه.

الفصل السادس
غزوة بَنِي النَّضِيرِ
رَبِيعِ الأوّلِ ٤ هـ - أغسطس ٦٢٥ م

المبحث الأول
ملخص الغزوة

كان يهود بنو النضير بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بينه الدستور كما ذكرنا، ولكن طبيعة الشر والغدر المتأصلة في اليهود أبت إلا أن تحملهم على نقض عهدهم، ومحاولة قتل النبي ﷺ أكثر من مرة، فأرسل إليهم النبي أن اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها، وقد هممتم بما هممتم به من الغدر، ثم أمهلهم ﷺ مهلة للخروج، وتجهز بنو النضير للخروج اعترافًا بجريمتهم، ولكن أرسل إليهم المنافقون أن اثبتوا ونحن معكم، فرجع اليهود عن قرار الخروج، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فخرج إليهم ﷺ في جيشه فحاصرهم، حتى استسلموا، واشترط عليهم ﷺ ألا يخرجوا معهم السلاح، ولهم أن يخرجوا معهم من أموالهم ما حملته الإبل، ودماؤهم مصونة لا يسفك منها قطرة، فلما أرادوا الخروج أخذوا كل شيء يستطيعونه، وهدموا بيوتهم كيلا يستفيد منها المسلمون، وساروا، فمنهم من نزل خيبر على بعد مائة ميل من المدينة، ومنهم من نزل في ناحية "جرش" - أو أذرعات - بجنوب الشام، ولم يسلم منهم إلا اثنان. ونزلت سورة الحشر تعقب على هذه الغزوة[١].

---

(١) انظر أحداث هذه الغزوة في : ابن هشام ٣/ ١٩٩، وابن سعد ٢ / ١- ٤٠، والطبري ٣/ ٣٦، والواقدي ٣٥٣، البلاذري : أنساب الأشراف ١/ ١٦٣، وابن سيد الناس ٢/ ٤٨، وابن كثير ٤/ ٧٤، و ابن القيم : زاد المعاد ٢/ ١٨٥، والمقريزي ١٧٨، ابن حزم :جوامع السيرة (١ / ١٨١)، والصالحي (٤ / ٣١٨)، ومصطفى السباعي ٦١ .

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول: تحاشي القائد الإسلامي لمحاولات الغدر:

أرسل يهود النضير إلى النبي ﷺ أن اخرج إلينا في ثلاثين من أصحابك، وليخرج منا ثلاثون حبراً فإن صدقوك وآمنوا بك آمناً بك - ولم يقصدوا بذلك المناظرة العلمية النزيهة، بل قصدوا الغدر وقتل النبي - فلما غدا عليهم النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه قال بعضهم لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون كل يحب أن يموت قبله، فأرسلوا إليه أن اخرج في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتبعناك ففعل، واشتملت اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بني النضير لأخ لها مسلم تعلمه بذلك، فأعلم أخوها النبي ﷺ بذلك- فرجع[١].

وفي هذا الموقف دلالة على مشروعية أن يأخذ القائد الحيطة في حال رفع معلومات تفيد بوجود خطر يهدده إذا التقى بعدوه في لقاء دبلوماسي أو فكري، وأن يعلن القائد تغيبه عن مثل هذه الاجتماعات التي فيها شبهة تشي بوجود مؤامرة تحاك ضده شخصيًّا !

المطلب الثاني: الغدر صفة أصيلة من صفات يهود:

خرج رسول الله ﷺ يوم السبت في نفر من أصحابه فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيّ[٢]- رِضْوَانُ الله عَلَيْهِم - فصلى في مسجد قباء، ثم أتى بني النضير، يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِك الْقَتِيلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ اللّذَيْنِ قَتَلَ عَمْرُو بْنُ أُمَيّةَ الضّمْرِيّ، لِلْجِوَارِ الّذِي كَانَ رَسُولُ الله ﷺ عَقَدَ لَهُمَا، وإنما يطالبهم النبي بمساعدته في هذه الدية وفق بنود الدستور الذي كتبه معهم، والذي يقتضي تعاون كل الفصائل في قضاء ديات وديون الدولة.

---

(١) الحلبي ٢/ ٣٨٧ .

(٢) ابن هشام ٢ / ١٨٩ .

فَلَمّا أَتَاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِك الْقَتِيلَيْنِ قَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، نُعِينُك عَلَى مَا أَحْبَبْت، مِمّا اسْتَعَنْت بِنَا عَلَيْهِ. ثُمّ خَلاَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَقَالُوا: إنّكُمْ لَنْ تَجِدُوا الرّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ - وَرَسُولُ الله ﷺ إلَى جَنْبِ جِدَارٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ قَاعِدٌ : فَمَنْ رَجُلٌ يَعْلُو عَلَى هَذَا الْبَيْتِ فَيُلْقِي عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيُرِيحُنَا مِنْهُ ؟ وقالوا فيما بينهم: نقتله ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكة، فنبيعهم من قريش(١)، فَانْتَدَبَ لِذَلِكَ عَمْرُو بْنُ جَحّاشِ بْنِ كَعْبٍ، أَحَدَهُمْ فَقَالَ: أَنَا لِذَلِكَ(٢)!

فَقَالَ لَهُمْ سَلاَمُ بْنُ مِشْكَمٍ - وكان رجلاً عاقلاً: لاَ تَفْعَلُوا ! فَوالله لَيُخَبّرَنّ بِمَا هَمَمْتُمْ بِهِ(٣) .. يا قوم أطيعوني هذه المرة وخالفوني الدهر، والله لئن فعلتم ليخبرن بأنا قد غدرنا به، وإن هذا نقض للعهد الذي بيننا وبينه، فلا تفعلوا(٤).

لكن غلبت شياطينهم عقلاءهم، فَصَعِدَ عَمْرُو بْنُ جَحّاشٍ - لعنه الله - لِيُلْقِيَ الصَخْرَة عَلَي النبي ﷺ(٥).

ورغم أن الغدر ليس من شيم الحلفاء الشرفاء إلا أن اليهود درجوا على نقض العهود وأدمنوا الخيانة والخسة حتى مع أبناء وطنهم وحلفائهم.

ومواقف التاريخ تؤكد في كل مرة أنهم أهل غدر وخيانة.

وصدق الله إذ يقول فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنفال].

المطلب الثالث: حكمة القائد في مواجهة الاغتيال:

لما هم القوم بالغدر، ولما أشرف "ابن جحاش" بالصخرة، وقد أوشك أن يلقيها على رأس النبي ﷺ، أَتَى رَسُولَ الله ﷺ الْخَبَرُ مِنْ السّمَاءِ بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ، فَقَامَ فورًا - كأنه يريد حاجة(٦)- وَخَرَجَ رَاجِعًا إلَى الْمَدِينَةِ(٧).

فبينما اليهود على ذلك ينتظرون أن يعود النبي ﷺ إلى مكانه بعد أن يقضي حاجته لينفذوا جريمتهم الشنعاء وقد دأبوا - عليهم لعائن الله - على سفك دماء الأنبياء والمرسلين - إذ جاء جاء من اليهود من المدينة، فلما رأى إخوانه من

(١) الحلبي ٢/ ٣٨٧ .
(٢) ابن هشام ٢ / ١٨٩ .
(٣) زاد المعاد ٣ / ١١٥ .
(٤) الصالحي ٤ / ٣١٨ .
(٥) زاد المعاد ٣ / ١١٥ .
(٦) الصالحي ٤ / ٣١٨ .
(٧) ابن هشام ٢ / ١٨٩ .

اليهود يتآمرون على قتل النبي ﷺ قال لهم: ما تريدون ؟ قالوا: نريد أن نقتل محمدًا ونأخذ أصحابه، فقال لهم: وأين محمد ؟ قالوا: هذا محمد قريب، فقال لهم صاحبهم: والله لقد تركت محمدًا داخل المدينة، فسقط في أيديهم[١].

وأيقنوا أن النبي أُخبر بما هموا به!

واستبطأ الصحابة النبي ﷺ، وراث عليهم خبره، فلما يئسوا من ذلك قال أبو بكر: ما مقامنا هاهنا بشيء ! لقد توجه رسول الله ﷺ لأمر ، فقاموا في طلبه، وحينئذ قال حيي بن أخطب - كاذبًا: "لقد عجل أبو القاسم، كنا نريد أن نقضي حاجته ونقريه" وندمت يهود على ما صنعوا [٢].

وطفق أصحاب رسول الله يبحثون عنه، وفي طريقهم لَقُوا رَجُلاً مُقْبِلاً مِنْ الْمَدِينَةِ، فَسَأَلُوهُ عَنْهُ فَقَالَ رَأَيْته داخلاً الْمَدِينَةَ. فَأَقْبَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ حَتّى انْتَهَوْا إلَيْهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُمْ الْخَبَرَ، أن الْيَهُودَ أَرَادَوا الْغَدْرَ بِهِ[٣].

وفي هذا الموقف نرى عبقرية التصرف - من القائد - أثناء شروع العدو في تنفيذ مهمة الاغتيال والخيانة، حيث تظاهر برغبته في قضاء حاجة عن قرب، وتسلل من الموقف بهدوء وكياسة، ثم أعلن عليهم الحرب بعدما وصل إلى مقر قيادته بين جنوده.

المطلب الرابع: أهمية ظهور جبهة المعارضة في صفوف العدو:

قال كنانة بن صويراء - لليهود: "هل تدرون لما قام محمد ؟ "

قالوا: لا والله ما ندري، وما تدري أنت !

قال: "بلى والتوراة إني لأدري، قد أخبر محمد بما هممتم به من الغدر، فلا تخدعوا أنفسكم، والله إنه لرسول الله، وما قام إلا أنه أخبر بما هممتم به من الغدر، وإنه لآخر الأنبياء، وكنتم تطمعون أن يكون من بني هارون، فجعله الله حيث شاء. وإن كتبنا والذي درسنا في التوراة التي لم تغير، ولم تبدل: أن مولده بمكة، وأن دار هجرته يثرب، وصفته بعينها ما تخالف حرفا مما في كتابنا، وما يأتيكم به أولى في محاربته إياكم، ولكأني أنظر إليكم ظاعنين يتضاغى صبيانكم قد تركتم دوركم خلوفًا وأموالكم، وإنما هي شرفكم، فأطيعوني في خصلتين،

(١) الصالحي ٤ / ٣١٨ . (٢) الصالحي ٤ / ٣١٨، ٣١٩ . (٣) ابن هشام ٢ / ١٨٩ .

والثانية لاخير فيها" !

قالوا: ما هما ؟

قال: "تسلمون وتدخلون مع محمد، فتأمنون على أموالكم وأولادكم، وتكونون من علية أصحابه، وتبقى بأيديكم أموالكم، ولا تخرجون من دياركم" .

قالوا: لا نفارق التوراة وعهد موسى.

قال: "فإنه مرسل إليكم: اخرجوا من بلدي فقولوا: نعم، فإنه لايستحل لكم دمًا ولا مالاً، وتبقى أموالكم لكم، إن شئتم بعتم، وإن شئتم أمسكتم " .

قالوا: أما هذا فنعم.

قال سلام بن مشكم: "قد كنت لما صنعتم كارها، وهو مرسل إلينا أن اخرجوا من داري، فلا تعقب يا حيي كلامه، وأنعم له بالخروج، واخرج من بلاده " .

قال: أفعل، أنا أخرج(١).

ومن أعظم الفوائد التي تعود على الجيش الإسلامي حال ارتباك عدوه؛ ظهور معارضة قوية في صفوف العدو، تعمل على تخذيل الجبان وإرباك الغشوم وكسر شوكة الظلوم في صفوف الأعداء. فقد نجم عن فعلتهم النكراء، وصنيع الرسول ﷺ الحكيم؛ هذه المعارضة التي كانت من أسباب هزيمة يهود بني النضير معنويًا.

وهو عقاب إلهي لكل من يخرج عن آداب الحروب. فقد أثبت التاريخ في مثل هذه المواقف أن الخسران والدمار دائمًا يتجرعه الخصم الخائن الغادر!

المطلب الخامس: إمهال العدو ليتأهب للجلاء:

وهنا نجدنا أمام موقف الرحمة النبوية بالخصوم الذين شرعوا في الغدر والخيانة، فقابل القائد الإسلامي إساءتهم بإحسان لا يخل بالحق في أخذ القصاص من الغادر، فجمع عليهم الرحمة والعقاب في آن واحد، فنراه قد أمهلهم وقتًا كافيًا قبل إخراجهم من الوطن الذي خانوه والدولة التي لم يحترموا

---

(١) الصالحي ٤ / ٣١٩ .

فيها دستورها ولا عهد رئيسها.

لقد بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ في رسالة يحملها محمد بن مسلمة الأوسي[١]، فأقبل عليهم ووبخهم - رضوان الله تعالى عليه - وقال: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم يقول لكم: "اخْرُجُوا مِنْ الْمَدِينَةِ، وَلاَ تُسَاكِنُونِي بِهَا، فقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وَقَدْ أَجّلْتُكُمْ عَشْرًا، فَمَنْ وَجَدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِهَا، ضَرَبْتُ عُنُقَهُ"[٢].

وأخبرهم - في تقرير تفصيلي - بما هموا به من ظهور عمرو بن جحاش على ظهر البيت ليطرح الصخرة، فسكتوا ولم يقولوا حرفاً[٣]، فَأَقَامُوا أَيّامًا يَتَجَهّزُونَ.

ولم يأمر رسول الله ﷺ بأي إجراء عسكري ضدهم خلال هذه الأيام، بيد أن العرف السائد في الأمم الغابرة والحاضرة، أن القادة والزعماء يجهزون على أي فصيل داخل الشعب يشرع في التآمر على السلطان، فيعمل السلطان فيهم القتل والسلب والنهب وهتك الأعراض.

بيد أن أبا القاسم لم يقابل الغدر بالغدر، إنما وضع الجريمة في نصابها، وقدر لها عقوبتها، وأمهل المجرمين، ليتجهزوا بما فيه الكفاية للرحيل، ليرحم بذلك الصغير، ويشفق بذلك على الكبير، لاسيما الأرامل والشيوخ والعجائز، فهؤلاء لا ذنب لهم بما قدمت أيدي المجرمين.

المطلب السادس: دور المنافقين في تثبيت الأعداء!

عزم اليهود على الخروج، لولا أن المنافقين ثبتوهم، فَقَدْ كَانَ رَهْطٌ من المنافقين مِنْ بَنِي عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ، مِنْهُمْ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيّ ابْنِ سَلُولَ وَوَدِيعَةُ وَمَالِكُ بْنُ أَبِي قَوْقَلٍ وَسُوَيْدُ وَدَاعِسٌ، قَدْ بَعَثُوا إلَى بَنِي النّضِيرِ: أَنْ اُثْبُتُوا وَتَمَنّعُوا، فَإِنّا لَنْ نُسَلّمَكُمْ إنْ قُوتِلْتُمْ قَاتَلْنَا مَعَكُمْ وَإِنْ أُخْرِجْتُمْ خَرَجْنَا مَعَكُمْ. فَتَرَبّصُوا ذَلِكَ مِنْ نَصْرِهِمْ فَلَمْ يَفْعَلُوا[٤].

وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ الْمُنَافِقُ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيّ - وأكد عليهم - في رسالة يحملها

---

(١) الحلبي ٢/ ٣٨٧. (٢) ابن هشام ٢ / ١٩١. (٣) الحلبي ٢/ ٣٨٧.
(٤) ابن هشام ٢ / ١٩١.

سويد، وداعس[١]: أَنْ لاَ تَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ فَإِنّ مَعِي أَلْفَيْنِ يَدْخُلُونَ مَعَكُمْ حِصْنَكُمْ فَيَمُوتُونَ دُونكُمْ وَتَنْصُرُكُمْ قُرَيْظَةُ وَحُلَفَاؤُكُمْ مِنْ غَطَفَانَ، وَطَمِعَ رَئِيسُهُمْ حُيي بْنُ أَخْطَبَ فِيمَا قَالَ لَهُ ابن أبي، وَبَعَثَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ يَقُولُ: إنّا لاَ نَخْرُجُ مِنْ دِيَارِنَا، فَاصْنَعْ مَا بَدَا لَك[٢].

المطلب السابع: المنافقون واليهود حليفان ضعيفان:

فقد نهاه أحد سادات بني النضير وهو سلام بن مشكم وقال له: منتك نفسك والله يا حيي الباطل، فإن قول ابن أبي ليس بشيء، وإنما يريد أن يورطك في الهلكة حتى تحارب محمداً فيجلس في بيته ويتركك؛ ألا ترى أن أرسل إلى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة أن تمدكم بنو قريظة، فقال له: لا ينقض رجل واحد منا العهد فيئس من بني قريظة[٣]. وأيضاً قد وعد حلفاءه من بني قينقاع مثل ما وعدك حتى حاربوا ونقضوا العهد وحصروا أنفسهم في صياصيهم -أي حصونهم- وانتظروا ابن أبي فجلس في بيته وسار إليهم محمد حتى نزلوا على حكمه. فإذا كان ابن أبي لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس ونحن لم نزل نضربه بسيوفنا مع الأوس في حروبهم. أي فإنه إذا كان بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت بنو النضير وقريظة مع الأوس، فكيف يقبل قوله، فقال حيي: نأبى إلا عداوة محمد وإلا قتاله. قال سلام: فهو والله جلاؤنا من أرضنا، وذهاب أموالنا وشرفنا، وسبي ذرارينا مع قتل مقاتلينا، فأبى حيي إلا محاربة رسول الله ﷺ. وقالت له بنو النضير: أمرنا لأمرك تبع لن نخالفك، فأرسل إلى رسول الله ﷺ بما ذكر[٤].

وقد سطر القرآن هذه الشراكة بين المنافقين وإخوانهم اليهود، لاسيما في مثل هذه المواقف عبر التاريخ، فقال الخالق سبحانه:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ

---

(١) الصالحي ٤ / ٣٢٠ . (٢) ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ١١٥ .

(٣) وكان ابن سلول قد أرسل إلى كعب بن أسد القرظي - سيد بني قريظة - يكلمه أن يمد يهود النضير، ويعاونوهم في الحرب على النبي ﷺ، فقال: "لا ينقض رجل واحد منا العهد". فيئس ابن أبي من بني قريظة (الصالحي ٤ / ٣٢٠) .

(٤) الحلبي ٢/ ٣٨٧ .

أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ⑪﴾[الحشر].

المطلب الثامن: الحصار وإنزال العقاب بالغادرين:

لما جاء إلى النبي ﷺ خبر رفض اليهود مغادرة المدينة.

قال: "الله أكبر !!"، فقال أصحابه: الله أكبر[١].

وأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِالتَّهَيّؤِ لِحَرْبِهِمْ وَالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ. وَأَمَّرَ أَبَا لُبَابَةَ عَلَى الْمَدِينَةِ وَابْنَ أُمّ مَكْتُومٍ عَلَى الصّلاَةِ[٢]. ثُمّ سَارَ بالجيش الإسلامي، وحملت مع رسول الله ﷺ قبة من خشب، عليها مسوح أرسل بها سعد بن عبادة -رضي الله عنه[٣]. وَعَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَحْمِلُ اللّوَاءَ، حَتّى نَزَلَ الجيش الإسلامي بِهِمْ، ووصل رسول الله ﷺ إلى أرض العدو، وصلى بجنوده العصر بفناء العدو[٤].

ولما جاء وقت العشاء رجع رسول الله ﷺ إلى بيته في عشرة من أصحابه عليه الدرع وهو على فرس، واستعمل على العسكر علي بن أبي طالب - ويقال أبا بكر - وبات المسلمون يحاصرونهم ويكبرون حتى أصبحوا ثم أذن بلال بالفجر، فغدا رسول الله ﷺ في أصحابه الذين كانوا معه فصلى بالناس، ودخل القبة، وكان رجل من يهود يقال له غزول، وكان أعسر رامياً يبلغ نبله ما لا يبلغه نبل غيره، فوصل نبله تلك القبة، فأمر بها فحولت. وفي ليلة من الليالي فُقد علي -رضي الله تعالى عنه- قرب العشاء، فقال الناس: يا رسول الله ما نرى علياً، فقال: دعوه أي اتركوه، فإنه في بعض شأنكم، فعن قليل جاء برأس الرجل الذي يقال له غزول الذي وصل نبله قبته، كمن له عليّ حين خرج يطلب غرة من المسلمين ومعه جماعة، فشد عليه فقتله وفرّ من كان معه، فأرسل رسول الله ﷺ مع عليّ أبا دجانة وسهل بن حنيف في عشرة، فأدركوا أولئك الجماعة الذين كانوا مع غزول وفروا من عليّ فقتلوهم[٥].

وحَاصَرَهُمْ المسلمون سِتّ لَيَالٍ، وفيها نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ[٦].

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ١١٥ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٥ / ٦٣ . (٣) الصالحي ٤ / ٣٢٢ . (٤) الحلبي ٢/ ٣٨٧ .

(٥) الحلبي ٢/ ٣٨٧ ، الصالحي ٤ / ٣٢٢ .

(٦) ابن هشام ٢ / ١٩٠ .

المطلب التاسع: إحراق بعض زروع العدو:

وخلال فترة الحصار - أو قرب نهايته - أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِقَطْعِ النّخِيلِ وَالتّحْرِيقِ فِيهَا، واستعمل على قطع النخل أبا ليلى المازني وعبدالله بن سلام. وكان أبو ليلى يقطع العجوة وعبدالله يقطع اللين[١]. فَنَادَوْهُ أَنْ يَا مُحَمّدُ قَدْ كُنْتَ تَنْهَى عَنْ الْفَسَادِ، وَتَعِيبُهُ عَلَى مَنْ صَنَعَهُ فَمَا بَالُ قَطْعِ النّخْلِ وَتَحْرِيقِهَا[٢]؟

ولما قطعت العجوة شق نساء اليهود الجيوب، وضربن الخدود، ودعون بالويل[٣].

وقال اليهود من خلف الحصون للمؤمنين: إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون، وحينئذٍ وقع في نفوس بعض المسلمين من ذلك شيء[٤].

فأنزل الله: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥ ﴾ [الحشر].

وكان جميع ما قطعوا وحرقوا ست نخلات[٥].

وقد استدل العلماء بذلك على أن الحكم الشرعى فى أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام و القائد من مصلحة النكاية بأعدائهم، فالمسألة إذاً من قبيل ما يدخل تحت اسم السياسة الشرعية. قال العلماء: وإنما كان قصد الرسول ﷺ بتصرفه هذا فى نخيل بنى النضير - قطعاً أو كفاً - تحقيق المصلحة وتلمس السبيل إليها، إرشاداً وتعليماً للأئمة من بعده.

وهذا القول من إباحة قطع شجر الكفار وإحراقه إذا اقتضت المصلحة هو مذهب نافع مولى ابن عمر ومالك و الثورى وأبى حنيفة و الشافعى وإسحاق وجمهور الفقهاء[٦].

وكره بعضهم ذلك، وهو قول الأوزاعي، قال الأوزاعي: "ونهى أبو بكر الصديق أن يقطع شجر مثمر أو يخرب عامر وعمل بذلك المسلمون بعده"[٧].

---

(١) الحلبي ٢/ ٣٨٧.
(٢) ابن هشام ٢ / ١٩١.
(٣) الحلبي ٢/ ٣٨٧.
(٤) الحلبي ٢/ ٣٨٧.
(٥) الحلبي ٢/ ٣٨٧.
(٦) محمد سعيد رمضان البوطي ١٩٢.
(٧) سنن الترمذي، كتاب السير عن رسول الله ﷺ، باب في التحريق والتخريب (١٤٧٢) وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن الترمذي.

وروى عن ليث بن سعد وأبى ثور و الأوزاعى بعدم جوازه[١].

ومن ثم أجازه أحمد للضرورة، فقال: " وقد تكون في مواضع لا يجدون منه بدًا فأما بالعبث فلا تحرق "[٢].

وهو الذي نختاره، لأمر رسول الله ﷺ الجازم في كل سرية يبعثها بعدم التعرض للزروع أو دور العبادة.

ويستفاد مما سبق[٣]:

١- أن الأصل هو عدم قطع الشجر وعدم تخريب البناء؛ لأن الهدف من الحرب ليس إيذاء الرعية، ولكن دفع أذى الراعي الظالم وبذلك وردت الآثار.

٢- أنه إذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء توجبه ضرورة حربية لا مناص منها كأن يستتر العدو به ويتخذه وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين، فإنه لا مناص من قطع الأشجار وهدم البناء، على أنه ضرورة من ضرورات القتال، كما فعل النبي ﷺ هنا وفي حصن ثقيف.

٣- أن كلام الفقهاء الذين أجازوا الهدم والقلع يجب أن يخرج على أساس هذه الضرورات، لا على أساس إيذاء العدو والإفساد المجرد، فالعدو ليس الشعب، إنما العدو هم الذين يحملون السلاح ليقاتلوا.

المطلب العاشر: إسلام يَامِين بْنُ عُمَيْرِ، وَأَبُو سَعْدِ بْنُ وَهْبٍ:

وخلال فترة الحصار، أسلم مِنْ بَنِي النَّضِيرِ رَجُلَانِ يَامِينُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَأَبُو سَعْدِ بْنُ وَهْبٍ، أَسْلَمَا عَلَى أَمْوَالِهِمَا فَأَحْرَزَاهَا[٤].

قال أحدهما لصاحبه: والله إنك لتعلم أنه رسول الله ﷺ فما ننتظر أن نسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا، فنزلا من الليل وأسلما فأحرزا أموالهما.

(١) محمد سعيد رمضان البوطي ١٩٢.

(٢) سنن الترمذي، كتاب السير عن رسول الله ﷺ، باب في التحريق والتخريب (١٤٧٢)، وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن الترمذي.

(٣) انظر: محمد أبو زهرة: خاتم النبيين، ٢/ ٢٦٥-٢٦٩، وعلي محمد الصلابي ٢/ ١٦٥.

(٤) ابن هشام ٢ / ١٩٢.

ثم قال رَسُول الله ﷺ: لِيَامِينَ أَلَمْ تَرَ مَا لَقِيتُ مِنْ ابْنِ عَمّك، وَمَا هُمْ بِهِ مِنْ شَأْنِي ؟ فَجَعَلَ يَامِينُ بْنُ عُمَيْرٍ لِرَجُلٍ جُعْلاً- وهو عشرة دنانير- عَلَى أَنْ يَقْتُلَ لَهُ عَمْرَو بْنَ جِحَاشٍ[١] الذي أراد أن يلقي الحجر على رسول الله ﷺ، فقتله غيلة فسر بذلك النبي ﷺ.

وهو مشهد قلما نراه في الحروب، أن ينتقل بعض الجنود من خصم إلى خصم، فثمة حالة من التأثر غيرت من توجه هذين الجنديين (يَامِينُ وابْن وَهْبٍ)، وحالة من يقظة الضمير والاستفاقة من هوال قيامهم بمقاتلة رسول من رسل الله.

وهي أخلاق الرحمة التي شاهدها الجنديان أثناء فترة الحصار، الأمر الذي حولهم من كونهم أعداء لرسول الله ﷺ إلى جنود محبين تحت لوائه. ليس هذا فحسب، بل يقتلوا من آذى رسول الله ﷺ من قومهم وأقاربهم !

المطلب الحادي عشر: استسلام يهود النضير:

ولا زال عبدالله بن أبي ابن سلول يبعث لبني النضير أن اثبتوا وتمنعوا، فإنكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم، فانتظروا ذلك، ولم يحصل لهم منه شيء، وجعل سلام بن مشكم وكنانة بن صويراء يقولان لحيي: أين نصر ابن أبيّ الذي زعمت؟ فيقول حيي: ما أصنع، هي ملحمة كتبت علينا[٢].

وانتظر يهود النضير – طيلة فترة الحصار– النصرة والمدد الذي وعدهم إياه ابن سلول، ومنتهم به قريظة هي الأخرى، وكذلك غطفان، فقد دب الرعب في قلوب الخائنين، فَاعْتَزَلَتْهُمْ قُرَيْظَةُ وَخَانَهُمْ ابْنُ أُبَيّ وَحُلَفَاؤُهُمْ مِنْ غَطَفَانَ، وَلِهَذَا شَبّهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– قِصّتَهُمْ وَجَعَلَ مَثَلَهُمْ ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾[٣].

ولما اشتد الحصار على اليهود– وهم أهل جبن وخور– وَقد قَذَفَ الله فِي قُلُوبِهِمْ الرّعْبَ، أَرْسَلُوا إلَيْ النبي ﷺ: نَحْنُ نَخْرُجُ عَنْ الْمَدِينَةِ.. فَأَنْزَلَهُمْ عَلَى أَنْ يَخْرُجُوا عَنْهَا بِنُفُوسِهِمْ وَذَرَارِيّهِمْ وَأَنّ لَهُمْ مَا حَمَلَتْ الْإِبِلُ إلاّ السّلاَحَ وَقَبَضَ النّبِيّ

---

(١) ابن هشام ٢ / ١٩٢ .

(٢) الحلبي ٢/ ٣٨٧ .

(٣) ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ١١٥ .

ﷺ الأَمْوَالَ و السّلاَحُ والأرض والديار، ووَجَدَ مِنَ السّلاَحِ خَمْسِينَ دِرْعًا، وَخَمْسِينَ بَيْضَةً وَثَلاَثَمِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ سَيْفًا، وَكَانَتْ بَنُو النّضِيرِ خَالِصَةً لِرَسُولِ الله ﷺ لِنَوَائِبِهِ وَمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يُخَمّسْهَا لأَنّ الله أَفَاءَهَا عَلَيْهِ، وَلَمْ يُوجِفْ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهَا بِخَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ(١).

قَالَ مَالِكٌ: خَمّسَ رَسُولُ الله ﷺ قُرَيْظَةَ، وَلَمْ يُخَمّسْ بَنِي النّضِيرِ؛ لأَنّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُوجِفُوا بِخَيْلِهِمْ وَلاَ رِكَابِهِمْ عَلَى بَنِي النّضِيرِ كَمَا أَوْجَفُوا عَلَى قُرَيْظَةَ وَأَجْلاَهُمْ إِلَى خَيْبَرَ(٢)..

وَقَالَ رسول الله ﷺ معبرًا عن أهمية هذا الفصيل بالنسبة لليهود جميعًا: هَؤُلاَءِ فِي قَوْمِهِمْ بِمَنْزِلَةِ بَنِي الْمُغِيرَةِ فِي قُرَيْشٍ(٣).

ولما عزم اليهود على ترك المدينة، صاروا ينقضون العمد والسقوف، وينزعون الخشب حتى الأوتاد، وينقضون الجدران حتى لا يسكنها المسلمون حسداً وبغضاً(٤).

وخرجوا- من ديارهم - مظهرين التجلد: وخرجت النساء على الهوادج وعليهن الديباج والحرير وقطف الخز الأخضر والأحمر وحلي الذهب والفضة(٥)، مَعَهُمْ الدّفُوفُ وَالْمَزَامِيرُ وَالْقِيَانُ يَعْزِفْنَ خَلْفَ الرجال وَإِنّ فِيهِمْ لأُمّ عَمْرٍو المطربة، تغني، بِزُهَاءٍ وَفَخْرٍ مَا رُئِيَ مِثْلُهُ مِنْ حَيّ مِنْ النّاسِ فِي زَمَانِهِمْ!!(٦).

فجعلوا يمرون قطارا في أثر قطار، وقد تحملوا على ستمائة بعير(٧).

ونادى أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، ورفع مسك جمل وقال: هذا مما نعده لخفض الأرض ورفعها، فإن تكن النخل قد تركناها فإنا نقدم على نخل بخيبر(٨).

وحزن المنافقون لخروجهم أشد الحزن.

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد ٣ / ١١٥، ابن هشام ٢ / ١٩١.
(٢) ابن القيم: زاد المعاد ٣ / ١١٥.
(٣) ابن القيم: زاد المعاد ٣ / ١١٥.
(٤) الحلبي ٢/ ٣٨٧.
(٥) الحلبي ٢/ ٣٨٧.
(٦) ابن هشام ٢ / ١٩١.
(٧) الصالحي ٤ / ٣٢٤.
(٨) الصالحي ٤ / ٣٢٤.

فَكَانَ أَشْرَافُهُمْ مَنْ سَارَ مِنْهُمْ إِلَى خَيْبَرَ: سَلاَّمُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ وَكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الْحَقِيقِ، وَحُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ. فَلَمَّا نَزَلُوهَا دَانَ لَهُمْ أَهْلُهَا.

والباقون ساروا إلى الشام: إلى أذرعات. وكان فيهم جماعة من أبناء الأنصار؛ لأن المرأة من الأنصار كان إذا لم يعش لها ولد تجعل على نفسها إن عاش لها ولد تهوده، فلما أجليت بنو النضير قال آباء أولئك: لا ندع أبناءنا، وأنزل الله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾[البقرة][1]. وذلك من سماحة الشرع الإسلامي الكريم.

هذا، ويستفاد من موقف جماعة ابن سلول مع اليهود:

أن دور المنافقين في مثل هذه المواجهات هو دور دعائي باعث للبلبلة والإرباك، دون اتخاذ أي إجراءات عملية حربية مع العدو في مسألة التحالف معه.

من آداب الحروب استخدام أساليب الحصار دون سفك أو نهب أو اقتحام غشوم لسكنات الأبرياء. فما فعله رسول الله ﷺ هو استخدام أسلوب الضغط بالحصار أو بتقطيع بعض الأشجار ولم يستخدم ﷺ أساليب العنف الدموي والسلب والنهب وهتك الأعراض. كما كان يفعل التتار في حصارهم للقرى، حيث تكون أيام الحصار أيام مذابح ونهب وسلب وهتك للأعراض، وفي كثير من الأحيان يحاصرون القرية، ويمنعون الماء عن أهلها، ثم يرسلون من يضع السم في الآبار، فيموت سكان القرية عن آخرهم!

المطلب الثاني عشر: تعميق الإيثار بين جند الله:

وَخَلّوْا الأَمْوَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَكَانَ لِرَسُولِ الله ﷺ خَاصَّةً يَضَعُهَا حَيْثُ يَشَاءُ فَقَسَّمَهَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ الأَوّلِينَ دُونَ الأَنْصَارِ. إلاّ أَنّ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ وَأَبَا دُجَانَةَ سِمَاكَ بْنَ خَرَشَةَ ذَكَرَا فَقْرًا، فَأَعْطَاهُمَا رَسُولُ الله ﷺ[2].

وقد قَسَمَ رَسُولُ الله ﷺ أَمْوَالَ بَنِي النّضِيرِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ - أفقر فصيل في

(١) الحلبي ٢/ ٣٨٧.
(٢) ابن هشام ٢ / ١٩٢.

الدولة الإسلامية - لِأَنَّ الْمُهَاجِرِينَ حِينَ قَدِمُوا الْمَدِينَةَ شَاطَرَهُمْ الأَنْصَارُ ثِمَارَهُمْ، وكان المهاجرون في دور الأنصار وأموالهم. فأراد النبي أن يرفع هذا العبء عن الأنصار، فيمنح هذا الفيء للمهاجرين على ألا يأخذوا شيئًا من أموال الأنصار.

فلما غنم رسول الله ﷺ بني النضير دعا ثابت بن قيس بن شماس، فقال: ادع لي قومك، قال ثابت: الخزرج يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: "الأنصار كلها!" فدعا له الأوس والخزرج[١]، فتكلم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله. ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين، من إنزالهم في منازلهم، وإيثارهم على أنفسهم بأموالهم. ثم قال لهم: "إِنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُ أَمْوَالَ بَنِي النَّضِيرِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ وَأَقَمْتُمْ عَلَى مُوَاسَاتِهِمْ فِي ثِمَارِكُمْ وَإِنْ شِئْتُمْ أَعْطَيْنَاهَا لِلْمُهَاجِرِينَ دُونَكُمْ وَقَطَعْتُمْ عَنْهُمْ مَا كُنْتُمْ تُعْطُونَهُمْ مِنْ ثِمَارِكُمْ"[٢].

فقالوا - وما أجمل ما قالوا: بل اقسم هذه فيهم، واقسم لهم من أموالنا ما شئت[٣]!!

وتكلم سعد بن عبادة وسعد بن معاذ رضي الله عنهما فقالا: يا رسول الله، بل تقسم بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا، بل نحب أن تقسم ديارنا وأموالنا على المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وعشائرهم وخرجوا حباً لله ولرسوله، ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها.

ونادت الأنصار- تؤكد كلام القائدين: رضينا وسلمنا يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: "اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار[٤].. [وأبناء أبناء الأنصار]"[٥].

وأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر].

---

(١) الصالحي ٤ / ٣٢٥.
(٢) ابن القيم: زاد المعاد ٥ / ٦٣.
(٣) الحلبي ٢/ ٣٨٧.
(٤) الصالحي ٤ / ٣٢٥.
(٥) الحلبي ٢/ ٣٨٧.

فكان الرسول ﷺ أكرم من الأنصار ، فَأَعْطَاهَا رَسُولُ الله الْمُهَاجِرِينَ، على ألا يأخذوا من أموال إخوانهم بعد هذا الفيء، فَاسْتَغْنَوْا بِمَا أَخَذُوا وَاسْتَغْنَى الأَنْصَارُ بِمَا رَجَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ ثِمَارِهِمْ(١).

فقال أبو بكر -رضي الله عنه - وقد هزه كرم الأنصار وإيثارهم: "جزاكم الله يا معشر الأنصار خيرًا" وجادت قريحته بفاصل من الشعر يمدح فيه الأنصار(٢).

أما سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ وَأَبَا دُجَانَةَ سِمَاكَ بْنَ خَرَشَةَ (٣)وهذان مِنْ الأنصار شَكَوْا حَاجَة. فأعطاهما على سبيل الاستثناء للضرورة.

وأعطى النبي ﷺ سعد بن معاذ -رضي الله عنه- سيف بن أبي الحقيق، وكان سيفا له ذكرٌ عند اليهود(٤). وإنما مُنح سعد - رضوان الله عليه - هذا السيف على سبيل الجائزة والتكريم، فقد كان يطعم الجيش الإسلامي في غزو النضير، وهو صاحب القبة الخشبية، التي جُعلت مقرًا متحركًا لرصد تحركات العدو.

وَكَانَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ -رَضِيَ الله عَنْهُمَا- بِالشَّام لَمْ يَشْهَدَا بَدْرًا فَقَسَمَ لَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ سَهْمَيْهِمَا فَقَالاَ: وَأُجُورُنَا يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ "وَأُجُورُكُمَا". كما أَنّ أَبَا لُبَابَةَ وَالْحَارِثَ بْنَ حَاطِبٍ وَعَاصِمَ بْنَ عَدِيّ خَرَجُوا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَرَدّهُمْ وَأَمّرَ أَبَا لُبَابَةَ عَلَى الْمَدِينَةِ وَابْنَ أُمّ مَكْتُومٍ عَلَى الصّلاَةِ وَأَسْهَمَ لَهُمْ. وَخَوّات بْنُ جُبَيْرٍ ضَرَبَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِسَهْمِهِ. كما أَنّ عُثْمَانَ بْنَ عَفّانَ -رَضِيَ الله عَنْهُ- تَخَلّفَ عَلَى امْرَأَتِهِ رُقَيّةَ بِنْتِ رَسُولِ الله ﷺ فَضَرَبَ لَهُ بِسَهْمِهِ فَقَالَ وَأَجْرِي يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: "وَأَجْرُكَ"(٥).

وَهَذَا خَاصّ لِلنّبِيّ ﷺ فقد أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ لاَ يُقْسَمَ لِغَائِبٍ، وقَالَ أَحْمَدُ وَمَالِكٌ وابن القيم وَجَمَاعَةٌ مِنْ السّلَفِ وَالْخَلَفِ: إنّ الإِمَامَ إذَا بَعَثَ أَحَدًا فِي

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد ٥/ ٦٣.
(٢) الصالحي ٤/ ٣٢٥.
(٣) يخطئ ابن القيم - وغيره - في القول بأن ثلاثة من الأنصار شكوا فقرًا لرسول الله ﷺ في النضير، وذكر أن منهم الحارث بن الصمة (زاد المعاد ٥/ ٦٣)، والصحيح أن الحارث بن الصمة لم يكن في هذه الغزوة، فقد مات شهيدًا في مذبحة بئر معونة صفر ٤ هـ، أي قبل هذه المعركة بشهر تقريبًا.
(٤) الصالحي ٤/ ٣٢٥.
(٥) ابن القيم: زاد المعاد ٥/ ٦٣.

مَصَالِحِ الْجَيْشِ فَلَهُ سَهْمُهُ[١] .

وقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ : وَلَمْ يَكُنْ النّبِيّ ﷺ يُسْهِمُ لِلنّسَاءِ وَالصّبْيَانِ وَالْعَبِيدِ وَلَكِنْ كَانَ يَحْذِيهِمْ مِنْ الْغَنِيمَةِ[٢] .

* * *

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٥ / ٦٣ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٥ / ٦٣ .

الفصل السابع
غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ
شَوّالِ ٥هـ - فبراير ٦٢٧ م

المبحث الأول
ملخص الغزوة

لما تم إجلاء بني النضير، خرج وفد يهودي إلى مكة يدعون قريشًا ويحرضونها على قتال الرسول ﷺ ، فأجابت قريش لذلك، ثم تحرك الوفد اليهودي في جولة دبلوماسية بين قبائل العرب، فاستجابت غطفان، وبنو فزارة وبنو مرة، وأشجع واتجهت جيوش الأحزاب نحو المدينة، فلما سمع النبي ﷺ بخروجهم، استشار أصحابه فأشار عليه سلمان بحفر خندق حول المدينة، فأمر رسول الله ﷺ بحفره وعمل فيه بنفسه، ولما وصلت قريش ومن معها من الأحزاب راعها ما رأت من أمر الخندق، إذ لا عهد للعرب بمثله، وكانت عدتهم عشرة آلاف، وعدة المسلمين ثلاثة آلاف، وكان حُيي بن أخطب أحد اليهود الذين هيجوا قريشا والأحزاب ضد المسلمين، وقد ذهب إلى كعب بن أسد سيد بني قريظة يطلب إليه نقض العهد مع المسلمين، وفكر النبي ﷺ في مصالحة بني قريظة على ثلث ثمار المدينة، ولكن الأنصار رفضوا اعتزازا بدينهم من أن يعطوا الدنية لهؤلاء الخائنين، وبدأ القتال واشتد الحصار، حتى أسلم نعيم بن مسعود أحد زعماء غطفان، فخذل عن المسلمين، حتى فرق بين قريش وحلفائها، وبين بني قريظة، وأوقع في نفوس كل من الفريقين الشك في الآخر، وأرسل الله على الأحزاب ريحًا شديدة، فجعلت تكفئ قدورهم وتمزق خيامهم، فامتلأت نفوس الأحزاب بالرعب ورحلوا . وتوجه المسلمون إلى ديار بني قريظة ، وفرض المسلمون الحصار على بني قريظة، فلما ضاق بهم الأمر نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فحكم فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس، فحكم سعد بأن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبى ذراريهم، وأن تقسم أموالهم[١] .

---

(١) انظر في تفاصيل هذه الغزوة : الواقدي ٣٦٢، ابن هشام ٣: ٢٢٦، ابن سعد ٢ / ١: ٤٧، الطبري ٣: ٤٣، والبلاذري : أنساب الأشراف ١/ ١٦٥، ابن سيد الناس ٢/ ٥٤، ابن القيم : زاد المعاد ٢: ٢٨٨،المقريزي: ٢١٥ ، وانظر: مصطفى السباعي ٦٣ .

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول : تحرك التحالف اليهودي الوثني ضد الدولة الإسلامية

أولاً : دور اليهود في بناء هذا التحالف :

خرج وفد مِنْ الْيَهُودِ، يجوب الجزيرة العربية، لتكوين تحالف يهودي وثني للقضاء على الإسلام، والدولة الإسلامية واحتلال المدينة ونهب خيراتها، وكان على رأس هذا الوفد القيادات اليهودية الآتية :

١- سَلاّمُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ النّضْرِيّ.

٢- حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ النّضْرِيّ.

٣- كِنَانَةُ بْنُ أَبِي الْحَقِيقِ النّضْرِيّ.

٤- هَوْذَةُ بْنُ قَيْسٍ الْوَائِلِيّ.

٥- أَبُو عَمّارٍ الْوَائِلِيّ(١) .

٦- وَسَلَام بْنِ مِشْكَم(٢).

خَرَجُوا حَتّى قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ مَكّةَ ، فَدَعَوْهُمْ إلَى حَرْبِ رَسُولِ الله ﷺ وَقَالُوا : إنّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتّى نَسْتَأْصِلَهُ ، فَقَالَتْ لَهُمْ قُرَيْشٌ : يَا مَعْشَرَ يَهُودَ إنّكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوّلِ وَالْعِلْمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمّدٌ، أَفَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ ؟ قَالُوا : بَلْ دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْحَقّ. . !! فَهُمْ الّذِينَ أَنْزَلَ الله تَعَالَى فِيهِمْ] : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء](٣).

---

(١) ابن هشام ٢ / ٢١٤ .
(٢) ابن القيم: زاد المعاد ٣ / ٢٤٠ .
(٣) ابن هشام ٢ / ٢١٤ .

ثُمّ خَرَج الوفد اليهودي إِلَى غَطَفَانَ فَدَعَوْهُمْ فَاسْتَجَابُوا لَهُمْ ثُمّ طَاف الوفد فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ يَدْعُونَهُمْ إِلَى ذَلِكَ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ مَنْ اسْتَجَابَ[(١)] .

ونجح اليهود في تكوين أقوى تحالف ضد المسلمين .

ولم من ثم شرعوا في تنفيذ مخطط الإبادة للمسلمين .

وهو تحرك - دون أدنى شك - يكشف عن أكبر مؤامرة تحاك من حليف ضد حليفه، نرى في هذا المشهد كيف يتحول الفصيل إلى جماعة من البغاة، تعمل على شق الصف الداخلي، والتجسس على الدولة الإسلامية، والتخابر لصالح دولة العدو، والشروع في تأسيس تحالف سري غير شرعي مع قريش.

الأمر الذي ترفضه كل الشرائع والأعراف من سلوك هذا المنحى الأسود .

ثانيًا : تحرك جيش التحالف صوب الدولة الإسلامية:

خرجت جيوش الأحزاب وقد جمعت أمرها على إفناء المسلمين، وكان هذا الجيش يتألف من الفصائل الآتية :

١- جيش قريش، تحت قيادة أَبى سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ: (٤٠٠٠ جندي) .

٢- جيش غَطَفَانُ ، بقيادة عُيَيْنَة بْنُ حِصْنِ ، وفِيهم بَنِي فَزَارَةَ .

٣- جيش بَنِي مُرّةَ، بقيادة الْحَارِث بْنُ عَوْفِ (٤٠٠ جندي)، وهي من بني غطفان.

٤- جيش أَشْجَعَ ، بقيادة مسْعَر بْنُ رُخَيْلَةَ (٤٠٠ جندي)[(٢)].

٥- جيش بني أسد، بقيادة طليحة بن خويلد (٤٥٠٠ جندي).

٦- جيش بني سليم، بقيادة سفيان بن عبد شمس (٧٠٠ جندي)، وقد التحقوا بجيش التحالف في (مُرَّ الظهران).

ومن ثم تجاوز عددهم العشرة آلاف ، وكانت القيادة العامة لأبي سفيان .

إضافة إلى عدو داخلي في المدينة هو الفصيل اليهودي .

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٤٠ .

(٢) ابن هشام ٢ / ٢١٥ .

وتجمع فصائل جيش التحالف اليهودي الوثني بهذا الشكل وبهذا الحجم يشي بمدى الجهد الذي بذله الوفد اليهودي - في تحركاته التي جابت الجزيرة - بهدف إعداد جيش عملاق ينهي الوجود الإسلامي إلى غير رجعة .

إضافة إلى تلك الأطماع التي ظهرت وسال لعاب أصحابها، فالمدينة بالنسبة لأعراب الجزيرة صيد ثمين وغنيمة ضخمة، كما أن إفناء المسلمين هدف أسمى بالنسبة للوثنيين واليهود على حد سواء .

إنهم شرعوا - في حقيقة الأمر - نحو حرب قذرة، نجح اليهود فيها في الإيقاع بين بني العم وذوي الرحم (المسلمين المهاجرين والوثنيين القريشيين)، ونجح اليهود في تجميع أكبر قدر من المرتزقة والأعراب الذين لا هم لهم إلا السلب والنهب وقطع الطرق .

وإنه العار الذي لحق بالأمة اليهودية صاحبة الكتاب السماوي، لما تحالفت مع الوثنية ضد التوحيد، ومع الأعداء ضد أبناء الوطن .

المطلب الثاني : حفر الخندق :

أولاً: أهمية الشورى والأفكار المستحدثة في الحرب:

رُفعت إلى حضرة النبي ﷺ التقريرات الاستخباراتية، التي تفيد بتحرك جيوش التحالف صوب المدينة، فاسْتَشَارَ الصّحَابَةَ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ سَلْمَانُ الْفَارِسِيّ بِحَفْرِ خَنْدَقٍ يَحُولُ بَيْنَ الْعَدُوّ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ، وهي فكرة دفاعية أثبتت روعتها ونجاحها[١] .

فطفق الناس يهتفون بسلمان، فقال المهاجرون : سَلْمَانُ مِنّا ؛ وَقَالَتْ الأنصار : سَلْمَانُ مِنّا ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ سَلْمَانُ مِنّا أَهْلَ الْبَيْتِ[٢] .

وهو الدرس المعهود في علاقة القائد بجنوده، وسمته في إدارة الحرب من أولها إلى آخرها، وموقف الشورى هذه المرة، تمخض عن فائدة جديدة، ألا وهي ظهور الكفاءات والعبقريات في الجو الشوري، نعم ، هذه هي سمة البيئة الشورية في المعارك ؛ بيئة جاذبة للعقول، تحتضن أصحاب المواهب والأفكار .

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٤٠ . (٢) ابن هشام ٢ / ٢٢٤ .

ثانيا : القيادة المتواضعة وفقه الاستئذان

لما أصدر النبي ﷺ قراره بضَرَب الْخَنْدَق عَلَى الْمَدِينَةِ، عَمِلَ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ - بنفسه - تَرْغِيبًا لِلْمُسْلِمِينَ فِي الأَجْرِ، وتحميسًا لهم، وتواضعًا منه ﷺ فلا يليق بالقائد العظيم أن يجلس في رغد ولهو على الفراش اللين الدافئ من خلف جنوده الذي يتضاغون جوعًا ويرتعدون من البرد شمال المدينة حيث أعمال الحفر.

وَعَمِلَ الأبطال في أعمال حفر الخندق؛ فَدَأَبَ فِيهِ القائد وَدَأَبُوا. وَأَبْطَأَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَعَنْ الْمُسْلِمِينَ فِي عَمَلِهِمْ ذَلِكَ رِجَالٌ مِنْ الْمُنَافِقِينَ، وَجَعَلُوا يُوَرّونَ بِالضّعِيفِ مِنْ الْعَمَلِ، وَيَتَسَلّلُونَ إلَى أَهْلِيهِمْ - هربًا من أعمال الحفر - بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ وَلاَ إذْنٍ. وَجَعَلَ الرّجُلُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إذَا نَابَتْهُ النّائِبَةُ مِنْ الْحَاجَةِ الّتِي لاَ بُدّ لَهُ مِنْهَا، يَذْكُرُ ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ وَيَسْتَأْذِنُهُ فِي اللّحُوقِ بِحَاجَتِهِ فَيَأْذَنُ لَهُ - في رحمة وعفو - فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ رَجَعَ إلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنْ عَمَلِهِ رَغْبَةً فِي الْخَيْرِ وَاحْتِسَابًا لَهُ[١].

فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى فِي أُولَئِكَ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور][٢].

وفي هذا دلالة على أهمية الاستئذان إذا ما أراد الجندي الانصراف عن العمل الحربي لضرورة أو لحاجة. فلا يجوز له - شرعًا أوخُلقًا - أن يتحول عن العمل الجماعي إلى العمل الفردي -أي من المصلحة العامة إلى المصلحة الخاصة- إلا بموافقة صريحة من القائد.

ثالثا: أهمية الأشعار والأناشيد الحماسية:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ -رَضِيَ الله عَنْهُ- قَالَ:

كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي الْخَنْدَقِ وَهُمْ يَحْفِرُونَ وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ عَلَى أَكْتَادِنَا فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "اللهمَّ لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَةْ فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالأنصار"[٣].

---

(١) ابن هشام ٢ / ٢١٥ . (٢) ابن هشام ٢ / ٢١٦ .

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٧٨٩) .

وعن أنس قال:

خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ فَإِذَا الْمُهَاجِرُونَ وَالأنصار يَحْفِرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ لَهُمْ فَلَمَّا رَأَى مَا بِهِمْ مِنَ النَّصَبِ وَالْجُوعِ قَالَ اللهمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةْ .

فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةْ .

فَقَالُوا مُجِيبِينَ لَهُ نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا .

عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا.

فكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْقُلُ التُّرَابَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ حَتَّى أَغْمَرَ بَطْنَهُ أَوْ اغْبَرَّ بَطْنُهُ(١).

وكان من بين المجاهدين رجل من الْمُسْلِمِينَ يُقَالُ لَهُ جُعَيْلٌ. فسَمّاهُ رَسُولُ الله ﷺ عَمْرًا..

فطفق الصحابة يرددون مرارًا:

سَمّاهُ مِنْ بَعْدِ جُعَيْلٍ عَمْرَا... وَكَانَ لِلْبَائِسِ يَوْمًا ظَهْرَا

فَإِذَا مَرّوا " بِعَمْرٍو " قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " عَمْرًا ! ".

وَإِذَا مَرّوا " بِظَهْرٍ " قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " ظَهْرًا "(٢).

وعن الْبَرَاءَ قَالَ:

كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ يَنْقُلُ مَعَنَا التُّرَابَ وَلَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

والله لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا
وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا
[إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا] (٣)

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٧٩٥) .
(٢) ابن هشام ٢ / ٢١٧ .
(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٧٩٥) .

إِذَا أَرَادُوا فِـتْـنَـةً أَبَـيْـنَـا "[١]

وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ: أَبَيْنَا أَبَيْنَا[٢].

وَكَانَ شِعَارُ الجيش الإسلامي يَوْمَ الْخَنْدَقِ:

" حم، لاَ يُنْصَرُون "[٣].

وكان الجنود يرددونه من حين لآخر لرفع المعنويات والتحميس وشحذ الهمم.

ومثل هذه المواقف تدلل على قدرة القائد الكبيرة في الجمع بين الجد والترويح عن النفس، لاسيما في شدة الحصار وكربة الحرب.. وإنشاد الأناشيد والأشعار الجهادية في ثنايا المحن دائمًا تحقق عدة فوائد، أهمها:

(١) الترويح عن الجنود في شدة الضنك.

(٢) إلهاب مشاعر الجنود بشكل إيجابي نحو العقيدة والوطن.

(٣) تقوية الصلة بين الجنود وقادتهم، فضلاً عن الجنود وبعضهم.

رابعًا: الصبر على قلة الزاد:

الصبر على قلة الزاد، من الآداب المهمة التي ينبغي أن يتربى عليها جند الله؛ ليكون الصبر وقودًا لهم في ساح القتال حيث الجوع والمخمصة..

ولقد ضرب الصحابة أروع المثل في الصبر على قلة الزاد، " فكانوا يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفِّي مِنْ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْ الْقَوْمِ، وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الْحَلْقِ وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ !! "[٤].

قال جابر مشيرًا إلى أيام الخندق: " وَلَبِثْنَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لاَ نَذُوقُ ذَوَاقًا "[٥].

وقال واصفًا حال قائدهم ﷺ:

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٣٦٥).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٧٩٥).

(٣) ابن هشام ٢ / ٢٢٦.

(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٧٩١).

(٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٧٩٢).

"لَمَّا حُفِرَ الْخَنْدَقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا" [١].

لقد بلغ منه ﷺ الجوع مبلغًا عظيمًا، يوم الخندق، حتى ربط على بطنه ليقاوم الجوع، قال أبو طلحة: "شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين" [٢] !

خامسًا: بركات الجهاد:

عندما ينهمك الرجال في العمل الجهادي الخالص، سرعان ما يعايشون كرامات المجاهدين وبركات الجهاد، تلك البركات التي تجعل من القليل كثيرًا، وتجعل من طعام الواحد ما يكفي لمئات.

قَالَتْ بُنت بَشِيرِ بن سعد:

دَعَتْنِي أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ، فَأَعْطَتْنِي حَفْنَةً مِنْ تَمْرٍ فِي ثَوْبِي، ثُمَّ قَالَتْ أَيْ بُنَيَّةُ. اذْهَبِي إِلَى أَبِيك وَخَالِك عَبْدِ الله بْنِ رَوَاحَةَ بِغَدَائِهِمَا، قَالَتْ فَأَخَذْتهَا، فَانْطَلَقْت بِهَا، فَمَرَرْتُ بِرَسُولِ الله ﷺ وَأَنَا أَلْتَمِسُ أَبِي وَخَالِي، فَقَالَ: "تَعَالَيْ يَا بُنَيَّةُ مَا هَذَا مَعَك ؟" قالت: يَا رَسُولَ الله هَذَا تَمْرٌ بَعَثَتْنِي بِهِ أُمِّي إِلَى أَبِي بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ وَخَالِي عَبْدِ الله بْنِ رَوَاحَةَ يَتَغَدّيَانِهِ. قَالَ:

"هَاتِيهِ"، قَالَتْ: فَصَبَبْته فِي كَفّيْ رَسُولِ الله ﷺ فَمَا مَلأَتْهُمَا ! ثُمّ أَمَرَ بِثَوْبٍ فَبُسِطَ لَهُ، ثُمّ دَحَا بِالتّمْرِ عَلَيْهِ فَتَبَدّدَ فَوْقَ الثّوْبِ، ثُمّ قَالَ لإِنْسَانٍ عِنْدَهُ: "أَصْرُخْ فِي أَهْلِ الْخَنْدَقِ: أَنْ هَلُمّ إلَى الْغَدَاءِ !".. فَاجْتَمَعَ أَهْلُ الْخَنْدَقِ عَلَيْهِ فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْهُ! وَجَعَلَ يَزِيدُ [٣] ! حَتّى صَدَرَ أَهْلُ الْخَنْدَقِ عَنْهُ وَإِنّهُ لَيَسْقُطُ مِنْ أَطْرَافِ الثّوْبِ !! [٤].

سادسًا: القائد في خدمة جنوده:

قال جابر - رَضِيَ الله عَنْهُ: إِنَّا يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَحْفِرُ فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ فَجَاءُوا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: هَذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ فِي الْخَنْدَقِ. فَقَالَ ﷺ: "أَنَا نَازِلٌ".

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٧٩٣).
(٢) الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي ﷺ (٢٣٧١).
(٣) وهي معجزة من معجزاته، ومن دلائل نبوته ﷺ.
(٤) ابن هشام ٢ / ٢١٨.

ثُمَّ قَامَ وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ بِحَجَرٍ - وَلَبِثْنَا ثَلاثَةَ أَيَّام لاَ نَذُوقُ ذَوَاقًا- فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ الْمِعْوَلَ فَضَرَبَ فَعَادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ- أَوْ أَهْيَمَ- فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ائْذَنْ لِي إِلَى الْبَيْتِ. فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ! فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟

قَالَتْ: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ.

فَذَبَحَتْ الْعَنَاقَ، وَطَحَنَتْ الشَّعِيرَ، حَتَّى جَعَلْنَا اللَّحْمَ فِي الْبُرْمَةِ ثُمَّ جِئْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْعَجِينُ قَدْ انْكَسَرَ وَالْبُرْمَةُ بَيْنَ الأَثَافِيِّ قَدْ كَادَتْ أَنْ تَنْضَجَ، فَقُلْتُ: طُعَيِّمٌ لِي فَقُمْ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله وَرَجُلٌ أَوْ رَجُلاَنِ. قَالَ: "كَمْ هُوَ؟". فَذَكَرْتُ لَهُ. قَالَ: "كَثِيرٌ طَيِّبٌ". قَالَ: "قُلْ لَهَا لاَ تَنْزِعْ الْبُرْمَةَ وَلاَ الْخُبْزَ مِنْ التَّنُّورِ حَتَّى آتِيَ". فَقَالَ: "قُومُوا". فَقَامَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأنصار!! فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ قَالَ: وَيْحَكِ! جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصار وَمَنْ مَعَهُمْ..

قَالَتْ: هَلْ سَأَلَكَ؟

قال: نَعَمْ.

فلما أقبل رسول الله ﷺ بأهل الخندق

قَالَ: "ادْخُلُوا وَلاَ تَضَاغَطُوا".

[قَالَ جابر: فَجَلَسَ وَأَخْرَجْنَاهَا (يعني الشويهة) إِلَيْهِ. قَالَ فَبَرَّك وَسَمَّى الله][(١)].

فَجَعَلَ يَكْسِرُ الْخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهِ اللَّحْمَ وَيُخَمِّرُ الْبُرْمَةَ وَالتَّنُّورَ إِذَا أَخَذَ مِنْهُ وَيُقَرِّبُ إِلَى أَصْحَابِهِ، ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَلْ يَكْسِرُ الْخُبْزَ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا وَبَقِيَ بَقِيَّةٌ[(٢)] قَالَ: "كُلِي هَذَا، وَأَهْدِي فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ"[(٣)].

وفي هذا المشهد المعجز من رسول الله ﷺ، يلفت نظرنا أنه كان في خدمة جنوده في أول المشهد وآخره.

فكان في خدمتهم لما عَرَضَتْ عليهم كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ، فقال في تواضع جم: " أنا

(١) ابن هشام ٢ / ٢٢٨.

(٢) وهي معجزة من معجزاته، ومن دلائل نبوته ﷺ.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، بَاب غَزْوَةِ الأحزاب وَهِيَ الْخَنْدَقُ (٣٧٩٢).

نازل" ، وتحرك بمعوله الكريم صوب الكدية؛ لينسفها، وهو أقوى الرجال صلوات ربي وسلامه عليه .

وكان في خدمتهم في آخر المشهد، لما جاء جابر وقد أعد " طعيم" - على حد قوله - لرسول الله ﷺ، فكان من القائد أن أطعم جنوده بنفسه، ووقف يوزع الطعام عليهم بشخصه، حتى إذا ما أكلوا وشبعوا أكل هو!

إنها القيادة الرشيدة التي تهوى إليها الأفئدة بمثل هذه المواقف الكريمة، والأخلاق الحميدة، فما كان ليرضى رسول الله ﷺ أن يَطعم طعامًا قبل رجاله، وليس من أخلاقه أن يجلس إلى الموائد الشهية الفاخرة خلسة من وراء جنوده، أو أن يتميز عنهم في طعام أو شراب.

سابعا: أهمية التبشير بالنصر والفتوحات وقت المحن:

إن من أخلاقيات القيادة الإسلامية في ميادين القتال، التبشير بالنصر والتفاؤل بالظفر، والعمل الإعلامي الجاد المتواصل في بث روح الثقة في الله ومدده.

ففي مشهد الكدية التي عَرَضَتْ على الرجال، وَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَخَذَ الْمِعْوَلَ؛ ليحطم الصخرة التي أرهقت الجنود، قَالَ:

" تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " .

فَنَدَرَ ثُلُثُ الْحَجَرِ ! وَسَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ قَائِمٌ يَنْظُرُ! فَبَرَقَ مَعَ ضَرْبَةِ رَسُولِ الله ﷺ بَرْقَةٌ ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ، وَقَالَ:

"تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" .

فَنَدَرَ الثُّلُثُ الآخَرُ، فَبَرَقَتْ بَرْقَةٌ!! فَرَآهَا سَلْمَانُ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ وَقَالَ:

" تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " .

فَنَدَرَ الثُّلُثُ الْبَاقِي، وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ وَجَلَسَ .

قَالَ سَلْمَانُ: يَا رَسُولَ الله، رَأَيْتُكَ حِينَ ضَرَبْتَ مَا تَضْرِبُ ضَرْبَةً إِلاَّ كَانَتْ مَعَهَا بَرْقَةٌ!!

قَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ:

" يَا سَلْمَانُ، رَأَيْتَ ذَلِكَ ؟ " .

فَقَالَ: إِي وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ يَا رَسُولَ الله .

قَالَ: " فَإِنِّي حِينَ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الأُولَى رُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ كِسْرَى وَمَا حَوْلَهَا وَمَدَائِنُ كَثِيرَةٌ حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ " .

قَالَ لَهُ مَنْ حَضَرَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ يَا رَسُولَ الله : ادْعُ الله أَنْ يَفْتَحَهَا عَلَيْنَا وَيُغَنِّمَنَا دِيَارَهُمْ !!

فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ بِذَلِكَ .

قال: " ثُمَّ ضَرَبْتُ الضَّرْبَةَ الثَّانِيَةَ فَرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ قَيْصَرَ وَمَا حَوْلَهَا حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ " .

قَالُوا يَا رَسُولَ الله: ادْعُ الله أَنْ يَفْتَحَهَا عَلَيْنَا وَيُغَنِّمَنَا دِيَارَهُمْ .

فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ بِذَلِكَ .

" ثُمَّ ضَرَبْتُ الثَّالِثَةَ فَرُفِعَتْ لِي مَدَائِنُ الْحَبَشَةِ وَمَا حَوْلَهَا مِنْ الْقُرَى حَتَّى رَأَيْتُهَا بِعَيْنَيَّ " .

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: " دَعُوا الْحَبَشَةَ مَا وَدَعُوكُمْ وَاتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ "(١) .

المطلب الثالث: الحصار

أولاً: بداية الحصار:

لَمَّا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ الْخَنْدَقِ، أَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ حَتى نَزَلَتْ بِمُجْتَمَعِ الأَسْيَالِ مِنْ رُومَةَ، بَيْنَ الْجُرُفِ وَزَغَابَةَ فِي عَشْرَةِ آلافٍ، منهم بَنِي كِنَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ، وَأَقْبَلَتْ غَطَفَانُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، حَتّى نَزَلُوا بِذَنَبِ نَقْمَى، إِلَى جَانِبِ أُحُدٍ(٢) .

---

(١) سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب غزوة الترك والحبشة (٣١٢٥)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي، والصحيحة (٧٧٢)، صحيح الجامع الصغير (٣٣٨٤) .

(٢) ابن هشام ٢ / ٢١٩ .

فلما تقدموا، وكانت مفاجئة الخندق، قَالُوا - في ذهول : إنّ هَذِهِ مَكِيدَةٌ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَعْرِفُهَا(١).

وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ حَتّى جَعَلُوا ظُهُورَهُمْ إلَى سَلْعٍ، فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَضَرَبَ هُنَالِكَ عَسْكَرَهُ وَالْخَنْدَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَوْمِ(٢). وقد اَسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمّ مَكْتُومٍ. وَأَمَرَ بِالذّرَارِيّ وَالنّسَاءِ فَجُعِلُوا فِي الْآطَامِ(٣).

ثانيًا: حرب الرسائل:

أراد المشركون أن يشنوا حربًا نفسية برسالة توبيخية استفزازية. فأرسل أبوسفيان كتاباً لرسول الله ﷺ فيه:

"باسمك اللهم، فإني أحلف باللات والعزى. وأساف ونائلة وهبل، لقد سرت إليك في جمع وأنا أريد أن لا أعود إليك أبداً حتى أستأصلكم، فرأيتك قد كرهت لقاءنا واعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها، وإنما تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها، وما فعلت هذا إلا فراراً من سيوفنا ولقائنا، ولك مني يوم كيوم أحد".

فأرسل له رسول الله ﷺ جوابه فيه:

" بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى صخر بن حرب، فقد أتاني كتابك، وقديماً غرك بالله الغرور. أما ما ذكرت أنك سرت إلينا وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا، فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأسافاً ونائلة وهبل، حتى أذكرك ذلك يا سفيه بني غالب "(٤).

ثالثًا: تدارك الثغرات ومتابعتها:

وكان الرسول يختلف إلى ثلمة أو ثغرة في الخندق.

تقول عائشة - رضي الله عنها: وكان يذهب إلى تلك الثلمة، فإذا أخذه البرد جاء فأدفأته في حضني، فإذا دفئ خرج إلى تلك الثلمة ويقول: ما أخشى أن تؤتي

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٤٠ .
(٢) ابن هشام ٢ / ٢١٩ .
(٣) ابن هشام ٢ / ٢٢٠ .
(٤) الحلبي ٢/ ٦٢٨ .

المسلمون إلا منها، فبينما رسول الله ﷺ في حضني صار يقول: "ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثلمة الليلة"، فسمع صوت السلاح، فقال رسول الله ﷺ: "من هذا ؟". فقال سعد بن أبي وقاص: "سعد، يا رسول الله أتيتك أحرسك!".

فقال: "عليك هذه الثلمة فاحرسها".

ونام رسول الله ﷺ حتى غط، وقام في قبته يصلي ؛ لأنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة"[(١)].

ثم خرج من قبته، فقال: "هذه خيل المشركين تطيف بالخندق".

ثم نادى: "يا عباد بن بشر".

قال: لبيك .

قال: "هل معك أحد ؟".

قال: نعم أنا في نفر حول قبتك يا رسول الله.

وكان ألزم الناس لقبة رسول الله ﷺ يحرسها، فبعثه يطيف بالخندق، وأعلمه بأن خيل المشركين تطيف بهم[(٢)].

ولما استأخر المشركون الفتح، تَيَمَّمُوا مَكَانًا ضَيِّقًا مِنْ الْخَنْدَقِ، فَضَرَبُوا خَيْلَهُمْ فَاقْتَحَمَتْ مِنْهُ فَجَالَتْ بِهِمْ فِي السَّبْخَةِ بَيْنَ الْخَنْدَقِ وَسَلْعٍ، وَخَرَجَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ -رضي الله عنه- فِي نَفَرٍ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَتّى أَخَذُوا عَلَيْهِمْ الثّغْرَةَ الّتِي أَقْحَمُوا مِنْهَا خَيْلَهُمْ، فسدوا هذه الثغرة[(٣)].

رابعا: مبارزة علي بن أبي طالب عمرو بن ود ودرس في أخلاق المقاتل:

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدّ قَدْ قَاتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ حَتّى أَثْبَتَتْهُ الْجِرَاحَةُ فَلَمْ يَشْهَدْ يَوْمَ أُحُدٍ؛ فَلَمّا كَانَ يَوْمُ الْخَنْدَقِ خَرَجَ مُعْلِمًا لِيُرِيَ مَكَانَهُ فَلَمّا وَقَفَ هُوَ وَخَيْلُهُ قَالَ: مَنْ يُبَارِزُ ؟

فَبَرَزَ لَهُ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لَهُ يَا عَمْرُو: إنّك قَدْ كُنْت عَاهَدْت الله ألاّ

(١) الحلبي ٢/ ٦٢٨ . (٢) الحلبي ٢/ ٦٢٨ . (٣) ابن هشام ٢ / ٢٢٤ .

يَدْعُوك رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى إِحْدَى خَلَّتَيْنِ إلاّ أَخَذْتَهَا مِنْهُ.

قَالَ لَهُ: أَجَلْ.

قَالَ لَهُ عَلِيّ: فَإِنّي أَدْعُوك إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِهِ وَإِلَى الإسلام.

قَالَ: لاَ حَاجَةَ لِي بِذَلِكَ.

قَالَ: فَإِنّي أَدْعُوك إِلَى النّزَالِ.

فَقَالَ لَهُ: لِمَ يَا ابْنَ أَخِي ؟ فَوالله مَا أُحِبّ أَنْ أَقْتُلَك.

قَالَ لَهُ عَلِيّ: لَكِنّي والله أُحِبّ أَنْ أَقْتُلَك !!

فَحَمِيَ عَمْرٌو عِنْدَ ذَلِكَ فَاقْتَحَمَ عَنْ فَرَسِهِ فَعَقَرَهُ وَضَرَبَ وَجْهَهُ ثُمّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيّ فَتَنَازَلاَ وَتَجَاوَلاَ، فَقَتَلَهُ عَلِيّ - رَضِيَ الله عَنْهُ. وَخَرَجَتْ خَيْلُهُمْ مُنْهَزِمَةً حَتّى اقْتَحَمَتْ مِنْ الْخَنْدَقِ هَارِبَة(١).

وذكر ابن إسحاق أن المشركين بعثوا إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفة عمرو بعشرة آلاف، فقال رسول الله ﷺ:

"هو لكم ولا نأكل ثمن الموتى"(٢).

ولما أقبل علي - رضي الله عنه - بعد قتله لعمرو بن عبد ود على رسول الله ﷺ وهو متهلل، قال له عمر بن الخطاب -رضي الله عنه: هلا سلبته درعه، فإنه ليس في العرب درع خير منها؟ قال: إني حين ضربته استقبلني بسوءته فاستحييت يا ابن عمي أن أسلبه (٣).

وثمة عدة دروس نستخلصها من موقف مقتل عمرو بن ود أحد طغاة العرب في الجاهلية، ومن هذه الدروس:

- أن المقاتل المسلم هو داعية إلى الحق قبل أي اعتبار حربي، فقد بدأ بالحوار الدعوي مع خصمه الذي تحدى المسلمين بالمبارزة، وعرض عليه المقاتل المسلم أن يدخل في الإسلام قائلاً: " فَإِنّي أَدْعُوك إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِهِ وَإِلَى

(١) ابن هشام ٢ / ٢٢٤ . (٢) الحلبي ٢/ ٦٢٨ .

(٣) ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٢٠٥، السهيلي ٤/ ٣٧٩ ، الحلبي ٢/ ٦٢٨ .

الإسلام" . وهو أمر يؤكد على أن القتال في الإسلام ليس عبارة عن قتال من أجل السلب أو النهب إنما القتال في الإسلام يتسم برسالته الدعوية التي تعلي من قدر العقيدة والأخلاق على أي مصلحة عسكرية.

- وفي قول المقاتل المسلم لطاغية العرب: " فَإِنّي أَدْعُوك إِلَى النّزَالِ" ، دلالة على ما ينبغي أن يتصف به المقاتل المسلم من الشجاعة والرغبة والاستعداد في منزالة الطغاة في ساحة الحروب لتخليص البشرية منهم !

-أن حسن الأخلاق الحربية واحترام آدمية الأعداء لهي من أبرز صفات المقاتل المسلم الناجح، فنرى أن عليًا لما قتل عمرو بن ود وانكشفت عورته، قال علي بن أبي طالب -معللاً سبب عدم سلب عمرو- "إني حين ضربته استقبلني بسوءته فاستحييت يا ابن عمي أن أسلبه" . صور رائعة في احترام حقوق الإنسان المحارب، وفي سمو أخلاق الجنود الإسلاميين في ميادين القتال.

خامسًا: لا نأكل ثمن الموتى!

ولما حاول نوفل بن عبد الله - لعنه الله - اقتحام الخندق الذي صنعه المسلمون لتحصين المدينة من حصار التحالف الوثني - في غزوة الأحزاب - ومات مقتولاً في الخندق، عندما أصر على اقتحامه في فرقة من المشركين، سأل المشركون المسلمين جثته بمال يعطونه المسلمين، فأرسل المشركون إلى النبيﷺ: أن أرسل إلينا بجسده ونعطيك اثني عشر ألفاً[(١)] . فتعفف رسول الله ﷺ عن هذا المال الخبيث، ونهاهم عن ذلك وكرهه !! وقال: " ادْفَعُوا إِلَيْهِمْ جِيفَتَهُمْ فَإِنَّهُ خَبِيثُ الْجِيفَةِ خَبِيثُ الدِّيَةِ" [(٢)].

وفي رواية قال: " ولا نمنعكم أن تدفنوه، ولا أرب لنا في ديته" [(٣)]. فلم يقبل منهم شيئًا، وخلى بينهم وبينه.

وفي رواية: عن عكرمة أن نوفلاً تردى به فرسه يوم الخندق فقُتل فبعث أبوسفيان إلى النبي ﷺ بديته مائة من الإبل فأبى النبي ﷺ وقال: "خذوه فإنه

---

(١) الحلبي ٢/ ٦٢٨ .

(٢) مسند أحمد (٢٢٣٠)،(٢٤٤٢)، ابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٢٠٥ .

(٣) الحلبي ٢/ ٦٢٨ .

خبيث الدية خبيث الجثة "[١].

وفي رواية قال ﷺ: " هو لكم، لا نأكل ثمن الموتى "[٢].

وإنما كره هذا لئلا ينسب إلى المسلمين ما لا يليق بمكارم الأخلاق، فقد كان ﷺ يقول: "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[٣].

وبهذا الموقف يكون لرسول الله ﷺ السبق في تحريم أكل ثمن الجثث، وهو بذلك يظهر لأعدائه الجانب الأخلاقي الإسلامي في الحروب.

سادسًا: القتل الخطأ الذي لا دية فيه:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله -رَضِيَ الله عَنْهُ- قَالَ:

خَرَجَتْ طَلِيعَتَانِ لِرَسُولِ الله ﷺ مِنَ الْخَنْدَقِ لَيْلاً فَالْتَقَتَا تَحْتَ اللَّيْلِ وَلاَ يَشْعُرُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَيَظُنُّونَ أَنَّهُمُ الْعَدُوُّ. فَكَانَتْ بَيْنَهُمْ جِرَاحَاتٌ وَقَتْلَى. ثُمَّ تَنَادَوْا بِشِعَارِ الإسلام فَكَفَّ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ.

فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ:

" جِرَاحَاتُكُمْ فِي سَبِيلِ الله ، وَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ فَهُوَ شَهِيدٌ "[٤].

ولذلك يقول العلماء: إِذَا الْتَقَتْ السَّرِيَّتَانِ لَيْلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَكُل وَاحِدَةٍ تَرَى أَنَّ صَاحِبَتَهَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَاقْتَتَلُوا فَأَجْلَوْا عَنْ قَتْلَى ثُمَّ عَلِمُوا، فَلاَ شَيْءَ عَلَيْهِمْ مِنْ دِيَةٍ وَلاَ كَفَّارَةٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنَ السَّرِيَّتَيْنِ بَاشَرَتْ دَفْعًا مُبَاحًا، فَقَدْ قَصَدَتْ كُلُّ سَرِيَّةٍ إِلَى الأُخْرَى، وَإِنَّمَا قَتَلَتْهَا الأُخْرَى دَفْعًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَذَلِكَ دَفْعٌ مَأْمُورٌ بِهِ شَرْعًا فَلاَ يَكُونُ مُوجِبًا دِيَةً وَلاَ كَفَّارَةً[٥].

سابعًا: أهمية اللجوء إلى الله لفك الحصار:

فقد دَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الأَحْزَابِ فَقَالَ:

---

(١) ابن أبي شيبة (٣٦٨٢٤)، المتقي الهندي: كنز العمال (٣٠١٠٢).
(٢) البيهقي: دلائل النبوة (١٣٢٠).
(٣) السرخسي: شرح السير الكبير ١/ ٤٤٨.
(٤) السرخسي: شرح السير الكبير ١/ ١١٤.
(٥) السرخسي: شرح السير الكبير ١/ ١١٤.

"اللهمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الْحِسَابِ اهْزِمْ الأَحْزَابَ! اللهمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ" (١).

وكان يدعو قائلاً: "اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا" (٢).

وكان يقول: "اللهم ادفع عنا شرهم، وانصرنا عليهم، واغلبهم لا يغلبهم غيرك" (٣).

واللجوء إلى الله لفك الحصار هو في الأساس من ديدن جند الله، فهم يجلبون نصر الله بالقيام والتضرع إلى الله، ويدفعون خزيه بذلك كذلك.

ثامناً: أهمية الصلاة وقت الحرب:

فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ: " مَلأَ الله عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا كَمَا شَغَلُونَا عَنْ صَلاَةِ الْوُسْطَى حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ" (٤).

وقد جعل عُمَر بْنَ الْخَطَّابِ -رَضِيَ الله عَنْهُ- يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَ مَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ جَعَلَ يَسُبُّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ وَقَالَ: يَا رَسُولَ الله مَا كِدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرُبَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "والله مَا صَلَّيْتُهَا !!".

قال جَابِر بْنِ عَبْدِ الله: فَنَزَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ بُطْحَانَ فَتَوَضَّأَ لِلصَّلاَةِ وَتَوَضَّأْنَا لَهَا فَصَلَّى الْعَصْرَ بَعْدَمَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهَا الْمَغْرِبَ(٥).

المطلب الرابع: قريظة تخون الدولة الإسلامية:

أولاً: حركة حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ:

خَرَجَ عَدُوّ الله حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ النَّضْرِيّ، حَتّى أَتَى كَعْبَ بْنَ أَسَدِ الْقُرَظِيّ، زعيم بني قريظة، وصَاحِبَ عَقْدِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَعَهْدِهِمْ مع الدولة الإسلامية. فَلَمّا سَمِعَ كَعْبٌ بِحُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ أَغْلَقَ دُونَهُ بَابَ حِصْنِهِ فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فَأَبَى أَنْ يَفْتَحَ لَهُ فَنَادَاهُ حُيَيّ: وَيْحَك يَا كَعْبُ افْتَحْ لِي !!

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٠٦).

(٢) مسند أحمد (١٠٥٧٣). (٣) الحلبي ٢/ ٦٢٨.

(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٠٢).

(٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٠٣).

قَالَ: وَيْحك يَا حُيَيّ! إنّك امْرُؤٌ مَشْئُومٌ، وَإنّي قَدْ عَاهَدْت مُحَمّدًا، فَلَسْتُ بِنَاقِضٍ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَمْ أَرَ مِنْهُ إلاّ وَفَاءً وَصِدْقًا!

قَالَ: وَيْحَك افْتَحْ لِي أُكَلّمْك.

قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ.

قَالَ: والله إنْ أَغْلَقْت دُونِي إلاّ عَنْ جَشِيشَتِك. وَيْحَك يَا كَعْبُ جِئْتُك بِعِزّ الدّهْرِ، وَبِبَحْرٍ طَامّ، جِئْتُك بِقُرَيْشٍ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا، حَتّى أَنْزَلْتهمْ بِمُجْتَمَعِ الْأَسْيَالِ مِنْ رُومَةَ، وَبِغَطَفَانَ عَلَى قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا حَتّى أَنْزَلْتُهُمْ بِذَنَبِ نَقْمَى إلَى جَانِبِ أُحُدٍ، قَدْ عَاهَدُونِي وَعَاقَدُونِي عَلَى أَنْ لاَ يَبْرَحُوا حَتّى نَسْتَأْصِلَ مُحَمّدًا وَمَنْ مَعَهُ.

فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ: جِئْتنِي والله بِذُلّ الدّهْرِ وَبِجَهَامٍ قَدْ هَرَاقَ مَاءَهُ فَهُوَ يَرْعَدُ وَيَبْرُقُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ! وَيْحَك يَا حُيَيّ! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَإِنّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمّدٍ إلاّ صِدْقًا وَوَفَاءً.

فَلَمْ يَزَلْ حُيَيّ بِكَعْبٍ يَفْتِلُهُ فِي الذّرْوَةِ وَالْغَارِبِ حَتّى سَمَحَ لَهُ عَلَى أَنْ أَعْطَاهُ عَهْدًا وَمِيثَاقًا: لَئِنْ رَجَعَتْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ، وَلَمْ يُصِيبُوا مُحَمّدًا أَنْ أَدْخُلَ مَعَك فِي حِصْنِك حَتّى يُصِيبَنِي مَا أَصَابَك.. فَنَقَضَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ عَهْدَهُ وَبَرِئَ مِمّا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ الله ﷺ[1].

ثانيا: أخلاقيات الدبلوماسية الإسلامية وقت الأزمات:

لَمّا انْتَهَى إلَى رَسُولِ الله ﷺ خبر نقض العهد من قريظة، بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ وفدًا دبلوماسيًّا إلى ديار بني قريظة لتحري الخبر، ولتجديد العهد، ولتحذيرهم من مغبة نقض العهد أوالتعاون مع العدو المحتل، وكان على رأس هذا الوفد المبارك القيادات الإسلامية الآتية:

١- سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ، سَيّدُ الْأَوْسِ.

٢- سَعْدُ بْنَ عُبَادَةَ، سَيّدُ الْخَزْرَجِ.

٣- عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ، الشاعر الإسلامي المعروف.

(١) ابن هشام ٢ / ٢٢٠.

٤- خَوّاتُ بْنُ جُبَيْرٍ، من بَني عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ.

فَقَالَ لهم رسول الله ﷺ: " انْطَلِقُوا حَتّى تَنْظُرُوا، أَحَقٌ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ أَمْ لاَ ؟ فَإِنْ كَانَ حَقًا فَالْحَنُوا لِي لَحْنًا أَعْرِفُهُ، وَلاَ تَفُتّوا فِي أَعْضَادِ النّاسِ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الْوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنّاسِ "[1].

فَخَرَجُوا حَتّى أَتَوْهُمْ فَوَجَدُوهُمْ عَلَى أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ عَنْهُمْ، ورفع الوفد الإسلامي إلى القائد العام ﷺ التقرير التالي:

١-نَالُوا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، فسبوه علنًا أمام عناصر الوفد الإسلامي.

٢-نقضوا العهد، بل وأنكروه، وَقَالُوا: مَنْ رَسُولُ الله ؟ لاَ عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمّدٍ وَلاَ عَقْدَ.

فَشَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَشَاتَمُوهُ وَكَانَ رَجُلاً فِيهِ حِدّةٌ فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: دَعْ عَنْك مُشَاتَمَتَهُمْ فَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَرْبَى مِنْ الْمُشَاتَمَةِ.

ثُمّ أَقْبَلَ سَعْدٌ وَسَعْدٌ وَمَنْ مَعَهُمَا، إلَى رَسُولِ الله ﷺ فَسَلّمُوا عَلَيْهِ ثُمّ قَالُوا: عَضَلٌ وَالْقَارّةُ ؛ أَيْ كَغَدْرِ عَضَلٍ وَالْقَارّةِ بِأَصْحَابِ الرّجِيعِ، خُبَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

" اللّهُ أَكْبَرُ أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ "!![2].

ثالثًا: اهمية الجوائز والنياشين:

وطفق الرسول يتابع أخبار بني قريظة من حين إلى آخر بعدما نقضوا العهد، فلا يأمن أن ينقضوا على ضعفاء المسلمين أو أن يعملوا النهب والسلب في المدينة، من خلف المسلمين، وقد عهدهم أهل غدر وخيانة.

فأرسل الزبير يخبره بخبرهم.

وقد قَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ: "مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟ "، يقصد قريظة، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا ثُمَّ قَالَ: "مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟ ". فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا. ثُمَّ قَالَ: " مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ ؟ ". فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا.

---

(١) ابن هشام ٢ / ٢٢١ .

(٢) ابن هشام ٢ / ٢٢١ .

ثُمَّ قَالَ: " إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيَّ وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ " (١).

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ:

كُنْتُ يَوْمَ الأَحْزَابِ جُعِلْتُ أَنَا وَعُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ فِي النِّسَاءِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا بِالزُّبَيْرِ عَلَى فَرَسِهِ يَخْتَلِفُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا فَلَمَّا رَجَعْتُ قُلْتُ: يَا أَبَتِ رَأَيْتُكَ تَخْتَلِفُ. قَالَ: أَوَهَلْ رَأَيْتَنِي يَا بُنَيَّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: قال رَسُولُ الله ﷺ:

" مَنْ يَأْتِ بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ ؟ ".

فَانْطَلَقْتُ فَلَمَّا رَجَعْتُ جَمَعَ لِي رَسُولُ الله ﷺ أَبَوَيْهِ فَقَالَ: " فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي " (٢) !

رابعا: خطورة انتشار الخوف والنفاق:

هكذا استقبل القائد خبر الخيانة والمحنة بالثبات والمحنة، ليكون قدوة وأسوة في رفع الهمم وتقوية روح المؤمنين.

لكن سرعان ما انتشر الخبر.

وَعَظُمَ عِنْدَ ذَلِكَ الْبَلاَءُ، وَاشْتَدَّ الْخَوْفُ، وَأَتَاهُمْ عَدُوّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ - حيث جيوش التحالف، وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ - حيث اليهود الذين خانوا - حَتّى ظَنّ الْمُؤْمِنُونَ كُلّ ظَنّ، وَنَجَمَ النّفَاقُ مِنْ بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ، حَتّى قَالَ أحدهم: كَانَ مُحَمّدٌ يَعِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَأَحَدُنَا الْيَوْمَ لاَ يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ إلَى الْغَائِطِ (٣).

وَحَتّى قَالَ أَوْسُ بْنُ قَيْظِيّ المنافق: يَا رَسُولَ الله إنّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ مِنْ الْعَدُوّ - وَذَلِكَ عَنْ مَلأٍ مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ- فَأْذَنْ لَنَا أَنْ نَخْرُجَ فَنَرْجِعَ إلَى دَارِنَا، فَإِنّهَا خَارِجٌ مِنْ الْمَدِينَةِ، وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارًا (٤).

ويتكفل القرآن الكريم بتصوير حال الدولة الإسلامية من خصومها بكل دقة، فيقول الله تعالى:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٠٤).
(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٤٤٢).
(٣) ابن هشام ٢ / ٢٢٢. (٤) ابن هشام ٢ / ٢٢٢.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ⑩ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ⑪ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ⑫ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ⑬ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ⑭ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ⑮ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ⑯ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ⑰ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ⑱ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ⑲ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ⑳﴾ [الأحزاب].

خامسًا: محاولة النبي ﷺ تخفيف حدة الحصار بعقد صلح مع غطفان:

فَلَمّا اشْتَدّ عَلَى الدولة الحصار والْبَلاَءُ بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ إلَى عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ، وَإِلَى الْحَارِثِ بْنِ عَوْفٍ، وَهُمَا قَائِدَا غَطَفَانَ، فتفاوض معهما على عودة غطفان إلى ديارها وترك حصار المدينة والتخذيل بين جيوش التحالف، مقابل أن يمنحه رسول الله ﷺ ثُلُثَ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ، فَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا الصّلْحُ، وأحضرت الصحيفة والدواة ليكتب عثمان بن عفان رضي الله عنه الصلح[1]، وَلَمْ تَقَعْ الشّهَادَةُ وَلاَ عَزِيمَةُ الصّلْحِ، إلاّ الْمُرَاوَضَةُ فِي ذَلِكَ. فَلَمّا أَرَادَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَفْعَلَ بَعَثَ إلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُمَا، وَاسْتَشَارَهُمَا فِيهِ[2].

فَقَالاَ لَهُ: يَا رَسُولَ الله، أَمْرًا نُحِبّهُ فَنَصْنَعُهُ؟ أَمْ شَيْئًا أَمَرَك الله بِهِ لاَ بُدّ لَنَا مِنْ الْعَمَلِ بِهِ؟ أَمْ شَيْئًا تَصْنَعُهُ لَنَا؟

قَالَ: "بَلْ شَيْءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ، والله مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إلاّ لِأَنّنِي رَأَيْت الْعَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلّ جَانِبٍ، فَأَرَدْت أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ

---

(١) الحلبي ٢/ ٦٢٨.

(٢) ابن هشام ٢ / ٢٢٣.

شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَا" .

فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلاَءِ الْقَوْمُ عَلَى الشِّرْكِ بِاَللّهِ وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ لاَ نَعْبُدُ الله وَلاَ نَعْرِفُهُ، وَهُمْ لاَ يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً إِلاّ قِرًى أَوْ بَيْعًا، أَفَحِينَ أَكْرَمْنَا الله بِالإسلام وَهَدَانَا لَهُ وَأَعَزّنَا بِك وَبِهِ، نُعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا؟! والله، مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ، والله لاَ نُعْطِيهِمْ إلاّ السّيْفَ، حَتّى يَحْكُمَ الله بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ !!

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " فَأَنْتَ وَذَاكَ " .

فَتَنَاوَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الوثيقة فَمَحَا مَا فِيهَا مِنْ الْكِتَابِ، ثُمّ قَالَ: لِيَجْهَدُوا عَلَيْنَا[١] .

المطلب الخامس: "الحرب خدعة"[٢]

أولاً: حركة (نُعَيْمٍ) في تفريق جيش التحالف:

في ظل هذه الظروف الشديدة القاسية، يأتي الرزق والنصر من حيث لا يحتسب المتقون .

فقد أسلم نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودٍ أحد زعماء غَطَفَانَ !!

كانوا بالأمس يفاوضهم رسول الله ﷺ على الرجوع إلى ديارهم فيرفضون إلا الرجوع بنصف ثمار المدينة!

والآن ساقهم الله إلى القائد الإسلامي من غير عناء ولا تفاوض ولا كلفة .

فأَتَى نُعَيْم رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ:

يَا رَسُولَ الله إنّي قَدْ أَسْلَمْت، وَإِنّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلاَمِي، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ!

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

" إنّمَا أَنْت فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذّلْ عَنّا إنْ اسْتَطَعْت، فَإِنّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ " .

فَخَرَجَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ لَهُمْ نَدِيمًا فِي الْجَاهِلِيّةِ

(١) ابن هشام ٢ / ٢٢٣ . (٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة (٢٨٠٥) .

فَقَالَ: يَا بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ عَرَفْتُمْ وُدّي إِيّاكُمْ وَخَاصّةً مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.

قَالُوا: صَدَقْت، لَسْت عِنْدَنَا بِمُتّهَمٍ.

فَقَالَ لَهُمْ: إِنّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ لَيْسُوا كَأَنْتُمْ، الْبَلَدُ بَلَدُكُمْ فِيهِ أَمْوَالُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ تَحَوّلُوا مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَإِنّ قُرَيْشًا وَغَطَفَانَ قَدْ جَاءُوا لِحَرْبِ مُحَمّدٍ وَأَصْحَابِهِ وَقَدْ ظَاهَرْتُمُوهُمْ عَلَيْهِ وَبَلَدُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ بِغَيْرِهِ فَلَيْسُوا كَأَنْتُمْ فَإِنْ رَأَوْا نُهْزَةً أَصَابُوهَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ لَحِقُوا بِبِلاَدِهِمْ وَخَلّوْا بَيْنَكُمْ وبين محمد. فَلاَ تُقَاتِلُوا مَعَ الْقَوْمِ حَتّى تَأْخُذُوا مِنْهُمْ رَهْنًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ يَكُونُونَ بِأَيْدِيكُمْ ثِقَةً لَكُمْ، عَلَى أَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُمْ مُحَمّدًا حَتّى تُنَاجِزُوهُ.

فَقَالُوا لَهُ: لَقَدْ أَشَرْت بِالرّأْيِ.

ثُمّ خَرَجَ حَتّى أَتَى قُرَيْشًا، فَقَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ: قَدْ عَرَفْتُمْ وُدّي لَكُمْ وَفِرَاقِي مُحَمّدًا، وَإِنّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَمْرٌ قَدْ رَأَيْت عَلَيّ حَقّا أَنْ أُبَلّغَكُمُوهُ نُصْحًا لَكُمْ فَاكْتُمُوا عَنّي.

فَقَالُوا: نَفْعَلُ.

قَالَ تَعْلَمُوا أَنّ مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مُحَمّدٍ، وَقَدْ أَرْسَلُوا إلَيْهِ إنّا قَدْ نَدِمْنَا عَلَى مَا فَعَلْنَا، ، فَهَلْ يُرْضِيك أَنْ نَأْخُذَ لَك مِنْ الْقَبِيلَتَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَطَفَانَ رِجَالاً مِنْ أَشْرَافِهِمْ فَنُعْطِيكَهُمْ فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ ثُمّ نَكُونُ مَعَك عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ حَتّى نَسْتَأْصِلَهُمْ ؟ فَأَرْسَلَ إلَيْهِمْ أَنْ نَعَمْ. فَإِنْ بَعَثَتْ إلَيْكُمْ يَهُودُ يَلْتَمِسُونَ مِنْكُمْ رَهْنًا مِنْ رِجَالِكُمْ فَلاَ تَدْفَعُوا إلَيْهِمْ مِنْكُمْ رَجُلاً وَاحِدًا.

ثُمّ خَرَجَ حَتّى أَتَى غَطَفَانَ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ غَطَفَانَ، إنّكُمْ أَصْلِي وَعَشِيرَتِي، وَأَحَبّ النّاسِ إلَيّ وَلاَ أَرَاكُمْ تَتّهِمُونِي.

قَالُوا: صَدَقْت، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتّهَمٍ.

قَالَ: فَاكْتُمُوا عَنّي ؛ قَالُوا: نَفْعَلُ فَمَا أَمْرُك ؟

ثُمّ قَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ لِقُرَيْشٍ وَحَذّرَهُمْ مَا حَذّرَهُمْ[1].

---

(١) ابن هشام ٢ / ٢٢٨ .

فانخذلت جيوش التحالف، ودبت الفرقة والشكوك بينهم.

فضعفت جيوش التحالف.

وبعث الله الريح والملائكة عليهم فزاد ضعفهم، وزادت رغبتهم في الرحيل.

وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ⑨﴾[الأحزاب].

ثانيا: تحزي انصراف الأحزاب:

فَلَمّا انْتَهَى إلَى رَسُولِ الله ﷺ مَا اخْتَلَفَ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَا فَرّقَ الله مِنْ جَمَاعَتِهِمْ دَعَا حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، فَبَعَثَهُ إلَيْهِمْ لِيَنْظُرَ مَا فَعَلَ الْقَوْمُ لَيْلاً. فما قام أحد!!

قَالَ حُذَيْفَةُ: والله لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بِالْخَنْدَقِ وَصَلّى رَسُولُ الله ﷺ هُوِيّا مِنْ اللّيْلِ ثُمّ الْتَفَتَ إلَيْنَا فَقَالَ: "مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمّ يَرْجِعُ، أَسْأَلُ الله تَعَالَى أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنّةِ؟". فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ، مِنْ شِدّةِ الْخَوْفِ وَشِدّةِ الْجُوعِ وَشِدّةِ الْبَرْدِ!

فَلَمّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ، دَعَانِي رَسُولُ الله ﷺ فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدّ مِنْ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي؛ فَقَالَ:

"يَا حُذَيْفَةُ اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ، فَانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ وَلاَ تُحْدِثَنّ شَيْئًا حَتّى تَأْتِيَنَا".

قَالَ: فَذَهَبْت فَدَخَلْت فِي الْقَوْمِ وَالرّيحُ وَجُنُودُ الله تَفْعَلُ بِهِمْ مَا تَفْعَلُ لاَ تُقِرّ لَهُمْ قِدْرًا وَلاَ نَارًا وَلاَ بِنَاءَ. فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ: لِيَنْظُرْ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ فَأَخَذْت بِيَدِ الرّجُلِ الّذِي كَانَ إلَى جَنْبِي، فَقُلْت: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ!

ثُمّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنّكُمْ والله مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ وَالْخُفّ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَلَغَنَا عَنْهُمْ الّذِي نَكْرَهُ وَلَقِينَا مِنْ شِدّةِ الرّيحِ مَا تَرَوْنَ مَا تَطْمَئِنّ لَنَا قِدْرٌ وَلاَ تَقُومُ لَنَا نَارٌ وَلاَ يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا فَإِنّي مُرْتَحِلٌ، ثُمّ قَامَ إلَى جَمَلِهِ وَهُوَ مَعْقُولٌ فَجَلَسَ عَلَيْهِ ثُمّ ضَرَبَهُ فَوَثَبَ بِهِ عَلَى ثَلاَثٍ،

فَوالله مَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إلاّ وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْلاَ عَهْدُ رَسُولِ الله ﷺ إلَيّ " أَنْ لاَ تُحْدِثَ شَيْئًا حَتّى تَأْتِيَنِي " لَقَتَلْته بِسَهْمٍ.

ورَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مَرَاجِلُ. فَلَمّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إلَى رِجْلَيْهِ وَطَرَحَ عَلَيّ طَرَفَ الْمِرْطِ ثُمّ رَكَعَ وَسَجَدَ وَإِنّي لِفِيهِ فَلَمّا سَلّمَ أَخْبَرْته الْخَبَرَ، وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ، فَانْشَمَرُوا رَاجِعِينَ إلَى بِلَادِهِمْ [١].

ثالثًا: إعلان بداية الحرب الاستباقية:

فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ قَالَ:

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حينَ أَجْلَى الْأَحْزَابَ عَنْهُ: " الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلاَ يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِم " [٢].

المطلب السادس: شكر الله على جلاء الاحتلال والحصار:

لما أكثر القائد العام ﷺ من الدعاء والابتهال والتضرع إلى الله. أتاه جبريل عليه السلام فبشره أن الله يرسل عليهم ريحاً وجنوداً، وأعلم رسول الله ﷺ أصحابه بذلك وصار يرفع يديه قائلاً:

" شكراً ! شكراً !! " [٣].

فلما أكرم الله المسلمين بجلاء الأحزاب، أخذ رسول الله يردد مرارًا:

" لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ أَعَزَّ جُنْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَغَلَبَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ فَلاَ شَيْءَ بَعْدَهُ" [٤].

المطلب السابع: عناية القائد بالجرحى والمصابين:

فقد أشرف النَّبِيُّ ﷺ بنفسه على متابعة الحالة الصحية، لجرحى المعركة، فكَوَى سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ -رَضِيَ الله عَنْهُ- بِمِشْقَصٍ حِينَ رُمِيَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَقُطِعَ

---

(١) ابن هشام ٢ / ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٢، مسند أحمد (٢٣٣٨٢).
(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٠١).
(٣) الحلبي ٢/ ٦٢٨.
(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٣٨٠٥).

أَكْحَلَهُ[١].

ودَعَا سعد وَقَالَ: اللهمَّ إنْ كُنت أَبقَيْت مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لِذَلِكَ، فَلاَ شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِتَالِ قَوْمٍ أَخرَجُوا رَسُولَك مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، وَإِنْ لَمْ تُبْقِ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَاجْعَلْ هَذَا سَبَبَ شَهَادَتِي، وَلاَ تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي فِي بَنِي قُرَيْظَة.

فَلَمَّا دَعَا بِذَلِكَ رَقَأَ الدَّمُ.

وَإِنَّمَا تَكَلَّمَ بِهَذَا الدُّعَاءِ؛ للخيانة التي بدرت منهم في أحلك الظروف والحصار. ونقضهم العهد، وعمالتهم الصريحة للمحتل الغاصب[٢].

وَرُوِيَ أَنَّ النبي ﷺ كَوَى أَسْعَدَ بْنَ زُرَارَةَ -رَضِيَ الله عَنْهُ[٣].

* * *

(١) السرخسي: شرح السير الكبير١ / ١٣٨.
(٢) السرخسي: شرح السير الكبير ٢ / ١٧١.
(٣) السرخسي: شرح السير الكبير ١ / ١٣٨.

المبحث الثالث

محاكمة بني قينقاع وإنزال العقاب بهم

الأربعاء ٧ من ذي القعدة ٥هـ[١]

المطلب الأول: نزول جبريل في شان قريظة:

لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْخَنْدَقِ وَوَضَعَ السِّلاحَ وَاغْتَسَلَ أَتَاهُ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ: قَدْ وَضَعْتَ السِّلاَحَ؟! والله مَا وَضَعْنَاهُ! فَاخْرُجْ إِلَيْهِمْ! قَالَ: " فَإِلَى أَيْنَ؟ " قَالَ: هَا هُنَا، وَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ[٢].

وقال: إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل بهم حصونهم. فدعا رسول الله ﷺ عليًا -رضي الله عنه- فدفع إليه لواءه وبعث بلالاً فنادى في الناس[٣].

فقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لهم :

" لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ". فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمْ الْعَصْرُ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لاَ نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ بَلْ نُصَلِّي لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ[٤].

المطلب الثاني: تحرك الجيش الإسلامي إلى قريظة:

قال أَنَسٍ -رَضِيَ الله عَنْهُ:

كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْغُبَارِ سَاطِعًا فِي زُقَاقِ بَنِي غَنْمٍ مَوْكِبَ جِبْرِيلَ -صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِ -حِينَ سَارَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ "[٥].

---

(١) ابن سعد ٢ / ٧٤ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم (٣٨٠٨) .

(٣) ابن سعد ٢ / ٧٤ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الجمعة، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبًا وإيماء (٨٩٤) .

(٥) صحيح البخاري ، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم (٣٨٠٨) (٣٨٠٩) .

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم و سار إليهم في المسلمين وهم ثلاثة آلاف، والخيل ستة وثلاثون فرسًا، فحاصرهم خمسة عشر يومًا أشد الحصار، ورموا بالنبل فانجحروا فلم يطلع منهم أحد، فلما اشتد عليهم الحصار أرسلوا إلى رسول الله ﷺ : أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر. فأرسله إليهم فشاوروه في أمرهم فأشار إليهم بيده أنه الذبح ثم ندم فاسترجع وقال: خنت الله ورسوله! فانصرف فارتبط في المسجد ولم يأت رسول الله ﷺ حتى أنزل الله توبته، ثم نزلوا على حكم رسول الله[١]. فوكل أمرهم إلى سعد بن معاذ حليفهم. وارتضت قريظة به حكما.

المطلب الثالث: توقير القيادات الإسلامية:

لَمَّا نَزَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ، بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ، فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ فَلَمَّا دَنَا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ". فَجَاءَ فَجَلَسَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ لَهُ: "إِنَّ هَؤُلاَءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ "[٢].

المطلب الرابع: الإعدام جزاء الخيانة العظمى:

قَالَ سعد: " فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ ".

قَالَ: " لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ "[٣].

قال عطية القرظي: عرضنا على رسول الله ﷺ يوم قريظة فكان من أنبت قُتل ومن لم ينبت خلى سبيله فكنت فيمن لم ينبت فخلى سبيلي[٤].

المطلب الخامس: عدم جواز قتل نساء العدو إلا من حاربت:

عن عائشة قالت: لم يقتل من نسائهم تعني بني قريظة إلا امرأة إنها لعندي تحدث تضحك ظهرًا وبطنًا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالهم بالسيوف إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة، قالت: أنا قلت وما شأنك؟ قالت: حدث أحدثته.

---

(١) ابن سعد ٢ / ٧٤ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل (٢٨١٦) .

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل (٢٨١٦) .

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الحدود، باب من لا يجب عليه الحد (٢٥٤١) وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه والمشكاة (٣٩٧٤) .

قالت: فانطلق بها فضربت عنقها فما أنسى عجبًا منها أنها تضحك ظهرا وبطنا وقد علمت أنها تقتل[١].

المطلب السادس: تحليل مهم حول القتل الجماعي لبني قريظة:

معروف لدى كتب التاريخ أن يهود قريظة كانوا فصيل من فصائل المدينة المنورة.

ومعروف أنه بمجرد قدوم النبي ﷺ المدينة عقد بينه وبين اليهود الموجودين بها معاهدة تنظم الشأن العام الداخلي والخارجي للمدينة. وكان من بنود هذه المعاهدة:

١- التزام كل أبناء المدينة بما فيهم المسلمين واليهود بالمعايشة السلمية فيما بينهما وعدم اعتداء أي فريق منهما على الآخر.

٢- الدفاع المشترك عن المدينة ضد أي اعتداء خارجي على المدينة.

وحدث في العام الخامس الهجري. أن مر المسلمون بظروف قاسية عندما تجمعت أكبر قوة معادية للمسلمين في ذلك الوقت للقضاء عليهم داخل المدينة، وأحاطت جيوش التحالف المشركة بالمدينة في عشرة آلاف مقاتل، من مشركي قريش وأشجع وغطفان وبني سليم وأسد وفزارة. على حين لم يزد عدد المسلمين على ثلاثة آلاف مقاتل، وكان المتوقع أن ينضم يهود بني قريظة إلى صفوف المسلمين ضد القوات المحتلة لحدود المدينة، بناء على نصوص المعاهدة المبرمة بين الفريقين. لكن الذي حدث هو عكس هذا، فقد فوجئ المسلمون ببني قريظة يخونونهم في أخطر أوقات محنتهم، ولم يرعوا للجوار حقاً، ولا للعهود حرمة، بل كانوا يسعون من وراء انضمامهم هذا إلى صفوف القوات الغازية التعجيل بالقضاء على المسلمين ودولتهم الناشئة!

لقد أحدثت هذه الخيانة زلزالاً عنيفًا في نفوس المسلمين، وجرحًا عميقًا في وجدانهم، لا سيما بعد إعلان قريظة - جهارًا نهارًا - الانضمام إلى صفوف الغزاة. لدرجة أن الرسول ﷺ حرص أول الأمر على كتمان الخبر على الشعب

(١) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء (٢٦٧١)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود.

لما كان يخشى من وقعه على نفوس الجنود. وبمجرد أن انتهى إلى سمعه ﷺ النبأ أرسل وفداً دبلوماسيًا مكوناً من القادة الأفاضل سعد بن معاذ (قائد الأوس)، وسعد بن عبادة (قائد الخزرج)، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير- رضوان الله تعالى عليهم - ليذّكروا القوم بما بينهم وبين المسلمين من عقود وعهود، ويحذرونهم مغبة ما هم مقدمون عليه، ولكن دون جدوى!

وبعد أن ولى المشركون المحتلون وحلفاؤهم الأدبار، يحملون معهم الهزيمة والإخفاق، وفشلت محاولاتهم لاقتحام المدينة المنيعة. رجع المقاتلون المسلمون إلى بيوتهم بالمدينة يستريحون من هذه الغمة، ويلتقطون أنفاسهم بعد فزع وقلق نفسي مريع دام شهرًا كاملاً.

ويبدو أن بعض الصحابة ظن أن الموضوع انتهى إلى ذلك الحد ! لكن أيترك الخائنون العملاء الناكثون للعهود دون محاسبة ؟ فنادى النبي ﷺ في المسلمين "ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة !"[(١)]، فسار الجيش الإسلامي إلى فصيل الفتنة والخيانة، وتبعهم النبي ﷺ - القائد العام - بعد أن استخلف على المدينة - نائبًا عنه - عبد الله بن أم مكتوم، وحاصر المسلمون بني قريظة شهراً تقريبًا، ولما طال عليهم الحصار. ورفض النبي ﷺ إلا أن يستسلموا دون قيد أو شرط، واستسلم بنو قريظة، ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فوكل ﷺ الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ - قائد الأوس . وفي اختيار سعد دلالة على حكمة النبي ﷺ وبُعد نظره، وإدراكه لنفسيات يهود قريظة؛ لأن سعدًا كان حليف بني قريظة في الجاهلية، وقد ارتاح اليهود لهذا الاختيار، وظنوا أن الرجل قد يحابيهم في حكمه، لكن سعداً نظر إلى الموقف من جميع جوانبه. وقدره تقدير من عاش أحداثه وظروفه.

وبعد أن أخذ سعد المواثيق على الطرفين أن يرضى كل منهما بحكمه. أعلن حكمه بالإعدام على الخونة، قائلاً: "فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ يُقْتَلَ الرِّجَالُ وَتُسْبَى الذّرِّيَّةُ وَتُقْسَمَ الأَمْوَالُ"، فقال رسول الله ﷺ مؤيدًا هذا الحكم: "لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الله مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ"[(٢)].

---

(١) انظر: ابن سيد الناس ٢/ ٥٠ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٣/ ١١٧، و ابن سيد الناس ٢/ ٥٤، وابن هشام ٢/ ٢٤٠ .

فسيقوا إلى خنادق في المدينة، فُقتل رجالهم وُسبي نساؤهم وذراريهم. ولاقى بنو قريظة هذا المصير على هذه الخيانة.

وهنا يحلو للبعض أن يتطاولوا على تصرف النبي ﷺ ومعاملته لبني قريظة، ويعتبروا أن الإعدام الجماعي الذي تم لهؤلاء الناس يتسم بالقسوة والوحشية والإجرام . . . إلخ.

ونرد على مثل هذه الآراء ونقول:

أولاً: ماذا لو أن نتيجة غزوة الأحزاب تمت حسبما كان يخطط لها بنو قريظة وأحزابهم؟ ألم تكن هي الإبادة التامة للمسلمين أجمعين. على أن اليهود لم يقدِموا على هذا العمل الخسيس إلا بعد أن تكون لديهم ما يشبه اليقين بأنهم- بمساعدة المشركين- سوف يقومون بتدمير الكيان الإسلامي تدميراً كاملاً، واستئصال شأفة المسلمين استئصالاً كليًّا - كما ورد في كتبهم إذا ظهروا على شعب من الشعوب - ولهذا لم يترددوا في الغدر بحلفائهم المسلمين وعلى تلك الصورة البشعة[١].

لقد جاء في سفر التثنية: "حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك وفتحت لك؛ فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك. بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك "[٢].

ويعلق "مولانا محمد علي"، على هذا النص بقوله: "وهكذا حكم سعد وفقًا للشريعة الموسوية بقتل ذكور بني قريظة وبسبي نسائهم وأطفالهم وبمصادرة ممتلكاتهم. ومهما بدت هذه العقوبة قاسية، فقد كانت على درجة الضبط للعقوبة التي كان اليهود ينزلونها- تبعاً لتشريع كتابهم- بالمغلوبين من أعدائهم، فأي

(١) انظر: جمعة علي الخولي: معاملة الرسول ﷺ لبني قريظة، والرد على ما يثار حولها من شبهات، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد ٥٧ .

(٢) سفر التثنية، الإصحاح العشرون ١٠: ١٨ .

اعتراض على قسوة هذه العقوبة هو في الواقع انتقاد لا شعوري للشريعة الموسوية، وتسليم بأن شريعة أكثر إنسانية يجب أن تحل محلها، وأيما مقارنة بالشريعة الإسلامية في هذا الصدد خليق بها أن تكشف- في وضوح بالغ- أي قانون رفيق عطوف رحيم قدمه الإسلام إلى الناس" (١).

ثانياً: أن اليهود - لا سيما يهود قريظة - لم يلقوا من المسلمين طيلة السنوات التي تلت المعاهدة إلا كل بر ووفاء، ومعاملة حسنة طيبة، كما شهدوا أنفسهم بذلك، فعندما ذهب حيي بن أخطب - أكبر زعماء اليهود - إلى كعب بن أسد القرظي زعيم قريظة يغريه بنقض العهد مع النبي ﷺ قال: " وَيْحَكَ يَا حُيَيّ !! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ إلاّ صِدْقًا وَوَفَاءً " (٢). لكنه لم يزل به حتى أقنعه بالخيانة ونقض العهد.

ثالثًا: أن قانون أي دولة الآن يحكم بالإعدام على من يخون وطنه ويقيم اتصالات مع العدو أو يتجسس لحسابه، و لو درس الذين يطعنون في حكم سعد على بني قريظة القوانين المعاصرة دراسة نافذة وطبقوها على قضية بني قريظة لرأوا أن قوانين العصر الحديث والدول المتقدمة لا تختلف في شيء عما أصدره سعد بن معاذ(٣).

فيهود قريظة خانوا العقد، وتآمروا وانضموا إلى أعداء الدولة الإسلامية وأوقعوا المسلمين بين شقي الرحى في المدينة مكتوين بنار المشركين من جهة واعتداء اليهود في ساعة المحنة من جهة ثانية فاقترفوا بذلك الغدر أربع جرائم:

أ - رفع السلاح ضد سلطان المدينة مع الأجنبي المعتدي المحتل.

ب- تسهيل دخول العدو للبلاد.

ج - التجسس لصالح تحالف المشركين.

د - دس الفتن والمشاركة في الحرب الإعلامية النفسية على الشعب المسلم.

---

(١) مولانا محمد علي: حياة محمد ورسالته ص ١٧٥.

(٢) السهيلي ٣/ ٤٢٢، ابن سيد الناس ٢/ ٣٨، وابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ١٠٣.

(٣) انظر: محمد رجب البيومي، مجلة الحج العدد ١٢ السنة ٨٨.

إذا هو (القصاص العادل)[١] الذي أصاب بني قريظة على خيانتهم.

ومعظم قوانين العقوبات العصرية تجعل الإعدام عقوبة كل جريمة من الجرائم الأربع، وتسمى أي جريمة من هذه الجرائم باسم الخيانة العظمى!

رابعًا: قد يقال: كان من الممكن أن يعامل النبي ﷺ يهود بني قريظة كما يعامل القائد المنتصر رجال جيش عدوه الذي انهزم أمامه واستسلم، أو يعاملهم كما عامل يهود بني النضير وبني قينقاع. والجواب على ذلك أن بني قريظة لم يكونوا أسرى حرب حتى يميل بهم إلى الشفقة، ولم يكونوا في حالة حرب مع المسلمين، وإنما كانوا جيرانا متحالفين يشكلون مع المسلمين وحدة وطنية ملزمة بالدفاع المشترك عن المدينة ضد أي عدوان، لكنهم ظهروا أخطر من الأعداء، إذ يبيتون لأناس يأمنونهم ويخصونهم بحقوق الجار، وواجبات الذمام، فكانوا بمثابة الخائن المتآمر المتواطئ مع العدو على أمته ووطنه في حالة الحرب القائمة وهذه خيانة عظمى ليس لها في جميع الشرائع إلا الإعدام السريع. وموقفهم هنا يختلف اختلافًا واضحًا عن موقف بني قينقاع وبني النضير، فالأولون قد أبدوا البغضاء من أفواههم وأشاعوا الرعب والشكوك ورأوا في الدعاية المغرضة سلاحًا لا يفل. وبنو النضير ائتمروا على قتل الرسول ﷺ، وتحالفوا مع بعض المنافقين على المناجزة دون أن تتيح لهم الفرصة طريقًا يصلون منه إلى التنفيذ، وهؤلاء وأولئك أهون خطبًا من الذين سلوا السيوف ووقفوا في صفوف العدو وأوقعوا الهلع في قلوب يحيط بها الروع من كل ناحية، فتعادل الكفتين بينهما طيش لا يقره إنصاف[٢].

* * *

(١) محمود شيت خطاب ٢٥٩.

(٢) انظر: جمعة علي الخولي: معاملة الرسول ﷺ لبني قريظة، والرد على ما يثار حولها من شبهات، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد ٥٧، وانظر: محمد رجب البيومي، مجلة الحج العدد ١٢ السنة٨٨.

الفصل الثامن
صلح الْحُدَيْبِيَةِ
ذو القعدة ٦ هـ - مارس ٦٢٨م

المبحث الأول
ملخص الأحداث

وكان من أمرها أن رسول الله ﷺ رأى في منامه أنه دخل البيت هو وصحابته آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون شيئًا، فأمر الناس أن يتجهزوا للخروج إلى مكة معتمرين، لا يريد حربًا لقريش ولا قتالاً، فخرج معه المهاجرون والأنصار يحدوهم الشوق إلى رؤية بيت الله الحرام بعد أن حرموا من ذلك ست سنوات، وخرج معهم من شاء من الأعراب، وخاف أكثرهم من خطورة الرحلة، وساق أمامه ﷺ الهدي وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة (آبار علي)، ليعلم العالم وقريش خاصة أنه لا يريد قتالاً، وسار حتى وصل إلى «عسفان» جاء من يخبره برفض قريش قدوم المسلمين إلى مكة للعمرة، فخرجوا وقد لبسوا جلود النمور يحلفون بالله لا يدخلها عليهم أبدا. فلما وصل الرسول الحديبية[1]، (الشميسي حاليًا على طريق جدة) وهناك أرسلت قريش مجموعة من رجالات العرب تستبين أمر المسلمين، وكان على رأس من أرسلتهم قريش: بديل بن ورقاء الخزاعي سيد خزاعة، مِكْرَز بْنَ حَفْصٍ، الْحُلَيْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ سيد الأحابيش، وعُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ سيد ثقيف، هؤلاء الزعماء من الطبيعي تواجدهم في مكة في هذا الوقت حيث موسم الحج.

و بعث الرسول ﷺ عثمان بن عفان إلى أهل مكة ليؤكد لهم الغرض من مجيء الرسول وصحابته، وأبطأ عثمان، فأشيع بين المسلمين أنه قد قتل، فدعا

(١) تبعد عن مكة بحوالي ٢٢ كيلو متر .

المسلمين إلى البيعة على الجهاد، والشهادة في سبيل الله، فبايعوه على الموت وعدم الفرار، ولما علمت قريش بأمر البيعة، خافوا ورأوا الصلح معه على أن يرجع هذا العام ويعود من قابل فيقيم ثلاثًا معه سلاح الراكب: الرماح والسيوف في أغمادها، وأرسلت قريش لذلك سهيل بن عمرو ليتم هذا الصلح، وأخيرا تم هذا الصلح، على ما رغبت قريش، وعلى وضع الحرب بين الفريقين عشر سنين، وأن من أتى من عند محمد إلى مكة لم يردوه، وأن من أتى محمدًا من مكة ردوه إليهم، فعز ذلك على المسلمين، وأخذ بعضهم يجادل النبي ﷺ فيما جاء من شروطها، ثم أمر الرسول ﷺ أصحابه بالتحلل من العمرة فلم يفعلوا ذلك في موجة من الألم، لما حيل بينهم وبين دخول مكة، ولما شق عليهم من شروط الصلح فبادر بنفسه، فتحلل من العمرة، فتبعه المسلمون جميعًا، وقد ظهرت فيما بعد فوائد هذه الشروط التي صعبت على المسلمين ورضي بها الرسول ﷺ، لبعد نظره ورجحان عقله، وإمداد الوحي له بالسداد في الرأي والعمل. هذا وقد سمى الله هذه الغزوة فتحًا مبينًا[1].

* * *

(١) انظر تفاصيل أحداث صلح الحديبية: ابن هشام: ٣/ ٣٢١، والواقدي ٣٨٣، ابن سعد ٢ / ١- ٦٩، الطبري ٣/ ٧١، البلاذري: أنساب الأشراف ١/ ١٦٩، ابن سيد الناس ٢/ ١١٣، ابن كثير ٤/ ١٦٤، ابن القيم: زاد المعاد ٢/ ٣٠١، المقريزي ٢٧٤،ابن حزم: جوامع السيرة ٢٠٧، ومصطفى السباعي ٦٨، ومحمد الغزالي ٢٤٧، وصفي الرحمن المباركفوري ٢٦٢، وعلي محمد الصلابي ٢/ ٢٦٨.

المبحث الثاني

آداب الحروب

المطلب الأول: أهمية الجانب الإعلامي المنضبط بضوابط الأخلاق:

اسْتَنْفَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْعَرَبَ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي مِنْ الأَعْرَابِ لِيَخْرُجُوا مَعَهُ وَهُوَ يَخْشَى مِنْ قُرَيْشٍ، أَنْ يَعْرِضُوا لَهُ بِحَرْبٍ أَوْ يَصُدّوهُ عَنْ الْبَيْتِ فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ الأَعْرَابِ، وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنصار وَمَنْ لَحِقَ بِهِ مِنْ الْعَرَبِ، ولم يخرج معه بسلاح إلا السيوف في القرب، وأخرج معه زوجته أم سلمة -رضي الله عنها -[١]، وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ لِيَأْمَنَ النّاسُ مِنْ حَرْبِهِ وَلِيَعْلَمَ النّاسُ أَنّهُ إنّمَا خَرَجَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ وَمُعَظّمًا لَهُ[٢].

وخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فِي ألف وخمسمائة مِنْ أَصْحَابِهِ[٣]، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ نُمَيْلَةُ بْنُ عَبْدِ الله اللّيْثِيّ[٤]. فَلَمَّا أَتَى النَّبِيُّ ذَا الْحُلَيْفَةِ (آبار علي)، قَلَّدَ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَهُ وَأَحْرَمَ مِنْهَا بِعُمْرَةٍ، وَبَعَثَ عَيْنًا لَهُ مِنْ خُزَاعَةَ، وَسَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى كَانَ بِغَدِيرِ الأَشْطَاطِ وراء عسفان، أَتَاهُ عَيْنُهُ قَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا وَقَدْ جَمَعُوا لَكَ الأَحَابِيشَ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنْ الْبَيْتِ، وَمَانِعُوكَ. فَقَالَ:

" أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ ! أَتَرَوْنَ أَنْ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَارِيِّ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنْ الْبَيْتِ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ، وَإِلاَّ تَرَكْنَاهُمْ مَحْرُوبِينَ ؟ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ الله، خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ، لاَ تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ وَلاَ حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهْ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ !

قَالَ: "امْضُوا عَلَى اسْمِ الله "[٥].

(١) ابن سعد ٢ / ٩٥ . (٢) ابن هشام ٢ / ٣٠٧ .
(٣) انظر : صحيح البخاري، كتاب المغازي ، باب غزوة الحديبية (٣٨٣٨) .
(٤) ابن هشام ٢ / ٣٠٧ .
(٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٨٦٠)، ابن القيم: زاد المعاد ٣ / ٢٥٧ .

وفي هذا الموقف نرى أن رسول الله ﷺ أعلن عن قصده أداء العمرة ليضع قريش في موقف محرج أمام العرب، وليقلل من هيبتها أمام العرب إعلاميًّا.

فقريش في حقيقة الأمر يصعب عليها أن تسمح للمسلمين أن يدخلوا مكة آمنين لأداء العمرة وقد فعلوا ما فعلوا في بدر بسادات مكة.

كما يصعب على قريش أيضًا أن تمنع من قصد البيت معظمًا له.

وبين السماح والمنع يتمهد الطريق لصلح أو معاهدة تمنح المسلمين انطلاقة عالمية ومرحلة دعوية رغيدة وغنية بالانتصارات.

المطلب الثاني: الطريق إلى الحديبية ورغبة جادة في الصلح:

خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِعُسْفَانَ لَقِيَهُ بِشْرُ بْنُ سُفْيَانَ الْكَعْبِيّ - فَقَالَ:

يَا رَسُولَ الله، هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ سَمِعْت بِمَسِيرِك، فَخَرَجُوا مَعَهُمْ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ النُّمُورِ وَقَدْ نَزَلُوا بِذِي طُوًى، يُعَاهِدُونَ الله لاَ تَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَهَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي خَيْلِهِمْ قَدْ قَدّمُوهَا إلَى كُرَاعِ الْغَمِيمِ.

قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

"يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ!! لَقَدْ أَكَلَتْهُمْ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ الّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي الله عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الإسلام وَافِرِينَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوّةٌ فَمَا تَظُنّ قُرَيْشٌ، فَوالله لاَ أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَى الّذِي بَعَثَنِي الله بِهِ حَتّى يُظْهِرَهُ الله أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السّالِفَةُ!".

ثُمّ قَالَ:

"مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمْ الّتِي هُمْ بِهَا؟"[1].

فقال رجل من المسلمين:

أَنَا يَا رَسُولَ الله.

فَسَلَكَ بِهِمْ طَرِيقًا وَعْرًا أَجْرَلَ بَيْنَ شِعَابٍ فَلَمّا خَرَجُوا مِنْهُ وَقَدْ شَقّ ذَلِكَ عَلَى

---

(١) ابن هشام ٢ / ٣٠٩.

الْمُسْلِمِينَ وَأَفْضَوْا إِلَى أَرْضٍ سَهْلَةٍ عِنْدَ مُنْقَطِعِ الْوَادِي، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِلنَّاسِ:

"قُولُوا نَسْتَغْفِرُ الله وَنَتُوبُ إِلَيْهِ".

فَقَالُوا ذَلِكَ.

فَقَالَ: "والله إِنَّهَا لَلْحِطَّةُ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمْ يَقُولُوهَا".

فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ فَقَالَ:

"اُسْلُكُوا ذَاتَ الْيَمِينِ بَيْنَ ظَهْرَيْ الْحَمْشِ، فِي طَرِيقٍ (تُخْرِجُهُ) عَلَى ثَنِيَّةِ الْمُرَارِ مَهْبِطِ الْحُدَيْبِيَةِ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ".

فَسَلَكَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الطَّرِيقَ فَلَمَّا رَأَتْ خَيْلُ قُرَيْشٍ قَتَرَةَ الْجَيْشِ قَدْ خَالَفُوا عَنْ طَرِيقِهِمْ رَجَعُوا رَاكِضِينَ إِلَى قُرَيْشٍ، وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى إِذَا سَلَكَ فِي ثَنِيَّةِ الْمُرَارِ بَرَكَتْ نَاقَتُهُ.

فَقَالَتْ النَّاسُ: حل حل ! خلأت القصواء ! خلأت القصواء !

قَالَ: "مَا خَلأَتْ وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ. لاَ تَدْعُونِي قُرَيْشٌ الْيَوْمَ إِلَى خُطَّةٍ يَسْأَلُونَنِي فِيهَا صِلَةَ الرَّحِمِ إِلاَّ أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا"[١].

وفي هذا المشهد نرى ونلمس رغبة جادة من القائد الإسلامي في مشروع اتفاقية صلح تضع على أثرها الحرب أوزارها.

وعن رغبته الأكيدة في الصلح لا يتنازل عن مبدأه الإصلاحي في نشر دعوة الخير ولو على حساب حياته، أكد ذلك أيضًا في جملة قوية شديدة: "فَوالله لاَ أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي الله بِهِ حَتَّى يُظْهِرَهُ الله أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ !".

المطلب الثالث: مناوشات سياسية وفقه التعامل مع رجالات العدو:

حدث أن قريشًا أرسلت عددًا من قيادات العرب إلى المسلمين لجس النبض تارة وللاستفزاز تارة أخرى ، فأرسلوا بديل بن ورقاء ومِكْرَزَ بْنَ حَفْصٍ

(١) ابن هشام ٢ / ٣٠٩، ابن سعد ٢ / ٩٦، والحلبي ٢/ ٦٨٨، وابن حزم : جوامع السيرة ٢٠٨، وسنن أبي داود ٢٧٦٥، وصححه الألباني في: صحيح وضعيف سنن أبي داود (٦ / ٢٦٥) .

والْحُلَيْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ وعروة بن مسعود الثقفي.

وتجلت حكمة القيادة الإسلامية وقدرتها البارعة في كيفية التعامل مع كل قائد من هؤلاء القادة على اختلاف توجهاتهم وتباين معادنهم.

أولاً: بديل بن ورقاء الخزاعي:

لما نزل رسول الله ﷺ بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي فِي رِجَالٍ مِنْ خُزَاعَةَ.

فَكَلّمُوهُ وَسَأَلُوهُ مَا الّذِي جَاءَ بِهِ ؟ فَأَخْبَرَهُمْ أَنّهُ لَمْ يَأْتِ يُرِيدُ حَرْبًا، وَإِنّمَا جَاءَ زَائِرًا لِلْبَيْتِ وَمُعَظّمًا لِحُرْمَتِهِ. فَرَجَعُوا إلَى قُرَيْشٍ فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنّكُمْ تَعْجَلُونَ عَلَى مُحَمّدٍ ! إنّ مُحَمّدًا لَمْ يَأْتِ لِقِتَالٍ ! وَإِنّمَا جَاءَ زَائِرًا هَذَا الْبَيْتَ. فَقَالُوا: وَإِنْ كَانَ جَاءَ وَلاَ يُرِيدُ قِتَالاً، فَوَ الله لاَ يَدْخُلُهَا عَلَيْنَا عَنْوَةً أَبَدًا، وَلاَ تَحَدّثَ بِذَلِكَ عَنّا الْعَرَبُ. وَكَانَتْ خُزَاعَةُ عَيْبَةَ[(١)] نُصْحِ رَسُولِ الله ﷺ مُسْلِمُهَا وَمُشْرِكُهَا، لاَ يُخْفُونَ عَنْهُ شَيْئًا كَانَ بِمَكّةَ[(٢)].

وفي هذا الموقف تعاملت القيادة الإسلامية مع بديل بن ورقاء بكل موضوعية وشفافية اعتمادًا على سلامة المقصد والعلاقة القديمة الطيبة بين خزاعة وبني هاشم. ومن ثم انحازت خزاعة إلى صف رسول الله ﷺ ومارست نوعًا من الضغط على قريش حتى تسمح للمسلمين بأداء عمرتهم.

وهو أمر في غاية الأهمية أن يكون للقائد علاقاته الطيبة وصلاته الوثيقة بالجماعات والدول التي من الممكن جذبها إلى موقف الحياد.

لقد سبق نبي الرحمة ﷺ هذه النظريات السياسية المستحدثة. تلك النظريات التي تشدد على أهمية وجود علاقة قوية بين القائد والجهات المحايدة في صراعه مع عدوه.

ثانيا: مِكْرَز بْنَ حَفْصٍ:

ثُمّ بَعَثُوا إلَيْهِ ﷺ مِكْرَزَ بْنَ حَفْصِ بْنِ الْأَخْيَفِ، فَلَمّا رَآهُ رَسُولُ الله ﷺ مُقْبِلاً قَالَ: "هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ !".

(١) أي خاصته وأصحاب سره.

(٢) ابن هشام ٢ / ٣١١، ابن سعد ٢ / ٩٦.

فَلَمّا انْتَهَى إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَكَلّمَهُ قَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ نَحْوًا مِمّا قَالَ لِبُدَيْلٍ وَأَصْحَابِهِ فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ(١).

وفي قول القائد الحكيم ﷺ: "هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ!". تأكيد على أهمية معرفة القائد برجالات العدو وطبيعة كل قائد من القيادات البارزة في صفوف الأعداء.

إنه يعرف أن "مكرزًا" رجل غدر، وأن "الحليس" رجل تدين يعظم الشعائر والمناسك. إنها القيادة الإسلامية التي تكشف بعين بصيرتها صفة رموز العدو ومن ثم يختار الأسلوب الأمثل والطريق الأجدر في التعامل مع هذه الرموز.

ثالثًا: الْحُلَيْس بْن عَلْقَمَة:

ثُمّ بَعَثُوا إِلَيْهِ الْحُلَيْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ سَيّدَ الأَحَابِيشِ، وَهُوَ أَحَدُ؛ فَلَمّا رَآهُ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ:

"إِنّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلّهُونَ، فَابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتّى يَرَاهُ".

فَلَمّا رَأَى الْهَدْيَ يَسِيلُ عَلَيْهِ مِنْ عُرْضِ الْوَادِي فِي قَلاَئِدِهِ وَقَدْ أَكَلَ أَوْبَارَهُ مِنْ طُولِ الْحَبْسِ عَنْ مَحِلّهِ رَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ إعْظَامًا لَمَا رَأَى، فَقَالَ لَهُمْ ذَلِكَ. قَالَ فَقَالُوا لَهُ: اجْلِسْ فَإِنّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيّ لاَ عِلْمَ لَك.

وغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ والله مَا عَلَى هَذَا حَالَفْنَاكُمْ، وَلاَ عَلَى هَذَا عَاقَدْنَاكُمْ. أَيُصَدّ عَنْ بَيْتِ الله مَنْ جَاءَ مُعَظّمًا لَهُ؟! وَالّذِي نَفْسُ الْحُلَيْسِ بِيَدِهِ لَتُخَلّنّ بَيْنَ مُحَمّدٍ وَبَيْنَ مَا جَاءَ لَهُ أَوْ لأَنْفِرَن بِالأَحَابِيشِ نَفْرَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ!!

فَقَالُوا لَهُ: مَهْ كُفّ عَنّا يَا حُلَيْسُ حَتّى نَأْخُذَ لِأَنْفُسِنَا مَا نَرْضَى بِهِ(٢).

في هذا المشهد نرى القائد الإسلامي يضرب على وتر التدين ليؤثر على الحليس الذي عُرف بتعظيمه لشعائر البيت الحرام، فقدم رسول الله ﷺ الهدي ليراه الحليس، ومن ثم تحول الخصم إلى حليف بفضل القائد الإسلامي الحصيف.

(١) ابن هشام ٢ / ٣١٢.

(٢) ابن هشام ٢ / ٣١٢، ابن سعد ٢ / ٩٦.

رابعا: عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ:

ثُمّ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ عُرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ الثّقَفِيّ، فَقَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ:

إِنّي قَدْ رَأَيْت مَا يَلْقَى مِنْكُمْ مَنْ بَعَثْتُمُوهُ إِلَى مُحَمّدٍ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ التّعْنِيفِ وَسُوءِ اللّفْظِ. وَقَدْ سَمِعْت بِالّذِي نَابَكُمْ فَجَمَعْتُ مَنْ أَطَاعَنِي مِنْ قَوْمِي، ثُمّ جِئْتُكُمْ حَتّى آسَيْتُكُمْ بِنَفْسِي.

قَالُوا: صَدَقْت، مَا أَنْتَ عِنْدَنَا بِمُتّهَمٍ.

فَخَرَجَ حَتّى أَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمّ قَالَ: يَا مُحَمّدُ أَجَمَعْتَ أَوْشَابَ النّاسِ ثُمّ جِئْتَ بِهِمْ إِلَى بَيْضَتِك لِتَفُضّهَا بِهِمْ. إِنّهَا قُرَيْشٌ قَدْ خَرَجَتْ مَعَهَا الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ. قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ النّمُورِ يُعَاهِدُونَ الله لاَ تَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ عَنْوَةً أَبَدًا. وَايْمُ الله لِكَأَنّي بِهَؤُلاَءِ قَدْ انْكَشَفُوا عَنك غَدًا.

وَأَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ خَلْفَ رَسُولِ الله ﷺ قَاعِدٌ فَقَالَ: اُمْصُصْ بَظْرَ اللاّتِي، أَنَحْنُ نَنْكَشِفُ عَنْهُ[1]؟

قَالَ: مَنْ هَذَا يَا مُحَمّدُ؟

قَالَ: "هَذَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ".

قَالَ: أَمَا والله لَوْلاَ يَدٌ كَانَتْ لَك عِنْدِي لَكَافَأْتُك بِهَا، وَلَكِنْ هَذِهِ بِهَا.

ثُمّ جَعَلَ يَتَنَاوَلُ لِحْيَةَ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يُكَلّمُهُ. وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَاقِفٌ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ الله ﷺ فِي الْحَدِيدِ. فَجَعَلَ يَقْرَعُ يَدَهُ إِذَا تَنَاوَلَ لِحْيَةَ رَسُولِ الله ﷺ وَيَقُولُ: اُكْفُفْ يَدَك عَنْ وَجْهِ رَسُولِ الله ﷺ قَبْلَ أَنْ لاَ تَصِلَ إِلَيْك!!

فَيَقُولُ عُرْوَةُ: وَيْحَك مَا أَفَظّكَ وَأَغْلَظَك!!

فَتَبَسّمَ رَسُولُ الله ﷺ..

فَقَالَ لَهُ عُرْوَةُ: مَنْ هَذَا يَا مُحَمّدُ؟

قَالَ: "هَذَا ابْنُ أَخِيك الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ".

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد ٣ / ٢٥٧، ابن كثير: السيرة النبوية ٣ / ٣٣١.

قَالَ: أَيْ غُدَرُ وَهَلْ غَسَلْتُ سَوْأَتَك إلاّ بِالأَمْسِ(١).

وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيّةِ فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ ثُمّ جَاءَ فَأَسْلَمَ. فَقَالَ النّبِيّ ﷺ أَمّا الإسلام فَأَقْبَلُ وَأَمّا الْمَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ(٢)، فأدى عروة هذه الدية. ثَلاَثَ عَشْرَةَ دِيَةً- عدة المقتولين - وَأَصْلَحَ ذَلِكَ الأَمْرَ(٣).

هذا، وَكَلّمَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِنَحْوٍ مِمّا كَلّمَ بِهِ أَصْحَابَهُ وَأَخْبَرَهُ أَنّهُ لَمْ يَأْتِ يُرِيدُ حَرْبًا. فَقَامَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ وَقَدْ رَأَى مَا يَصْنَعُ بِهِ أَصْحَابُهُ لاَ يَتَوَضّأُ إلاّ ابْتَدَرُوا وُضُوءَهُ وَلاَ يَبْصُقُ بُصَاقًا إلاّ ابْتَدَرُوهُ. وَلاَ يَسْقُطُ مِنْ شَعْرِهِ شَيْءٌ إلاّ أَخَذُوهُ. فَرَجَعَ إلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ:

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إنّي قَدْ جِئْت كِسْرَى فِي مُلْكِهِ، وَقَيْصَرَ فِي مُلْكِهِ. وَالنّجَاشِيّ فِي مُلْكِهِ. وَإِنّي والله مَا رَأَيْت مَلِكًا فِي قَوْمٍ قَطّ مِثْلَ مُحَمّدٍ فِي أَصْحَابِهِ وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لاَ يُسْلِمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبَدًا، فَرَوْا رَأْيَكُمْ(٤).

في هذا الموقف عرف رسول الله ﷺ تأثر "عروة" ببهرجات ومظهرات الملوك - لاسيما علمه برحلات عروة السابقة إلى ملوك الفرس والروم والحبشة- فأراد رسول الله ﷺ أن يؤثر على عروة من هذا الباب.

ولما كان عروة في موقف ذهول وإعجاب وهو يرى توقير الصحابة وحبهم وعنايتهم لرسول الله ﷺ إلى الدرجة التي قال فيها عروة: "والله مَا رَأَيْت مَلِكًا فِي قَوْمٍ قَطّ مِثْلَ مُحَمّدٍ فِي أَصْحَابِهِ وَلَقَدْ رَأَيْتُ قَوْمًا لاَ يُسْلِمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبَدًا، فَرَوْا رَأْيَكُمْ".

المطلب الثالث: مبادرات حكيمة وسياسة ضبط النفس:

مبادرة اولى:

ثم أَنّ رَسُولَ الله ﷺ دَعَا خِرَاشَ بْنَ أُمَيّةَ الْخُزَاعِيّ، فَبَعَثَهُ إلَى قُرَيْشٍ بِمَكّةَ وَحَمَلَهُ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ الثّعْلَبُ لِيُبَلّغَ أَشْرَافَهُمْ عَنْهُ مَا جَاءَ لَهُ، فَعَقَرُوا بِهِ جَمَلَ

---

(١) ابن هشام ٢ / ٣١٢، ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٥٧ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٥٧ ، ابن كثير: السيرة النبوية ٣ / ٣٣١ .

(٣) ابن هشام ٢ / ٣١٢، ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٥٧ .

(٤) ابن هشام ٢ / ٣١٢ .

رَسُولِ الله ﷺ وَأَرَادُوا قَتْلَهُ فَمَنَعَتْهُ الأَحَابِيشُ، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ حَتّى أَتَى رَسُولَ الله ﷺ[١].

مبادرة ثانية:

وأرسلت قريش بأَرْبَعِينَ من الرجال، وَأَمَرُوهُمْ أَنْ يُطِيفُوا بِعَسْكَرِ رَسُولِ الله ﷺ لِيُصِيبُوا لَهُمْ مِنْ أَصْحَابِهِ أَحَدًا، فَأُخِذُوا أَخْذًا، فَأُتِيَ بِهِمْ رَسُولَ الله ﷺ فَعَفَا عَنْهُمْ وَخَلّى سَبِيلَهُمْ و قَدْ كَانُوا رَمَوْا فِي عَسْكَرِ رَسُولِ الله ﷺ بِالْحِجَارَةِ وَالنّبْلِ[٢].

مبادرة ثالثة:

وطلب النبي ﷺ من عُمَرَ بْنَ الْخَطّابِ أن يذهب إلَى مَكّةَ، فَيُبَلّغُ عَنْهُ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مَا جَاءَ لَهُ. فَقَالَ عمر ناصحًا قائده:

يَا رَسُولَ الله إنّي أَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِي، وَلَيْسَ بِمَكّةَ مِنْ بَنِي عَدِيّ بْنِ كَعْبٍ أَحَدٌ يَمْنَعُنِي، وَقَدْ عَرَفَتْ قُرَيْشٌ عَدَاوَتِي إيّاهَا، وَغِلْظَتِي عَلَيْهَا، وَلَكِنّي أَدُلّك عَلَى رَجُلٍ أَعَزّ بِهَا مِنّي، عُثْمَانَ بْنَ عَفّانَ.

فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ عُثْمَانَ بْنَ عَفّانَ.

وقال له: "اذهب إلى قريش فأخبرهم أنا لم نأت لقتال أحد وإنما جئنا زوارا لهذا البيت معظمين لحرمته، معنا الهدي ننحره وننصرف"[٣].

وَبَعَثَهُ بذلك إلَى أَبِي سُفْيَانَ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ، يُخْبِرُهُمْ بذلك[٤].

في هذه المبادرات النبوية الحكيمة نرى فيها قدرة القيادة الإسلامية الكريمة على استخدام سياسة ضبط النفس بمهارة فائقة. فلو تسرعت القيادة في مثل هذه المواقف الثلاثة بالرد المسلح على استفزازات العدو لتحول " حادث الحديبية " في التاريخ إلى ملحمة دموية ومأساة ضخمة في أرض الحرم.

إن استخدام رسول الله ﷺ لسياسة ضبط النفس في هذه المواقف الثلاثة بالذات يعد من أهم الأسباب المباشرة لنجاح صلح الحديبية العظيم. ذلك الصلح

---

(١) ابن هشام ٢ / ٣١٤.
(٢) ابن هشام ٢ / ٣١٤.
(٣) ابن سعد ٢ / ٩٧.
(٤) ابن هشام ٢ / ٣١٤.

الذي قدم للدعوة أضخم خدمة وأكبر فرصة للانطلاق برسالة الإسلام في أرجاء المعمورة. وانتقال دعوة الإسلام من الطابع الإقليمي إلى الطابع العالمي الدولي.

المطلب الرابع: إشَاعَةُ مَقْتَلِ عُثْمَانَ:

فَخَرَجَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ، فَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ حِينَ دَخَلَ مَكَّةَ، أَوْ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَهَا، فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ أَجَارَهُ حَتَّى بَلَّغَ رِسَالَةَ رَسُولِ الله ﷺ، فَانْطَلَقَ عُثْمَانُ حَتَّى أَتَى أَبَا سُفْيَانَ وَعُظَمَاءَ قُرَيْشٍ، فَبَلَّغَهُمْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ مَا أَرْسَلَهُ بِهِ فَقَالُوا لِعُثْمَانِ حِينَ فَرَغَ مِنْ رِسَالَةِ رَسُولِ الله ﷺ إِلَيْهِمْ: إِنْ شِئْت أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ.

فَقَالَ مبجلاً سيد النبيين ﷺ: "مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ." !!

ليضرب المثل كيف تكون علاقة الجندي بقائده أمام الأعداء. إنها علاقة التوقير والإجلال للقيادة الإسلامية حال غيبتها أمام أعداء الله.

و من ثم احْتَبَسَتْهُ قُرَيْشٌ عِنْدَهَا، فَبَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ قَدْ قُتِلَ[1]. وانتشرت الإشاعة. ويبدو من ذلك وجود أطراف قرشية حقادة، تبغي من وراء ذلك نشوب الحرب والفتنة.

ولا شك أن انتشار الإشاعات دائما ما يشتد حال الأوقات الحرجة والمواقف الفاصلة وساعات الفتن.

ومن ثم كان على جند الله التثبت والتحفظ على هذه الإشاعات.

وكان على القيادة الإسلامية الاستفادة من موجة الإشاعات – التي هي من صنع المغرضين.

وكيف استغلها قائدنا الحكيم ورسولنا المعلم المربي – صلوات الله وسلامه عليه؟

إنه انتهز هذه الفرصة في توحيد الصف وتقوية العزم وأخذ البيعة على الموت. ولذلك كانت إشاعة مقتل عثمان في صالح المعسكر الإسلامي مائة بالمائة!

---

(١) ابن هشام ٢ / ٣١٥.

المطلب الخامس: بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ:

وقَالَ رَسُولَ الله ﷺ حِينَ بَلَغَهُ أَنّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ:

" لاَ نَبْرَحُ حَتّى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ " .

فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ النّاسَ إلَى الْبَيْعَةِ فَكَانَتْ بَيْعَةُ الرّضْوَانِ تَحْتَ الشّجَرَةِ، فَكَانَ النّاسُ يَقُولُونَ بَايَعَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الْمَوْتِ و عَلَى ألا يفروا. وَلَمْ يَتَخَلّفْ عَنْهُ أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَضَرَهَا، إلاّ الْجَدّ بْنَ قَيْسٍ أَخُو بَنِي سَلِمَةَ.

فَكَانَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله يَقُولُ:

والله لَكَأَنّي أَنْظُرُ إلَيْهِ لاَصِقًا بِإِبْطِ نَاقَتِهِ. قَدْ ضَبَأَ إلَيْهَا، يَسْتَتِرُ بِهَا مِنْ النّاسِ.

ثُمّ أَتَى رَسُولَ الله ﷺ أَنّ الّذِي ذُكِرَ مِنْ أَمْرِ عُثْمَانَ بَاطِلٌ(١)، وإنما هي إشاعة مغرضة.

وكان أَوّلَ مَنْ بَايَعَ رَسُولَ الله ﷺ بَيْعَةَ الرّضْوَانِ أَبُو سِنَانٍ الأَسَدِيّ.

كما أَنّ رَسُولَ الله ﷺ بَايَعَ لِعُثْمَانِ فَضَرَبَ بِإِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الأُخْرَى(٢). وقال: " إنه ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله "(٣).

وعن يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ قَالَ: قُلْتُ لِسَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ:

عَلَى أَيِّ شَيْءٍ بَايَعْتُمْ رَسُولَ الله ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ قَالَ: " عَلَى الْمَوْتِ "(٤).

وقال النبي ﷺ في فضل هذه البيعة:

" لَنْ يَدْخُلَ النَّارَ رَجُلٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ "(٥).

إن مشهد البيعة الذي بلغ في رواياته مستوى التواتر ليدلل بوضوح على جواز قيام القائد العسكري أن يأخذ البيعة على جنوده أو أن يجددها في إطار ما يخص ساحة القتال دون أن تتعدى حدود هذه البيعة إلى الشأن العام للأمة بحيث تضر

---

(١) ابن هشام ٢ / ٣١٥ .

(٢) ابن هشام ٢ / ٣١٥ . (٣) ابن سعد ٢ / ٩٧ .

(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (٣٨٥١) .

(٥) مسند أحمد (١٤٧٢٥) عن جابر، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير(٩٣٥٤) .

بصلاحيات الإمام أو الخليفة أو رئيس الدولة الإسلامية.

وإذا أخذ القائد البيعة من جنوده على الموت أو عدم الفرار من ميدان القتال- إلا بإذنه- فإن هذه البيعة ملزمة وتنفيذ شرطها واجب والإخلال بها خيانة وكبيرة من الكبائر.

المطلب السادس: المفاوضات وآدابها:

ثُمّ بَعَثَتْ قُرَيْشٌ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، أَخَا بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيّ، إلَى رَسُولِ الله ﷺ وَقَالُوا لَهُ ائْتِ مُحَمّدًا فَصَالِحْهُ وَلاَ يَكُنْ فِي صُلْحِهِ إلاّ أَنْ يَرْجِعَ عَنّا عَامَهُ هَذَا، فَوالله لاَ تُحَدّثُ الْعَرَبُ عَنّا أَنّهُ دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَنْوَةً أَبَدًا. فَأَتَاهُ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، فَلَمّا رَآهُ رَسُولُ الله ﷺ مُقْبِلاً، قَالَ قَدْ أَرَادَ الْقَوْمُ الصّلْحَ حِينَ بَعَثُوا هَذَا الرّجُلَ فَلَمّا انْتَهَى سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو إلَى رَسُولِ الله ﷺ تَكَلّمَ فَأَطَالَ الْكَلاَمَ وَتَرَاجَعَا، ثُمّ جَرَى بَيْنَهُمَا الصّلْحُ[1].

وعَنْ أَنَسٍ:

أَنَّ قُرَيْشًا صَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ فِيهِمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ:

" اكْتُبْ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ".

قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا بِاسْمِ الله فَمَا نَدْرِي مَا بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مَا نَعْرِفُ: بِاسْمِكَ اللهمَّ!

فوافق النبي ﷺ فَقَالَ: اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله.

قَال: لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ الله لاَتَّبَعْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ: اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ[2].

فَقَالَ النَّبِيُّ لِعَلِيٍّ: "امْحُهُ".

فَقَالَ: عَلِيٌّ مَا أَنَا بِالَّذِي أَمْحوهُ، فَمَحَاهُ رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِهِ[3].

---

(١) ابن هشام ٢ / ٣١٦.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (٣٣٣٧).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلح، بَاب كَيْفَ يُكْتَبُ هَذَا مَا صَالَحَ فلان بن فلان وفلان بن فلان وَإِنْ لَمْ يَنْسُبْهُ إِلَى قَبِيلَتِهِ أَوْ نَسَبِهِ، عن الْبَرَاء بْنَ عَازِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٢٥٠٠).

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اكْتُبْ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله". فَاشْتَرَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ مَنْ جَاءَ مِنْكُمْ لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكُمْ وَمَنْ جَاءَكُمْ مِنَّا رَدَدْتُمُوهُ عَلَيْنَا.

فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَنَكْتُبُ هَذَا قَالَ: "نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ الله، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ الله لَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا" (١).

وصالحوه عَلَى أَنْ يَدْخُلَهَا مِنْ قَابِلٍ وَيُقِيمَ بِهَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَلاَ يَدْخُلَهَا إِلاَّ بِجُلُبَّانِ السِّلاَحِ السَّيْفِ وَالْقَوْسِ وَنَحْوِهِ (٢).

وَإِنّ بَيْنَنَا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً وَأَنَّهُ لاَ أَسْلاَلَ وَلاَ أَغْلاَلَ وَأَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ (٣).

فَتَوَاثَبَتْ خُزَاعَةُ. فَقَالُوا: نَحْنُ فِي عَقْدِ مُحَمّدٍ وَعَهْدِهِ. وَتَوَاثَبَتْ بَنُو بَكْرٍ فَقَالُوا: نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ. (٤).

وتم عقد هذه المعاهدة وكانت صياغتها من عشرة بنود جاءت على الشكل التالي:

١- باسمك اللهم.

٢- هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

٣- واصطلحا على وضع الحرب على الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٤- على أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجًا أو معتمرًا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازًا إلى مصر أو إلى الشام، يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله.

٥- على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (٣٣٣٧).
(٢) صحيح البخاري، كتاب الصلح، بَاب الصُّلْحِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ (٢٥٠١).
(٣) ابن هشام ٢ / ٣١٧. (٤) ابن هشام ٢ / ٣١٨.

٦- وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال.

٧- وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه (فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم).

٨- وأنت ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، ولا تدخلها بغيرها.

٩- وعلى أن هذا الهدي ما جئناه ومحله فلا تقدمه علينا.

١٠- أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين[١].

فَلَمّا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْكِتَابِ أَشْهَدَ عَلَى الصّلْحِ رِجَالاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرِجَالاً مِنَ الْمُشْرِكِينَ:

أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ، وَعَبْدُ الرّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَعَبْدُ الله بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقّاصٍ، وَمَحْمُودُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَمِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ وَعَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَاتِبَ الصّحِيفَةِ[٢].

ونسخ الكتاب نسختين، فوضعت إحداهما عند رسول الله ﷺ، وأخذ الأخرى سهيل بن عمرو[٣].

إن مشهد المفاوضات وفعاليات الصلح التي جرت بين المعسكرين الإسلامي والوثني، ليدلل بجلاء على مدى الحنكة السياسية التي يتمتع بها القائد الإسلامي وبعد نظره وثاقب فكره. ويسطر في ذاكرة التاريخ آدابًا سامية وأخلاقًا سامقة في التفاوض، يأتي في مقدمة هذه الآداب: عدم تشبث القيادة الإسلامية بشكليات الصلح أو مظهريات التفاوض، فقد تنازل رسول الله ﷺ عن كتابة البسملة القرآنية الكاملة في مسودة الصلح، ونزل على رغبة خصمه في كتابة " بِاسْمِكَ اللهمَّ " بدلاً من "بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ "، كما استجاب ﷺ لمطلب سهيل بن عمرو

(١) انظر: محمد حميد الله، ٧٧ وما بعدها. (٢) ابن هشام ٢ / ٣١٩.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ١ / ١٥٣.

بحذف جملة " رَسُولِ الله "، وعلل سهيل قائلاً: " لَوْ عَلِمْنَا أَنَّكَ رَسُولُ الله لاتَّبَعْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ: اسْمَكَ وَاسْمَ أَبِيكَ ".

إن مرونة القيادة الإسلامية في مثل هذه الشكليات - في مثل هذه المواقف - مهم جدًا! إن تزمت قائد الجماعة المسلمة في مثل هذه المواقف لا يجدي نفعًا ويستهلك الوقت والجهد وقد يتسبب في إفشال الصلح ليتحول إلى حرب هوجاء، وقد عهد رسول الله ﷺ هؤلاء العرب يتقاتلون على العنزة والبعرة وما على شاكلة ذلك من توافه الأسباب.

المطلب السابع: أزمة أبي جندل واحترام القيادة للعهود:

وَبَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ يَكْتُبُ الْكِتَابَ هُوَ وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، إِذْ جَاءَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي الْحَدِيدِ قَدْ انفَلَتَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ خَرَجُوا وَهُمْ لا يَشُكّونَ فِي الْفَتْحِ لِرُؤْيَا رَآهَا رَسُولُ الله ﷺ فَلَمّا رَأَوْا مَا رَأَوْا مِنْ الصّلْحِ وَالرّجُوعِ وَمَا تَحَمّلَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ فِي نَفْسِهِ دَخَلَ عَلَى النّاسِ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ عَظِيمٌ. حَتّى كَادُوا يهْلَكُونَ.

فَلَمّا رَأَى سُهَيْلٌ أَبَا جَنْدَلٍ قَامَ إِلَيْهِ فَضَرَبَ وَجْهَهُ وَأَخَذَ بِتَلْبِيبِهِ ثُمّ قَالَ: يَا مُحَمّدُ قَدْ لَجّتْ الْقَضِيّةُ بَيْنِي وَبَيْنَك قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَك هَذَا؛ قَالَ: " صَدَقْتَ" فَجَعَلَ يَنْتُرُهُ بِتَلْبِيبِهِ وَيَجُرّهُ لِيَرُدّهُ إِلَى قُرَيْشٍ، وَجَعَلَ أَبُو جَنْدَلٍ يَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ أَأُرَدّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتِنُونِي فِي دِينِي؟! فَزَادَ ذَلِكَ النّاسَ إِلَى مَا بِهِمْ.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " يَا أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنّ الله جَاعِلٌ لَك وَلِمَنْ مَعَك مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، إِنّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَهْدَ الله وَإِنّا لاَ نَغْدِرُ بِهِمْ".

قَالَ فَوَثَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ مَعَ أَبِي جَنْدَلٍ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ وَيَقُولُ: اصْبِرْ يَا أَبَا جَنْدَلٍ فَإِنّمَا هُمْ الْمُشْرِكُونَ وَإِنّمَا دَمُ أَحَدِهِمْ دَمُ كَلْبٍ.

يقول ذلك. وَيُدْنِي قَائِمَ السّيْفِ مِنْهُ! لعله يأخذ السيف من عمر. ليقتل أباه!

قَالَ عُمَرُ: فَضَنّ الرّجُلُ بِأَبِيهِ وَنَفَذَتْ الْقَضِيّةُ(١).

---

(١) ابن هشام ٢ / ٣١٨.

وهو موقف يدلل على احترام القيادة الإسلامية للعهود والمواثيق. ولم يتأثر رسول الله ﷺ بحال " أبي جندل" بحيث يخل بالصلح. أو يجعل من ذلك مادة إعلامية للعدو ينشرها يمنة ويسرة للتشويه والتشويش.

المطلب الثامن: احترام المعارضة النزيهة:

بعد الاتفاق على بنود الصلح بين رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو وقبل توثيقها في المسودة، جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ ؟

قَالَ: "بَلَى".

قَالَ: أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ؟

قَالَ: " بَلَى" .

قَالَ: فَفِيمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ الله بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فَقَالَ: " يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ الله، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي الله أَبَدًا" .

فَانْطَلَقَ عُمَرُ فَلَمْ يَصْبِرْ مُتَغَيِّظًا فَأَتَى أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى بَاطِلٍ ؟

قَالَ: بَلَى.

قَالَ: أَلَيْسَ قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاهُمْ فِي النَّارِ ؟

قَالَ: بَلَى.

قَالَ: فَعَلَامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ الله بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ ؟

فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ إِنَّهُ رَسُولُ الله وَلَنْ يُضَيِّعَهُ الله أَبَدًا(١).

والحق أن عمر بن الخطاب لم يكن الشخصية الوحيدة المعارضة لبنود الصلح، بل كانت جماعة الصحابة تقريبًا معارضة لهذه البنود، خاصة تلك البنود التي بموجبها يلتزم الرسول ﷺ برد من جاءه من قريش مسلمًا ولا تلتزم قريش برد من جاءها من المسلمين مرتدًا إضافة إلى البند الذي يقضي بعودة المسلمين هذا

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية (٣٣٣٨) .

العام دون عمرة . وبرز من الصحابة المعارضين لهذه الاتفاقية قيادات إسلامية لها وزنها بين قومها منهم سعد بن عبادة سيد الخزرج وأسيد بن حضير سيد الأوس .

وذهبت جماعة من المعارضين إلى حضرة رسول الله ﷺ لمراجعته، وإعلان معارضتهم مجددًا للصلح إلا أن النبي ﷺ بما أعطاه الله من صبر وحكمة وحلم وقوة حجة استطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصلح، وأنه في صالح المسلمين، وأنه نصر لهم(١) وأن الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجًا ومخرجًا .

وبهذا يتبين أن النبي ﷺ وضع قاعدة احترام المعارضة النزيهة، حيث قرر ذلك بقوله وفعله، وهو -والله أعلم- إنما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النزيهة التي تصدر من أتباعهم، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السليمة التي تخدم المصلحة العامة(٢) .

وهذا الهدي النبوي الكريم بيَّن أن حرية الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي، وأن للفرد في المجتمع المسلم الحرية في التعبير عن رأيه، ولو كان هذا الرأي نقدًا لموقف حاكم من الحكام، أو خليفة من الخلفاء، فمن حق الفرد المسلم أن يبين وجهة نظره في جو من الأمن والأمان دون إرهاب أو تسلط يخنق حرية الكلمة والفكر .

ونفهم من معارضة عمر لرسول الله ﷺ أن المعارضة لرئيس الدولة في رأي من الآراء، وموقف من المواقف ليست جريمة تستوجب العقاب، ويغيب صاحبها في غياهب السجون(٣) .

المطلب التاسع: التحلل من الإحرام وحلم القائد على جنوده:

لما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه : " قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا "(٤) .

---

(١) انظر : محمد أحمد باشميل : صلح الحديبية ٢٧٠ .
(٢) انظر : عبد الله محمد الرشيد ٤٩٥ .
(٣) انظر : محمد عبد القادر أبو فارس : غزوة الحديبية ص١٣٤، ١٣٥، علي محمد الصلابي ٢/ ٢٩١ .
(٤) ابن كثير : السيرة النبوية ٣ / ٣٣٤ .

فمَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ !! حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ . فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ .

فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ :

يَا نَبِيَّ الله أَتُحِبُّ ذَلِكَ . اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ .

فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالِقَهُ [خِرَاشَ بْنَ أُمَيَّةَ بْنِ الْفَضْلِ الْخُزَاعِيّ]، فَحَلَقَهُ فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا [١] .

وحَلَقَ رِجَالٌ ، وَقَصَّرَ آخَرُونَ . فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : "يَرْحَمُ الله الْمُحَلِّقِينَ" .

قَالُوا : وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ الله ؟

قَالَ : "يَرْحَمُ الله الْمُحَلِّقِينَ" .

قَالُوا : وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ الله ؟

قَالَ : "يَرْحَمُ الله الْمُحَلِّقِينَ" .

قَالُوا : وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ الله ؟

قَالَ : "وَالْمُقَصِّرِينَ" [٢] .

وفي هذا الموقف الشهير في صلح الحديبية تستوقفنا عدة دروس أهمها :

١- في هذا المشهد يتجلى الحلم النبوي بالجنود، فالقيادة الإسلامية تعرف جيدًا طبيعة الحالة النفسية التي يمر بها المسلمون جراء عقد هذا الصلح الذي في ظاهره إجحاف بأبسط حقوق المسلمين .

٢- كان رأي أم سلمة سديدًا ومباركًا، حيث فهمت - رضي الله عنها وعن الصحابة - أنه وقع في أنفسهم أن يكون النبي ﷺ أمرهم بالتحلل أخذًا بالرخصة في حقهم، وأنه يستمر على الإحرام أخذًا بالعزيمة، في حق نفسه، فأشارت على

(١) ابن كثير : السيرة النبوية ٣ / ٣٣٤، ابن هشام ٢ / ٣١٩ .
(٢) ابن هشام ٢ / ٣١٩ .

النبي ﷺ أن يتحلل لينتفي عنهم هذا الاحتمال، وعرف النبي ﷺ صواب ما أشارت به ففعله، فلما رأى الصحابة ذلك بادروا إلى فعل ما أمرهم به، فلم يبق بعد ذلك غاية تنتظر، فكان ذلك رأي سديد ومشورة مباركة، وفي ذلك دليل على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرة صائبة ورأي سديد(١) كما أنه لا فرق في الإسلام بين أن تأتي المشورة من رجل أو امرأة طالما أنها مشورة صائبة، وهذا عين التكريم للمرأة التي يزعم أعداء الإسلام أنه غمطها حقها وتجاهل وجودها، وهل هناك اعتراف واحترام لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبي مرسل ويعمل النبي ﷺ بمشورتها لحل مشكلة اصطدم بها وأغضبته(٢).

٣- أهمية القدوة العملية، فقد دعا رسول الله ﷺ إلى أمر وكرره ثلاث مرات، وفيهم كبار الصحابة وشيوخهم، ومع ذلك لم يستجب أحد لدعوته، فلما قدم رسول الله ﷺ على الخطوة العملية التي أشارت بها أم سلمة تحقق المراد، فالقدوة العملية في مثل هذه المواقف أجدى وأنفع(٣).

* * *

(١) انظر: عدنان النحوي : ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية، ١٦١ .
(٢) انظر: محمد الديك ٢٧٣، وعلي محمد الصلابي ٢/ ٢٩٢ .
(٣) انظر: محمد السيد الوكيل: تأملات في السيرة النبوية ٢١١، وعلي محمد الصلابي ٢/ ٢٩٢ .

الفصل التاسع
غَزْوَة خَيْبَر
المحرم ٧ هـ - مايو / يونيو ٦٢٨ م

المبحث الأول
ملخص الغزو

(خيبر)[١] واحة كبيرة يسكنها اليهود على مسافة مائة ميل من شمال المدينة جهة الشام. وسبب هذه الغزوة أن النبي ﷺ بعد أن أمن جانب قريش بالصلح الذي تم في الحديبية، قرر تأديب يهود خيبر الذين حزبوا الأحزاب والقبائل على الدولة الإسلامية الناشئة، وجعلوا من واحة خيبر مقرًا لدس الفتن وإيقاع الأذى بالأمة الإسلامية، وأجمع الرسول ﷺ على الخروج إليهم في أواخر المحرم، فخرج إليهم في ألف وستمائة مقاتل، منهم مائتا فارس، واستنفر من حوله ممن شهد الحديبية، وابتدأت المعارك، يفتح المسلمون منها حصنًا بعد حصن، إلا الحصنين الأخيرين، فقد رغب أهلها في الصلح. وقد بلغ عدد قتلى اليهود في هذه المعركة، ثلاثة وتسعين، واستشهد من المسلمين خمسة عشر[٢].

* * *

(١) تقع مدينة خيبر على بعد ١٧٠ كيلومتر شمال المدينة المنورة على منطقة جلها عبارة عن حرة عظيمة الاتساع متوسط ارتفاعها ٨٥٠ مترا عن سطح البحر، وتعتبر خيبر منذ أقدم العصور ولا تزال واحة واسعة خصبة معطاء وذات عيون ومياه غزيرة تصلح تربتها لزراعة الحبوب والفواكه بأنواعها وهي من أكبر واحات النخيل في جزيرة العرب وكانت خيبر من أسواق العرب المعروفة في الجاهلية ويعرف باسم " سوق نطاة خيبر " (انظر : موقع وزارة الشئون البلدية والقروية على الإنترنت : بلدية محافظة خيبر).

(٢) انظر تفاصيل هذه الغزوة في : الواقدي: ٣٨٩، وابن هشام ٣/ ٣٤٢، والطبري ٣/ ٩١، والبلاذري: أنساب الأشراف ١/ ١٦٩، وابن سيد الناس ٢/ ١٣٠، وابن القيم : زاد المعاد ٢/ ٣٢٤، والمقريزي ٣٠٩، ومصطفى السباعي ٧٠ .

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول: تكريم أصحاب المواهب من الجنود:

قال سَلَمَة بْن الأَكْوَع - رَضِيَ الله عَنْهُ:

خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ فَسِرْنَا لَيْلاً فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ لِعَامِرٍ: يَا عَامِرُ، أَلاَ تُسْمِعُنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ؟

وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلاً شَاعِرًا فَنَزَلَ يَحْدُو بِالْقَوْمِ يَقُولُ:

اللهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا
وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا أَبْقَيْنَا
وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا
وَأَلْقِيَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا
إِنَّا إِذَا صِيحَ بِنَا أَبَيْنَا
وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "مَنْ هَذَا السَّائِقُ؟".

قَالُوا: عَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ.

قَالَ: "يَرْحَمُهُ الله".

قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: وَجَبَتْ يَا نَبِيَّ الله! لَوْلاَ أَمْتَعْتَنَا بِه(١)!

إن الملمح الذي نذكره هنا هو مدى تقدير الجيش الإسلامي لأصحاب المواهب من الجنود، فالقائد والجنود على حد سواء في بحث دائم عن أصحاب الفنون بين الصفوف، كالشعراء والمنشدين. إن تكريم هذا الصنف من الجنود

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٥).

يعود دومًا بالإيجاب على الحالة النفسية والمعنوية لجند الله. إن هؤلاء الموهوبين يلهبون مشاعر الحماسة في نفوس الجنود، ويدفعون - بفنونهم - الرجال إلى الصمود والثبات أمام جحافل الباطل.

المطلب الثاني: الدعاء قبل الإغارة !

لَمَّا دَنَا النَّبِيّ ﷺ من خيبر وَأَشْرَفَ عَلَيْهَا قَالَ:

" قِفُوا " !! فَوَقَفَ الْجَيْشُ.

ثم توجه القائد العام والرحمة المهداة إلى ربه بهذا الدعاء الكريم قائلًا ومعلمًا:

" اللهم رَبّ السّمَاوَاتِ السّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ. وَرَبّ الْأَرَضِينَ السّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ. وَرَبّ الشّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ. فَإِنّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرّ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَشَرّ أَهْلِهَا وَشَرّ مَا فِيهَا. أَقْدِمُوا بِسْمِ الله "[1].

إنها القيادة الخليقة بالنصر، تلك القيادة القريبة من ربها المتذللة إليه. إن رسول الله ﷺ بهذا الدعاء يرسل إلى قلوب ووجدان جنوده رسالة مفادها: أنهم مهما امتلكوا من قوة وبلغوا من سطوة فهم في حقيقة الأمر أذلاء إلى الله فلا يغترون ولا يعلوهم الكبر.

وكيف يعتريهم الكبر أو يقتحم قلوبهم الغرور وهم يدعون " رَبّ السّمَاوَاتِ السّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ. وَرَبّ الْأَرَضِينَ السّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ. وَرَبّ الشّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ. ". إن مثل هذا الدعاء من شأنه أن يبث قيم الرحمة والأخلاق والتواضع في نفوس جند الله. وأمثال هؤلاء الذين نصروا الله في نفوسهم وفي قلوبهم لهم أجدر الناس بنصر الله، الذي قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾" [محمد].

وهم -مع ما آتاهم الله من قوة - يتنزلون المدد من الله وحده، فيسألونه " خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا "، ويلوذون بجنابه ويستعيذون بكنفه " مِنْ شَرّ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَشَرّ أَهْلِهَا وَشَرّ مَا فِيهَا ".

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٨٣ .

كما لا يستفتحون القتال باسم أحد من المخاليق أو باسم شعارات إلحادية أو علمانية أو شركية فهم لا يقاتلون من أجل رأسمالية ولا في سبيل اشتراكية. إنما يقاتلون في سبيل الله، وعلى منهج الله. لذلك كانت إشارة البداية من القائد العام: " أَقْدِمُوا بِسْمِ الله ".

المطلب الثالث: أخلاقيات الإغارة على العدو:

عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُ:

أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَتَى خَيْبَرَ ليلاً وَكَانَ إِذَا أَتَى قَوْمًا بِلَيْلٍ لَمْ يُغِرْ بِهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَتْ الْيَهُودُ بِمَسَاحِيهِمْ وَمَكَاتِلِهِمْ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: مُحَمَّدٌ والله! مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ(١)!

ثُمَّ رَجَعُوا هَارِبِينَ إِلَى حُصُونِهِمْ(٢).

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " [الله أَكْبَرُ](٣) خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ، فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ "(٤).

وفي مشهد الإغارة. سن رسولنا العظيم ﷺ تلك السنة الكريمة التي حدث بها أنس بقوله: "كَانَ إِذَا أَتَى قَوْمًا بِلَيْلٍ لَمْ يُغِرْ بِهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ". وذلك حتى لا يفزّع الأطفال والنساء والشيوخ، أو يهيج الدواب. إن هذه السنة الكريمة لم تكن من قبل ولا من بعد إلا في حروب محمد ﷺ وأتباعه.

وفي قوله ﷺ لما فرت يهود: " خَرِبَتْ خَيْبَرُ ". درس يفيد أن الجبناء الفرار دائمًا ما يجلبون العار والخراب على بلادهم وذويهم.

المطلب الرابع: تحريم الحمر الأهلية:

قال سَلَمَة بْن الأَكْوَعِ - رَضِيَ الله عَنْهُ:

فَأَتَيْنَا خَيْبَرَ فَحَاصَرْنَاهُمْ حَتَّى أَصَابَتْنَا مَخْمَصَةٌ شَدِيدَةٌ، ثُمَّ إِنَّ الله تَعَالَى فَتَحَهَا عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا أَمْسَى النَّاسُ مَسَاءَ الْيَوْمِ الَّذِي فُتِحَتْ عَلَيْهِمْ أَوْقَدُوا نِيرَانًا كَثِيرَةً، فَقَالَ

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٦) .
(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٣ / ٢٨٣ .
(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٧) .
(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٦) .

النَّبِيُّ ﷺ: "مَا هَذِهِ النِّيرَانُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تُوقِدُونَ ؟ " .

قَالُوا: عَلَى لَحْمٍ.

قَالَ: " عَلَى أَيِّ لَحْمٍ ؟ " .

قَالُوا: لَحْمِ حُمُرِ الإِنْسِيَّةِ.[1]

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " أَهْرِيقُوهَا وَاكْسِرُوهَا " .

فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله أَوْ نُهَرِيقُهَا وَنَغْسِلُهَا.

قَالَ: "أَوْ ذَاكَ" [2].

ونادى المنادي:

"إِنَّ الله وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ فَإِنَّهَا رِجْسٌ" .

إن نزول حكم تحريم الحمر الأهلية في ثنايا معارك خيبر؛ ليدلل على امتزاج الأحكام والنصوص الشرعية بالمعارك وجولات الصراع في التاريخ الإسلامي. الأمر الذي يؤكد على تعهد الشرع الإسلامي السمح بمعالجة أية مخالفة يقع فيها الجيش الإسلامي، سواءً ببيان الحكم الشرعي أو باستخلاص الدروس والعبر كما حال سورة آل عمران في تعليقاته التربوية على غزوة أحد.

إن امتثال الجنود لأوامر ونواهي الشرع في فعل الحلال واجتناب الحراب أثناء المعارك لهو من دلائل النصر ومن أمارات التمكين ومن صفات المصلحين.

المطلب الخامس: الذب عن أعراض الشهداء:

قال سَلَمَة بْن الأَكْوَعِ - رَضِيَ الله عَنْهُ:

فَلَمَّا تَصَافَّ الْقَوْمُ كَانَ سَيْفُ عامِرٍ قَصِيرًا فَتَنَاوَلَ بِهِ سَاقَ يَهُودِيٍّ لِيَضْرِبَهُ وَيَرْجِعُ ذُبَابُ سَيْفِهِ فَأَصَابَ عَيْنَ رُكْبَةِ عَامِرٍ، فَمَاتَ مِنْهُ.

قَالَ: فَلَمَّا قَفَلُوا. قَالَ: سَلَمَةُ رَآنِي رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِي. قَالَ: "مَا لَكَ؟".

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٧) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٥) .

قُلْتُ لَهُ: " فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي زَعَمُوا أَنَّ عَامِرًا حَبِطَ عَمَلُهُ ".

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " كَذَبَ مَنْ قَالَهُ، إِنَّ لَهُ لَأَجْرَيْنِ "، وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ، " إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ " (١).

إن الدرس الأخلاقي البارز في هذا المشهد يكمن في مسئولية القيادة الإسلامية في الدفاع عن أعراض الشهداء ودحض الشبهات التي أثارها المتشككون حولهم. ليبقى الشهيد هوالأنموذج الأعظم والمثال الأكبر في التضحية والبذل والفداء.

المطلب السادس: تحذير الجنود من الانتحار:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ - رَضِيَ الله عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ الْتَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ رَجُلٌ لاَ يَدَعُ لَهُمْ شَاذَّةً وَلاَ فَاذَّةً، إِلاَّ اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ.

فَقِيلَ: مَا أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلاَنٌ.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: "أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ " !

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ.

قَالَ: فَخَرَجَ مَعَهُ كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ.

قَالَ: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ سَيْفَهُ بِالْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى سَيْفِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: " أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الله ". قَالَ: " وَمَا ذَاكَ ؟ ".

قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ فَقُلْتُ أَنَا لَكُمْ بِهِ فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الْأَرْضِ وَذُبَابَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ:

"إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٧٥).

الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ" (١).

وقال: "قُمْ يَا فُلاَنُ فَأَذِّنْ أَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ مُؤْمِنٌ إِنَّ الله يُؤَيِّدُ الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ" (٢).

إن إقدام بعض الجنود على الانتحار في ساحة القتال بسبب الجراحات أو نحو ذلك يسبب انتكاسة نفسية وانهزام وجداني للجيش، ولما في ذلك من تعدي على بنيان الله الذي أودعه أمانة في عنق الإنسان المكلف؛ لذا حرم الشارع الحكيم الانتحار عامة وشدد على تحريمه في مواطن القتال لما في ذلك من أثر سلبي على النفوس. اللهم إلا العمليات الاستشهادية التي تحدث نكاية في العدو وقد أجازها جمهور العلماء في القديم والحديث.

المطلب السابع: التحفيز على الأعمال البطولية:

عَنْ سَلَمَةَ - رَضِيَ الله عَنْهُ - قَالَ:

كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ الله عَنْه- تَخَلَّفَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي خَيْبَرَ وَكَانَ رَمِدًا، فَقَالَ: أَنَا أَتَخَلَّفُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ !!

فَلَحِقَ بِهِ، فَلَمَّا بِتْنَا اللَّيْلَةَ الَّتِي فُتِحَتْ.

قَالَ: " لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ الله عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ الله وَرَسُولُهُ(٣) يُفْتَحُ عَلَيْهِ" (٤).

فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا.

فَقَالَ: " أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ".

فَقِيلَ: هُوَ يَا رَسُولَ الله يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ !

قَالَ: "فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ"..

---

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨١)، (٣٨٨٥).
(٢) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٢).
(٣) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٨)، عن سَهْل بْن سَعْدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٤) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٧).

فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ الله ﷺ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ.

فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ الله أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا.

فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإسلام وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله فِيهِ، فَوَالله لأَنْ يَهْدِيَ الله بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[(١)].

فَخَرَجَ مَرْحَبٌ - قاتل عامر بن الأكوع - وَهُوَ يَقُولُ:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي مَرْحَبُ

شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

فَبَرَزَ إِلَيْهِ عَلِيٌّ وَهُوَ يَقُولُ:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ

كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهْ

أُوفِيهِمُ بِالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ

فَضَرَبَ مَرْحَبًا فَفَلَقَ هَامَتَهُ وَكَانَ الْفَتْحُ. وَلَمَّا دَنَا عَلِيٌّ -رَضِيَ الله عَنْهُ- مِنْ حُصُونِهِمْ اطَّلَعَ يَهُودِيٌّ مِنْ رَأْسِ الْحِصْنِ، فَقَالَ مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ.

فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: عَلَوْتُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى.

الْيَهُودِيّ مِنْ حِصْنِ خَيْبَرَ قَدْ جَمَعَ سِلَاحَهُ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ مَنْ يُبَارِزُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ مَنْ لِهَذَا؟ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: أَنَا لَهُ يَا رَسُولَ الله أَنَا والله الْمَوْتُورُ الثَّائِرُ قَتَلُوا أَخِي بِالأَمْسِ يَعْنِي مَحْمُودَ بْنَ مَسْلَمَةَ وَكَانَ قُتِلَ بِخَيْبَرَ فَقَالَ قُمْ إِلَيْهِ اللهمّ أَعِنْهُ عَلَيْهِ فَلَمَّا دَنَا أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ دَخَلَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ فَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَلُوذُ بِهَا مِنْ صَاحِبِهِ كُلَّمَا لَاذَ بِهَا مِنْهُ اقْتَطَعَ صَاحِبُهُ بِسَيْفِهِ مَا دُونَهُ مِنْهَا حَتَّى بَرَزَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ وَصَارَتْ بَيْنَهُمَا كَالرَّجُلِ الْقَائِمِ مَا فِيهَا فَنَنٌ ثُمّ

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٨٨).

حَمَلَ عَلَى مُحَمّدٍ فَضَرَبَهُ فَاتّقَاهُ بِالدّرَقَةِ فَوَقَعَ سَيْفُهُ فِيهَا فَعَضّتْ بَهْ فَأَمْسَكَتْهُ وَضَرَبَهُ مُحَمّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَقَتَلَهُ وَكَذَلِكَ قَالَ سَلَمَةُ بْنُ سَلاّمَةَ ومجمع بْنُ حَارِثَةَ: إنّ مُحَمّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ قَتَلَ مَرْحَبًا. قَالَ الْوَاقِدِيّ: وَقِيلَ إنّ مُحَمّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ضَرَبَ سَاقَيْ مَرْحَبٍ فَقَطَعَهُمَا فَقَالَ مَرْحَبٌ: أَجْهِزْ عَلَيّ يَا مُحَمّدُ فَقَالَ مُحَمّدٌ: ذُقْ الْمَوْتَ كَمَا ذَاقَهُ أَخِي مَحْمُودٌ وَجَاوَزَهُ وَمَرّ بِهِ عَلِيّ -رَضِيَ الله عَنْهُ- فَضَرَبَ عُنُقَهُ وَأَخَذَ سَلَبَهُ فَاخْتَصَمَا إلَى رَسُولِ الله ﷺ فِي سَلَبِهِ فَقَالَ مُحَمّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: يَا رَسُولَ الله مَا قَطَعْتُ رِجْلَيْهِ ثُمّ تَرَكْتُهُ إلاّ لِيَذُوقَ الْمَوْتَ وَكُنْت قَادِرًا أَنْ أُجْهِزَ عَلَيْهِ فَقَالَ عَلِيّ -رَضِيَ الله عَنْهُ: صَدَقَ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ بَعْدَ أَنْ قَطَعَ رِجْلَيْهِ فَأَعْطَى رَسُولُ الله ﷺ مُحَمّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ سَيْفَهُ وَرُمْحَهُ وَمِغْفَرَهُ وَبَيْضَتَهُ وَكَانَ عِنْدَ آلِ مُحَمّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ سَيْفُهُ فِيهِ كِتَابٌ لاَ يُدْرَى مَا فِيهِ حَتّى قَرَأَهُ يَهُودِيّ فَإِذَا فِيهِ:

هَذَا سَيْفُ مَرْحَبْ

مَنْ يَذُقْهُ يَعْطَبْ(١)!

المطلب الثامن: تعفف الجنود:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مُغَفَّلٍ -رَضِيَ الله عَنْهُ- قَالَ:

كُنَّا مُحَاصِرِي خَيْبَرَ فَرَمَى إِنْسَانٌ بِجِرَابٍ فِيهِ شَحْمٌ، فَنَزَوْتُ لِآخُذَهُ فَالْتَفَتُّ، فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ فَاسْتَحْيَيْتُ(٢).

فإذا كانت من سمات جند الله الصبر على المخمصة حال الحروب، حيث قلة الزاد، فإن عليهم أيضًا أن يتخلقوا بأخلاق العفة والقناعة، والتعفف عما سقط من غنيمة حتى تضع الحرب أوزارها. إنه خطر محدق ومصيبة محققة أن ينشغل الجند بسفاسف الأمور وسقط الغنائم أثناء طاحونة الحرب.

المطلب التاسع: الصلح مع خيبر:

لما استسلم اليهود، صالحهم النبي ﷺ، وأعطاهم الأرض، يَعْمَلُوا فيها وَيَزْرَعُوهَا، وَلَهُمْ شَطْرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا(٣).

وفي هذه المصالحة - بهذا الشكل - رحمة وعفو كبيرين بأهل خيبر.

---

(١) ابن القيم: زاد المعاد ٣ / ٢٨٣.

(٢) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٨٩٢).

(٣) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٩١٧).

فهم في الحقيقة يستحقون الإعدام ! فهم قد خانوا النبي ﷺ وغدروا وتحالفوا مع مشركي قريش سرًا، وأصبحت قيادات خيبر والفصائل اليهودية الأخرى عملاء وجواسيس لمشركي مكة وغطفان. كل هذا إلى جانب أنهم السبب الرئيسي في تحزيب جيوش الأحزاب، من كل حدب وصوب.

ولما أقدمت امرأة منهم على محاولة اغتيال النبي ﷺ حيث أهدت لِرَسُولِ الله ﷺ شَاةً فِيهَا سُمٌّ(١). وتُوفي إثر هذه المحاولة الفاشلة أحد الصحابة. لم ينقلب رسول الله ﷺ على أهل خيبر ولم يعمل فيهم القتل - كما يفعل بعض الزعماء في مثل هذه المواقف - إنما أثبت الصلح وأقر العهد.

المطلب العاشر: توقير مقدسات العدو:

لما دخل المسلمون أرض خيبر، بعد النصر واستسلام اليهود، وجد الصحابة صحائف متعددة من التوراة، كانت قد وقعت فيما وقع من غنائم للمسلمين فجاء اليهود بعد ذلك يطلبونها، فأمر النبي ﷺ في سماحة - بردها إليهم، وعاملهم معاملة حسنة، ولم يقابل إساءاتهم بإساءة، ولم يصنع النبي ﷺ مثلما صنع الرومان حين فتحوا أورشليم؛ حيث أحرقوا الكتب المقدسة.

المطلب الحادي عشر: العدل مع المغلوبين:

لقد حدث أن عبدالله بن رواحة - رضي الله عنه - لما بعثه رسول الله ﷺ يقدر على أهل خيبر محصولهم من الثمار والزروع لمقاسمتهم إياها مناصفة حسب عهد رسول الله ﷺ بعد فتح خيبر أن حاول اليهود رشوته ليرفق بهم، فقال لهم: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ، ولأنتم والله أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم !!

فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض(٢)!

لقد كان - رضي الله عنه - قد تخرج في مدرسة الرسول ﷺ على المنهج الرباني المتفرد القائم على العدل والمساواة.

* * *

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٣٩١٨).
(٢) ابن القيم: زاد المعاد ٢/ ١١.

الفصل العاشر
فَتْحُ مَكَّةَ

٢٢ رمضان ٨ هـ- يناير ٦٣٠ م

المبحث الأول
ملخص الغزوة

وسببها أن معاهدة الحديبية فتحت الباب لكل قبيلة عربية أن تدخل في عقد رسول الله ﷺ إن شاءت، أو تدخل في عقد قريش، فقد اشتملت معاهدة الصلح على مادة تنص على ذلك، فارتضت بنو بكر أن تدخل في عقد قريش، وارتضت خزاعة أن تدخل في عقد رسول الله ﷺ، وفي تلك السنة (الثامنة) اعتدت بنو بكر على خزاعة، فقتلت منها نحو عشرين رجلا، وأمدت قريش بني بكر بالمال والسلاح، فلما بلغ ذلك الرسول ﷺ سار رسول الله ﷺ إليهم من المدينة لعشر مضين من رمضان، وكان عددهم حين خروجهم من المدينة عشرة آلاف، ثم انضم إليهم في الطريق عدد من قبائل العرب، وفي (مر الظهران) عثر حرس رسول الله ﷺ على أبي سفيان واثنين معه، فأسروهم وجاؤوا بهم إلى النبي ﷺ، فأسلم أبو سفيان. ثم وصل الجيش مكة، فأعلن منادي الرسول ﷺ: من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ثم دخل رسول الله ﷺ مكة وهو راكب راحلته، عليه الخشوع والتواضع، وطاف الرسول ﷺ بالبيت، وأزال ما حولها من أصنام، وأصدر رسول الله ﷺ عفوًا عامًا عن أهل مكة. ثم اجتمع الناس حول الصفا ليبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام[١].

* * *

(١) انظر في تفاصيل الغزوة : ابن هشام ٤/ ٣١، والطبري ٣/ ١١٠، والبلاذري : أنساب الأشراف ١/ ١٧٠، وابن سيد الناس ٢/ ١٦٣، وابن القيم : زاد المعاد ٢/ ٣٨٤، والمقريزي٣٥٧، ومصطفى السباعي ص ٧٥ .

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول: ما يتعلق بالهدنة ونقضها:

أولاً: يدلنا سبب فتح مكة على أن أهل العهد والهدنة مع المسلمين، إذا حاربوا من هم في ذمة المسلمين وجوارهم، صاروا محاربين للمسلمين بذلك، ولم يبق بينهم وبين المسلمين من عهد. وهذا ما اتفق عليه علماء المسلمين(١).

ثانيا: تدلنا الطريقة التي قصد بها رسول الله ﷺ مكة، على أنه يجوز لإمام المسلمين ورئيسهم أن يفاجئ العدو بالإغارة والحرب لدى خيانته العهد ونبذه له، ولا يجب عليه أن يعلمهم بذلك، وقد دعا رسول الله ﷺ لما أجمع الخروج إلى مكة قائلاً: «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعوا بنا إلا فجأة»(٢) وهذا ما اتفق عليه عامة العلماء(٣).

أما إذا لم تقع الخيانة، وإنما خيف منهم ذلك، بسبب علائم ودلائل قوية، فلا يجوز حينئذ للإمام أن ينبذ عهدهم ويفاجئهم بالحرب والقتال، بل لابد من إعلامهم جميعًا بذلك أولاً، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨]، أي أعلمهم كلهم عن نبذك لعهدهم(٤).

المطلب الثاني: إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش:

عن علي بن أبي طالب قال:

بَعَثَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ فَقَالَ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً، مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوا مِنْهَا».

---

(١) انظر: محمد سعيد رمضان البوطي ٢٧٠.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٢٨٢.
(٣) انظر: محمد سعيد رمضان البوطي ٢٧٠.
(٤) انظر: محمد سعيد رمضان البوطي ٢٧٠.

قَالَ: فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، قُلْنَا لَهَا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ!

قَالَتْ: مَا مَعِي كِتَابٌ.

فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ.

قَالَ: فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ الله ﷺ فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى نَاسٍ بِمَكَّةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

"يَا حَاطِبُ، مَا هَذَا ؟!".

قَالَ: يَا رَسُولَ الله، لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ. كُنْتُ حَلِيفًا وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مَنْ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلاَ رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإسلام ".

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

" أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ ".

فَقَالَ عُمَرُ: " يَا رَسُولَ الله دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ".

فَقَالَ: " إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا! وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا. فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ!".

فَأَنْزَلَ الله السُّورَةَ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ①﴾[الممتحنة][1].

---

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة الفتح وما بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبي ﷺ (٣٩٣٩).

وفي هذا الموقف دلالة على عدم جواز التخابر لصالح العدو، ولا يجوز للمسلمين أن يتخذوا من أعداء الله أولياء يلقون إليهم بالمودة.

وقد عفا رسول الله ﷺ عن حاطب لعدة أسباب وجيهة:

أن حاطبًا قد شهد بدرًا، وأن الله قد تاب على حاطب، وأن عملية التخابر لم تتم ولم تنجح.

وفي عفوه ﷺ عن حاطب يدل على أهمية العفو عن أصحاب السبق والفضل في الإسلام إذا ما وقعوا في خطيئة أو ذلت أقدامهم في مصيبة.

المطلب الثالث: أسلوب مشروع في التأثير النفسي على قادة العدو:

لَمَّا سَارَ رَسُولُ الله ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فَبَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا خَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ وَبُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ يَلْتَمِسُونَ الْخَبَرَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَأَقْبَلُوا يَسِيرُونَ حَتَّى أَتَوْا مَرَّ الظَّهْرَانِ فَإِذَا هُمْ بِنِيرَانٍ كَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرَفَةَ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: مَا هَذِهِ؟! لَكَأَنَّهَا نِيرَانُ عَرَفَةَ.

فَقَالَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ: نِيرَانُ بَنِي عَمْرٍو.

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: عَمْرٌو أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ.

فَرَآهُمْ نَاسٌ مِنْ حَرَسِ رَسُولِ الله ﷺ فَأَدْرَكُوهُمْ فَأَخَذُوهُمْ فَأَتَوْا بِهِمْ رَسُولَ الله ﷺ فَأَسْلَمَ أَبُو سُفْيَانَ، فَلَمَّا سَارَ، قَالَ لِلْعَبَّاسِ: "احْبِسْ أَبَا سُفْيَانَ عِنْدَ حَطْمِ الْخَيْلِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ" فَحَبَسَهُ الْعَبَّاسُ، فَجَعَلَتْ الْقَبَائِلُ تَمُرُّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ تَمُرُّ كَتِيبَةً كَتِيبَةً عَلَى أَبِي سُفْيَانَ. فَمَرَّتْ كَتِيبَةٌ قَالَ: يَا عَبَّاسُ مَنْ هَذِهِ؟

قَالَ: هَذِهِ غِفَارُ.

قَالَ: مَا لِي وَلِغِفَارَ.

ثُمَّ مَرَّتْ جُهَيْنَةُ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ مَرَّتْ سَعْدُ بْنُ هُذَيْمٍ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَمَرَّتْ سُلَيْمُ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ.

وهي حنكة من القيادة الإسلامية للتأثير على نفسية أبي سفيان، بحيث يقتنع تمامًا بعدم جدوى المقاومة. ومن ثم تُفتح مكة دون قطرة دم، وهذا ما كان يبغيه

رسول الله ﷺ.

المطلب الرابع: حظر الشعارات والهتافات غير الأخلاقية:

وفي أثناء وقوف أبي سفيان يتأمل في ذهول وحيرة، كتائب الإسلام، حَتَّى أَقْبَلَتْ كَتِيبَةٌ لَمْ يَرَ مِثْلَهَا قَالَ: مَنْ هَذِهِ ؟

قَالَ العباس: هَؤُلاَءِ الأنصار عَلَيْهِمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، مَعَهُ الرَّايَةُ.

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: يَا أَبَا سُفْيَانَ ! الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ ! الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الْكَعْبَةُ!

فساءت هذه الكلمات أبا سفيان وقال: يَا عَبَّاسُ حَبَّذَا يَوْمُ الذِّمَارِ.

ثُمَّ جَاءَتْ كَتِيبَةٌ وَهِيَ أَقَلُّ الْكَتَائِبِ فِيهِمْ رَسُولُ الله ﷺ وَأَصْحَابُهُ وَرَايَةُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِأَبِي سُفْيَانَ. قَالَ: أَلَمْ تَعْلَمْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ؟

قَالَ: «مَا قَالَ ؟».

قَالَ: كَذَا وَكَذَا.

فَقَالَ: «كَذَبَ سَعْدٌ، وَلَكِنْ هَذَا يَوْمٌ يُعَظِّمُ الله فِيهِ الْكَعْبَةَ وَيَوْمٌ تُكْسَى فِيهِ الْكَعْبَةُ»[١].

المطلب الخامس: دخول رحيم متواضع لا دخول جبار متعال:

دخل رسول الله ﷺ مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام، وهو واضع رأسه تواضعًا لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح مستشعرًا بنعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز[٢] وعندما دخل مكة فاتحًا -وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي- رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد-وهو ابن مولى رسول الله ﷺ - ولم يردف أحدا من أبناء بني هاشم وأبناء أشراف قريش وهم كثير، وكان ذلك صبح

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح (٣٩٤٤).

(٢) انظر: محمد فوزي فيض الله: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ٣٩٦ وعلي محمد الصلابي ٢/ ٣٧٤.

يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمانٍ من الهجرة[١].

يقول الشيخ محمد الغزالي في وصف دخول النبي ﷺ مكة:

«على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ورسول الله ﷺ على ناقته تتوج هامته عمامة دسماء، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله، لقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجمّ. إن الموكب الفخم المهيب الذي ينساب به حثيثا إلى جوف الحرم، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن، إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول: كيف خرج مطاردًا ؟ وكيف يعود اليوم منصورًا مؤيدًا ؟ وأي كرامة عظمى حفه الله بها هذا الصباح الميمون؟ وكلما استشعر هذه النعماء ازداد لله على راحلته خشوعًا وانحناء»[٢].

المطلب السادس: انتماء القائد لجنوده واعتزازه بذلك أمامهم:

عن أبي هريرة قال:

كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فَجَعَلَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ عَلَى الْمُجَنِّبَةِ الْيُمْنَى، وَجَعَلَ الزُّبَيْرَ عَلَى الْمُجَنِّبَةِ الْيُسْرَى، وَجَعَلَ أَبَا عُبَيْدَةَ عَلَى الْبَيَاذِقَةِ وَبَطْنِ الْوَادِي، فَقَالَ:

"يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ادْعُ لِي الأنصار".

فَدَعَوْتُهُمْ فَجَاءُوا يُهَرْوِلُونَ فَقَالَ:

"يَا مَعْشَرَ الأنصار هَلْ تَرَوْنَ أَوْبَاشَ قُرَيْشٍ".

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: "انْظُرُوا إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ غَدًا أَنْ تَحْصُدُوهُمْ حَصْدًا"، وَأَخْفَى بِيَدِهِ وَوَضَعَ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ، وَقَالَ: "مَوْعِدُكُمْ الصَّفَا".

فَمَا أَشْرَفَ يَوْمَئِذٍ لَهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ أَنَامُوهُ. وَصَعِدَ رَسُولُ الله ﷺ الصَّفَا، وَجَاءَتْ الأنصار فَأَطَافُوا بِالصَّفَا فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أُبِيدَتْ خَضْرَاءُ قُرَيْشٍ لاَ قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ !!

(١) انظر: أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية ٣٣٧.

(٢) انظر: محمد الغزالي: فقه السيرة ٣٧٩، ٣٨٠.

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ " .

فَقَالَتْ الأنصار: أَمَّا الرَّجُلُ [يقصدون النبي ﷺ] فَقَدْ أَخَذَتْهُ رَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ وَرَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ !

وَنَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فقَالَ لهم:

" قُلْتُمْ أَمَّا الرَّجُلُ فَقَدْ أَخَذَتْهُ رَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ وَرَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ، أَلاَ فَمَا اسْمِي إِذًا؟! أَلاَ فَمَا اسْمِي إِذًا ؟! أَلاَ فَمَا اسْمِي إِذًا؟! أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ الله وَرَسُولِهِ، هَاجَرْتُ إِلَى الله وَإِلَيْكُمْ، فَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ !! " .

قَالُوا: والله مَا قُلْنَا إِلاَّ ضِنًّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ !

قَالَ: " فَإِنَّ الله وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ " [١] .

المطلب السابع: العفو العام:

عن أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ قَالَ:

لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنْ الأنصار أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلاً وَمِنْ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ فِيهِمْ حَمْزَةُ فَمَثَّلُوا بِهِمْ فَقَالَتْ الأنصار: لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ.

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل] .

فَقَالَ رَجُلٌ: لاَ قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ !

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " كُفُّوا عَنْ الْقَوْمِ إِلاَّ أَرْبَعَةً " [٢] .

وفي هذا اليوم العظيم قال النَّبِيّ ﷺ:

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (٣٣٣٢) .

(٢) سنن الترمذي - كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ ، باب من سورة النحل (٣٠٥٤) .

" لاَ يُقْتَلُ قُرَشِيٌّ صَبْرًا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "[١].

وأصدر رسول الله ﷺ قراره الشهير بالعفو العام عن مشركي مكة.

يقول "كولن" متأملاً:

"تأملوا معي كيف أنهم أخرجوه هو ومن يقف معه من بيوتهم إلى منطقة صحراوية معلنين عليهم المقاطعة، ومعلقين بنود هذه المقاطعة الشريرة على جدار الكعبة، وكانت تقضي بعدم التعامل معهم بيعًا وشراء وعدم التزوج من بناتهم أو تزويج بناتهم لهم.

وقد دامت هذه المقاطعة ثلاث سنوات بحيث اضطروا إلى أكل العشب والجذور وأوراق الأشجار، حتى هلك منهم الأطفال والشيوخ من الجوع دون أن تهتز منهم شعرة، أو تتحرك عندهم عاطفة رحمة. ولم يكتفوا بهذا، بل اضطروهم لترك بيوتهم وأوطانهم والهجرة إلى أماكن أخرى بعيدة. ولم يدعوهم في راحة هناك فبدسائسهم المختلفة سلبوا منهم طعم الراحة والاطمئنان.

وفي غزوات بدر وأُحد والخندق اشتبكوا معهم في معارك ضارية، وحرموهم حتى من أبسط حقوقهم كزيارة الكعبة، وأرجعوهم إلى ديارهم بعد إبرام معاهدة ذات شروط قاسية. ولكن الله تعالى أنعم عليهم ففتحوا مكة ودخلها رسول الله ﷺ على رأس جيش عظيم.

فكيف كانت معاملته لأهل مكة بعد كل هذا التاريخ المملوء عداوة وبغضًا؟ لقد قال لهم: "اذهبوا فأنتم الطُلَقاء"[٢].

ولو كان محمد ﷺ من ملوك الدنيا لسالت دماء أهل مكة ولكنه قابل صنيعهم بالعفو فما كان منهم إلا أن دخلوا في دين الله أفواجا.

"وفي إمكان المرء أن يتخيل المعاملة التي كان يجدر بفاتح دنيوي النزعة أن يعاملهم بها. ولكن صفح الرسول ﷺ كان لا يعرف حدوداً. فقد غفر لهم ثلاثة عشر عاماً من الاضطهاد والتآمر"[٣]. وهم الذين عذبوه وعذبوا أصحابه

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير، باب لا يقتل قرشي صبرا بعد الفتح (٣٣٣٤).

(٢) محمد فتح الله كولن ٢/ ١٠٠. (٣) مولانا محمد علي: حياة محمد و سيرته، ٢٦٩-٢٧٠.

وهجَّروه وهجروا أصحابه، وقتلوا منهم نفراً ليس بالعدد القليل.

وحول مشهد العفو العام نترك علماء الغرب يعلقون على هذا الموقف العظيم الذي يعجز اللسان عن وصف بهائه وجماله وكمال أخلاقه. فماذا عساهم أن يقولوا؟

أولاً: تعليق "اللورد هيدلي":

يقول هيدلي: "عفا بلا قيد ولا شرط عن كل هؤلاء الذين اضطهدوه وعذبوه! آوى إليه كل الذين كانوا قد نفوه من مكة! وأغنى فقراءهم، وعفا عن ألد أعدائه؛ عندما كانت حياتهم في قبضة يده وتحت رحمته!"(١).

ثانيًا: تعليق واشنجتون ايرفنج

يقول "ايرفنج"، في كتابه (حياة محمد)، مدللاً على خلق الرحمة في شخصية النبي ﷺ بموقفه في فتح مكة وهو القائد المنتصر:

"كانت تصرفات الرسول ﷺ في [أعقاب فتح] مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي. ولكنه توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو"(٢).

ثالثًا: تعليق وليم موير:

يتحدث الباحث "وليم موير" عن معاملة النبي ﷺ أعداءه تلك المعاملة التي اتسمت بالرحمة والعفو، حين فتحه مكة، فيقول:

"عامل حتى ألد أعدائه بكل كرم وسخاء حتى مع أهل مكة، وهم الذين ناصبوه العداء سنين طوالاً، وامتنعوا من الدخول في طاعته، كما ظهر حلمه وصفحه في حالتي الظفر والانتصار، وقد دانت لطاعته القبائل التي كانت من قبل أكثر مناجزة وعداء له"(٣).

رابعًا: تعليق: "جان باغوت غلوب"

يقول "غلوب":

(١) انظر: آتيين دينيه: محمد رسول الله ﷺ، ٢٧.
(٢) واشنجتون ايرفنج: حياة محمد ﷺ، ٧٢.
(٣) وليم موير: حياة محمد ﷺ، ٨٨.

وهكذا تم فتح مكة دون إراقة دماء إلى حد كبير. إلا أنه اكتسب قلوب الجميع بما أظهره من رحمة وعفو في يوم انتصاره "[١].

يقول المستشرق إميل درمنغم متحدثاً عن نبينا محمد ﷺ في حال أخلاقه في مثل هذه المواقف:

"فقد برهن محمد ﷺ في انتصاره النهائي، على عظمة نفسية؛ قلَّ أن يوجد لها مثال في التاريخ؛ إذ أمر جنوده أن يعفوا عن الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء، وحذرهم أن يهدموا البيوت، أو يسلبوا التجار، أو أن يقطعوا الأشجار المثمرة، وأمرهم ألا يجردوا السيوف إلا في حال الضرورة القاهرة، بل رأيناه يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم إصلاحاً مادياً ويقول لهم: إن نفساً واحدة خير من أكثر الفتوح ثراء!"[٢].

"وهكذا ظهر الرسول ﷺ الذي كان رحمة للعالمين، وحرر الإنسانية من أصفاد الجهل والخرافة والفساد"[٣]. بل ظهر كما وصفه المفكر البلجيكي هنري ماسيه: "يتصف بالرحمة الخالصة"[٤]. تلك الرحمة الخالصة التي غلبت دوماً - كما يبين مارسيل بوازار - على أحاديث النبي ﷺ وسيرته، فلا "تنفك الأحاديث الشريفة والسيرة النبوية تصور في الأذهان كرم الرسول وتواضعه، كما تصور استقامته ونقاءه ولطفه وحلمه. وكما يظهره التاريخ قائداً عظيماً ملء قلبه الرأفة، يصوره كذلك رجل دولة صريحاً قوي الشكيمة (ديمقراطيًّا)"[٥].

المطلب الثامن: قتل مجرمي الحرب:

استثنى رَسُولُ الله ﷺ من العفو العام، عدة أشخاص، فأَمَّنَ النَّاسَ إلاَّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ، وَقَالَ:

"اقْتُلُوهُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ:

---

(١) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٥٦-١٥٧.

(٢) انظر: بشرى زخاري ميخائيل: محمد رسول الله هكذا بشرت به الأناجيل، ص٥٠.

(٣) مولانا محمد علي: حياة محمد و سيرته، ٢٨٢.

(٤) هنري ماسيه: الإسلام، ص ١١.

(٥) مارسيل بوزار: إنسانية الإسلام، ص ٤٦.

١- عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ.

٢- وَعَبْدُ الله بْنُ خَطَلٍ.

٣- وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ.

٤- وَعَبْدُ الله بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ.

فَأَمَّا عَبْدُ الله بْنُ خَطَلٍ فَأُدْرِكَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَاسْتَبَقَ إِلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ حُرَيْثٍ، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَسَبَقَ سَعِيدٌ عَمَّارًا، وَكَانَ أَشَبَّ الرَّجُلَيْنِ فَقَتَلَهُ، وَأَمَّا مَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ فَأَدْرَكَهُ النَّاسُ فِي السُّوقِ فَقَتَلُوهُ، وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفة، فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ: أَخْلِصُوا فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لاَ تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا!

فَقَالَ عِكْرِمَةُ: والله لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنَ الْبَحْرِ إِلاَّ الإِخْلاَصُ لاَ يُنَجِّينِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ! اللهمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا ﷺ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ فَلأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كَرِيمًا!!".

فَجَاءَ فَأَسْلَمَ.

وَأَمَّا عَبْدُ الله بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ، فَإِنَّهُ اخْتَبَأَ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْقَفَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ.

قَالَ عثمان: يَا رَسُولَ الله، بَايِعْ عَبْدَ الله.

فَرَفَعَ ﷺ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلاَثًا، كُلَّ ذَلِكَ يَأْبَى.

فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلاَثٍ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ:

"أَمَا كَانَ فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حَيْثُ رَآنِي كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلُهُ!!".

فَقَالُوا: وَمَا يُدْرِينَا يَا رَسُولَ الله مَا فِي نَفْسِكَ! هَلاَّ أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ؟

قَالَ: "إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ أَعْيُنٍ" (١).

---

(١) سنن النسائي - كتاب تحريم الدم، الحكم في المرتد (٣٩٩٩) وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي، والسلسلة الصحيحة (١٧٢٣)، و صحيح الجامع (٢٤٢٦).

المطلب التاسع: من خطبه وكلماته ﷺ يوم فتح مكة:

أولاً: دحض الجاهليات:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ:

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الله قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى الله، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى الله، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ الله آدَمَ مِنْ تُرَابٍ قَالَ الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[الحجرات][1].

ثانيا: تعظيم الأراضي المقدسة:

وفي هذا اليوم العظيم قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

"إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا الله، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، لاَ يَحِلُّ لامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرًا، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ الله ﷺ فِيهَا فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ الله أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ "[2].

ثالثا: في الدماء ومآثر الجاهلية:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَامَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ -وَهُوَ عَلَى دَرَجِ الْكَعْبَةِ- فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، فَقَالَ:

"الْحَمْدُ لله الَّذِي صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، أَلاَ إِنَّ قَتِيلَ الْخَطَإِ قَتِيلَ السَّوْطِ وَالْعَصَا فِيهِ مِائَةٌ مِنْ الْإِبِلِ مِنْهَا أَرْبَعُونَ خَلِفَةً فِي بُطُونِهَا أَوْلاَدُهَا. أَلاَ إِنَّ كُلَّ مَأْثُرَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَدَمٍ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، إِلاَّ مَا كَانَ مِنْ سِدَانَةِ الْبَيْتِ وَسِقَايَةِ الْحَاجِّ، أَلاَ إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُهُمَا لِأَهْلِهِمَا كَمَا كَانَا"[3].

(١) سنن الترمذي - كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب من سورة الحجرات (٣١٩٣)، وقال الألباني - في صحيح وضعيف سنن الترمذي، حسن صحيح الإسناد، وهو في الصحيحة (٢٧٠٠).

(٢) صحيح البخاري - كتاب المغازي، باب منزل النبي ﷺ (٣٩٥٧).

(٣) سنن ابن ماجه - كتاب الديات، باب دية شبه العمد مغلظة (٢٦١٨)، وقال الألباني: حسن، في الإرواء (٧ / ٢٥٧)، وصحيح وضعيف سنن ابن ماجه.

المطلب العاشر: تطهير المقدسات الإسلامية:

ودَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلاَثمِائَةِ نُصُبٍ، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ:

" جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ. جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ "(١).

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ الله عَنْهُمَا:

أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ الْبَيْتَ وَفِيهِ الآلِهَةُ فَأَمَرَ بِهَا فَأُخْرِجَتْ، فَأُخْرِجَ صُورَةُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ فِي أَيْدِيهِمَا مِنَ الأَزْلاَمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

"قَاتَلَهُمْ الله ! لَقَدْ عَلِمُوا مَا اسْتَقْسَمَا بِهَا قَطُّ".

ثُمَّ دَخَلَ الْبَيْتَ فَكَبَّرَ فِي نَوَاحِي الْبَيْتِ وَخَرَجَ وَلَمْ يُصَلِّ فِيهِ(٢).

المطلب الحادي عشر: احترام جوار المرأة:

عن فاختة أم هانئ بنت أبي طالب قالت: لما كان يوم فتح مكة أجرت رجلين من أحمائي فأدخلتهما بيتا وأغلقت عليهما بابا فجاء ابن أمي علي بن أبي طالب فتفلت عليهما بالسيف.

قالت: فأتيت النبي ﷺ. فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: "مَنْ هَذِهِ ؟ ".

فَقُلْتُ: أَنَا أُمُّ هَانِئٍ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ.

فَقَالَ: " مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِئٍ ".

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ فَلَمَّا انْصَرَفَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، زَعَمَ ابْنُ أُمِّي أَنَّهُ قَاتِلٌ رَجُلاً قَدْ أَجَرْتُهُ فُلاَنَ ابْنَ هُبَيْرَةَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

" قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هَانِئٍ "(٣).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح (٣٩٥٠).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح (٣٩٥١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في الثوب الواحد ملتحفا به (٣٤٤).

المطلب الثاني عشر: إكرام المسنين:

جَاءَ أَبُو بَكْرٍ بِأَبِيهِ أَبِي قُحَافَةَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ يَحْمِلُهُ، حَتَّى وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ:

"لَوْ أَقْرَرْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ لَأَتَيْنَاهُ مَكْرُمَةً لِأَبِي بَكْرٍ".

فَأَسْلَمَ وَلِحْيَتُهُ وَرَأْسُهُ كَالثَّغَامَةِ بَيَاضًا.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ غَيِّرُوهُمَا وَجَنِّبُوهُ السَّوَادَ(١).

* * *

(١) مسند أحمد (١٢١٧٤)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٦).

الفصل الحادي عشر
غزوة حُنَيْنٍ والطائف
٦ شوال ٨ هـ - ٢٦ يناير ٦٣٠ م

المبحث الأول
ملخص الغزوة

لما أكرم الله المسلمين بفتح مكة، ظن زعماء هوازن وثقيف أن رسول الله ﷺ سيتوجه إليهم بعد الانتهاء من أمر مكة، فعزموا على أن يبدؤوه بالهجوم، فأمّروا عليهم مالك بن عوف - وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة - فأمرهم أن يسوقوا معهم إلى ميدان القتال أموالهم وأبناءهم ونساءهم ودوابهم؛ ليكون ذلك - بحسب وجهة نظره - أدعى إلى تثبيتهم وتشجيعهم في القتال، وقد بلغت عدة المشركين من هوازن وثقيف ما بين عشرين ألفًا إلى ثلاثين، فخرج إليهم رسول الله -مبادرًا- في جيشه الذي فتح به مكة، إضافة إلى ألفين من مكة الذين أسلموا حديثًا، إضافة إلى أناس من المشركين خرجوا حمية وطلبًا للغنيمة. فخرج كل من كان بمكة؛ أصحابه الذين قدموا معه في المعركة، ومن انضم إليهم بعد ذلك ممن أسلم حديثًا، وهنا اغتر بعض المسلمين بعددهم، وقالوا: " لن نغلب اليوم عن قلة"، وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان في وادي حنين استقبلهم المشركون بالسهام فانفرط عقدهم، وفر أهل مكة والمسلمون الجدد، وبقي رسول الله ﷺ ثابتًا في الميدان يقول: "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب"، وأخذ العباس - وكان جهوري الصوت - ينادي في المسلمين، فعاد إليه من كان مدبرا، وتجمع الجيش حتى استطاعوا أن ينتصروا كرة أخرى، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون. ولم يتوقف رسول الله ﷺ ليوزع الغنائم التي خلفها جيش العدو، بل توجه بجيشه، يلاحق فلول هوازن وثقيف الهاربة، حتى حاصرهم في عقر دارهم في الطائف، ولما طال الحصار، ورأى المسلمون مناعة الحصن، استشار النبي ﷺ أصحابه، وقرر المسلمون في نهاية الأمر رفع الحصار عن الطائف والتوجه لتوزيع الغنائم

التي خلفها المسلمون في الجعرانة. تلك الغنائم التي شرع رسول الله ﷺ في تقسيم أغلبها على المؤلفة قلوبهم، فجد الأنصار في نفوسهم من ذلك، فطيب خاطرهم بكلمات بليغة، ثم جاء وفد هوازن مسلمًا فرد رسول الله ﷺ إليهم أولادهم ونساءهم[١].

* * *

(١) انظر تفاصيل هذه الغزوة في: ابن هشام ٤/ ٨٠، والطبري ٣/ ١٢٥، وابن سيد الناس ٢/ ١٨٧، وابن كثير ٤/ ٣٢٢، وابن القيم: زاد المعاد ٢/ ٤٣٨، والمقريزي: ٤٠١.

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول: ثبات القائد لحظات النكسة:

فعن الْبَرَاءَ – وقد سَأَلَهُ رَجُلٌ مِنْ قَيْسٍ : أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ – فَقَالَ : لَكِنْ رَسُولَ الله ﷺ لَمْ يَفِرَّ. كَانَتْ هَوَازِنُ رُمَاةً، وَإِنَّا لَمَّا حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ انْكَشَفُوا فَأَكْبَبْنَا عَلَى الْغَنَائِمِ، فَاسْتُقْبِلْنَا بِالسِّهَامِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ – وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ الْحَارِثِ آخِذٌ بِزِمَامِهَا – وَهُوَ يَقُولُ : " أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِب " (١).

وهنا تبرز أهمية القيادة الإسلامية الشجاعة، والتي تُعدُّ قدوة للمقاتلين، " فلو كان على رأس جيش المسلمين قائد غير الرسول ﷺ، وكان من الهاربين، كما فعل قائد قوات المشركين ؛ لكانت نتيجة المعركة مختلفة تمامًا " (٢).

وإنك لتبصر صورة نادرة حقاً لهذه الجرأة عندما تفرقت جموع المسلمين فى الوادى وقد ولوا مدبرين، ولم يبق إلا رسول الله ﷺ وسط حومة الوغى حيث تحف به كمائن العدو التى فوجئوا بها، فثبت ثباتاً عجيباً امتد أثره الى نفوس أولئك الفارين من أصحابه، فعادت إليهم من ذلك المشهد رباطة الجأش وقوة العزيمة (٣).

قال ابن كثير: " قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم، فى حومة الوغى، وقد انكشف جيشه عنه، وهو مع هذا على بغلته، وليست سريعة الجري ولا تصلح لفرّ ولا لكرّ ولا لهرب، وهو مع ذلك أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوّه باسمه ليعرفه من لم يعرفه -صلوات الله وسلامه عليه

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب المغازي، بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ (٣٩٧٥) .

(٢) أحمد راتب عرموش ١٤٢ .

(٣) محمد سعيد رمضان البوطي ٢٩٠ .

دائماً إلى يوم الدين – وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلاً عليه وعلماً بأنه سينصره ويتم ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان "(١).

المطلب الثاني: تحريم قتل النساء والأطفال والأجراء في الحروب:

مر رسول الله ﷺ يوم حنين بامرأة قتلها خالد بن الوليد والناس مجتمعون عليها، فقال رسول الله ﷺ: "ما كانت هذه لتقاتل" وقال لأحدهم: "أدرك خالدًا فقل له إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفًا" (٢).

ويدل هذا الحديث على حرمة قتل النساء والأطفال والأجراء في المعارك. ويستثنى من ذلك الذين اشتركوا في القتال وباشروا في مقاتلة المسلمين.

" فإنهم يُقتلون مقبلين ويجب الإعراض عنهم مدبرين" (٣).

المطلب الثالث: احترام الأرحام:

لما اشتدت مقاومة أهل الطائف وقتلوا مجموعة من المسلمين أمر النبي ﷺ بتحريق بساتين العنب والنخل في ضواحي الطائف للضغط على ثقيف، ثم أوقف هذا العمل بعد أن ناشدته ثقيف بالله والرحم أن يترك هذا العمل، فقبل النبي ﷺ في سماحة وأوقف أعمال تحريق البساتين.

ووجه النبي ﷺ نداء لعبيد الطائف أن من ينزل من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حر، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثقفي فأسلموا، فأعتقهم ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم (٤).

المطلب الرابع: الدعاء لهداية العدو:

لما قفل المسلمون عن الطائف، قيل: يا رسول الله، ادع الله على ثقيف، فقال: " اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم" (٥).

إن القائد في هذا الموقف ليؤكد على أن المسلم لا يدعو على الناس اللهم إلا

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٤٥ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٤/ ٣٣٥ . (٣) محمد سعيد رمضان البوطي ٢٩٢ .

(٤) علي محمد الصلابي ٢/ ٣٩٩، أكرم ضياء العمري : السيرة النبوية الصحيحة، ٢/ ٥١٠ .

(٥) ابن القيم : زاد المعاد ٣/ ٤٩٧ .

لهدايتهم، كما أن دعاءه هذا يبين أن الحرب في الإسلام لا تكون إلا من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحرص أشد الحرص على هداية الناس لا على هلاكهم.

المطلب الخامس: سياسة تأليف القلوب بالمال والكلام:

عن أَنَس بْن مَالِكٍ، أَنَّ أُنَاسًا مِنَ الأنصار قَالُوا يَوْمَ حُنَيْنٍ حِينَ أَفَاءَ الله عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ مَا أَفَاءَ، فَطَفِقَ رَسُولُ الله ﷺ يُعْطِي رِجَالاً مِنْ قُرَيْشٍ الْمِائَةَ مِنَ الإِبِلِ، فَقَالُوا: يَغْفِرُ الله لِرَسُولِ الله ! يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ. قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَحُدِّثَ ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ قَوْلِهِمْ فَأَرْسَلَ إِلَى الأنصار فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ، رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ:

" مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ ؟ ".

فَقَالَ لَهُ فُقَهَاءُ الأنصار: أَمَّا ذَوُو رَأْيِنَا يَا رَسُولَ الله فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا وَأَمَّا أُنَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ قَالُوا: يَغْفِرُ الله لِرَسُولِهِ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالاً حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ، أَفَلاَ تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَالِ وَتَرْجِعُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ الله؟! فَوالله لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ " فَقَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله قَدْ رَضِينَا.

قَالَ: " فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ أَثَرَةً شَدِيدَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْا الله وَرَسُولَهُ فَإِنِّي عَلَى الْحَوْضِ". قَالُوا: "سَنَصْبِرُ "[١].

المطلب السادس: رد سبي هوازن إلى أهلهم:

عن مَرْوَانَ وَالْمِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَامَ حِينَ جَاءَهُ وَفْدُ هَوَازِنَ مُسْلِمِينَ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَسَبْيَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: " مَعِي مَنْ تَرَوْنَ وَأَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ، فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ: إِمَّا السَّبْيَ وَإِمَّا الْمَالَ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِكُمْ ".

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه١٧٥٣ .

وَكَانَ أَنْظَرَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حِينَ قَفَلَ مِنْ الطَّائِفِ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ غَيْرُ رَادٍّ إِلَيْهِمْ إِلاَّ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ.

قَالُوا: "فَإِنَّا نَخْتَارُ سَبْيَنَا".

فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الْمُسْلِمِينَ فَأَثْنَى عَلَى الله بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ:

" أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ الله عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ".

فَقَالَ النَّاسُ: قَدْ طَيَّبْنَا ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله!

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: " إِنَّا لاَ نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ، فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ ".

فَرَجَعَ النَّاسُ فَكَلَّمَهُمْ عُرَفَاؤُهُمْ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ قَدْ طَيَّبُوا وَأَذِنُوا[١].

* * *

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ (٣٩٧٦).

الفصل الثاني عشر
غزوة تبوك
رجب ٩ هـ

المبحث الأول
ملخص الغزوة

وسببها أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام ضمت قبائل لخم، وجذام، وعاملة، وغسان، وهي من نصارى العرب، وكان قصد هرقل من ذلك، الهجوم على المدينة والقضاء على الدولة الناشئة في جزيرة العرب التي أخذت أخبارها وأخبار انتصاراتها تثير جزع هرقل وخوفه، فندب رسول الله ﷺ الناس للخروج، وكان الوقت وقت عسر شديد وحر شديد، فانتدب المؤمنين الصادقين عن طيب نفس، وتخلف ثلاثة منهم من صادقي الإيمان، وندب رسول الله ﷺ الأغنياء لتجهيز جيش العسرة، فجاءوا بأموال كثيرة؛ جاء أبوبكر بماله كله، وجاء عمر بنصف ماله، وتصدق عثمان يومئذ بمال كثير، وجهز ثلث الجيش.

وسار رسول الله ﷺ بالناس ومعه ثلاثون ألف مقاتل، ومن الخيل عشرة آلاف، وكان هذا أعظم ما رأته العرب حتى ذاك، ثم واصل سيره حتى بلغ تبوك، فأقام فيها نحوا من عشرين ليلة، ولم يلق فيها كيدًا، ولم يدخل حربًا[1].

* * *

(١) انظر تفاصيل هذه الغزوة في: ابن هشام ٤/ ١٥٩، والطبري ٣/ ١٤٢، وابن سيد الناس ٢/ ٢١٥، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣، المقريزي: ٤٤٥، ومصطفى السباعي ٣٠.

المبحث الثاني
آداب الحروب

المطلب الأول: الحرب الاستباقية:

وصلت الأنباء للنبي ﷺ من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعا وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من مستنصرة العرب، وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء[١] فأراد النبي ﷺ أن يغزوهم قبل أن يغزوه[٢].

إن ذلك يبين مدى الفقه العسكري لدى القيادة الإسلامية التي تقرر مثل هذا القرار، إن القيادة الإسلامية على مدار السيرة المباركة لا تنتظر حتى يباغتها العدو في عقر دار المسلمين.

المطلب الثاني: التجهز للغزوة والرغبة الشعبية في التطوع والجهاد:

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى امتثاله، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة ـ إلا الذين في قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر ـ حتى كان يجيء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ؛ ليخرجوا إلى قتال الروم، فإذا قال لهم: ﴿ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾[التوبة: ٩٢].

كما تسابق المسلمون في إنفاق الأموال وبذل الصدقات، كان عثمان بن عفان قد جهز عيراً للشام، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية، فتصدق بها، ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم جاء بألف دينار فنثرها في حجره ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يقلبها ويقول: (ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم)، ثم تصدق

---

(١) البلقاء: بين الشام ووادي القرى عاصمتها عمان.

(٢) انظر: ابن سعد ٢/ ١٦٥.

وتصدق حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وجاء أبو بكر بماله كلّه ولم يترك لأهله إلا رحمة الله ورسوله. وكانت أربعة آلاف درهم. وهو أول من جاء بصدقته. وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة، كلهم جاءوا بمال. وجاء عاصم بن عدي بتسعين وَسْقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها، حتى كان منهم من أنفق مُدًّا أو مدين لم يكن يستطيع غيرها. وبعثت النساء ما قدرن عليه من مَسَك ومعاضد وخلاخل وقُرْط وخواتم.

ولم يمسك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩][١].

المطلب الثالث: ممارسة الشورى في غزوة تبوك:

مارس رسول الله ﷺ في هذه الغزوة الشورى وقبل مشورة الصدِّيق والفاروق في بعض النوازل التي حدثت في الغزوة ومن هذه النوازل[٢]:

أولاً: قبول مشورة أبي بكر الصديق في الدعاء حين تعرض الجيش لعطش شديد:

قال عمر بن الخطاب: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه، ثم يجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرا، فادع الله، قال: أتحب ذلك؟ قال: نعم، فرفع يديه فلم يردهما حتى حالت السماء فأظلت ثم سكبت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[٣].

ثانيا: قبول مشورة عمر بن الخطاب في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعة:

أصابت جيش العسرة مجاعة أثناء سيرهم إلى تبوك، فاستأذنوا النبي ﷺ في

(١) انظر: صفي الرحمن المباركفوري: ٣٣٦، ٣٣٧.
(٢) انظر: علي محمد الصلابي ٢/ ٤٦٢.
(٣) ابن حبان، كتاب الجهاد، باب غزوة تبوك (١٧٠٧).

نحر إبلهم حتى يسدوا جوعتهم، فلما أذن لهم النبي ﷺ في ذلك جاءه عمر فأبدى مشورته في هذه المسألة وهي أن الجند إن فعلوا ذلك نفدت رواحلهم وهم أحوج ما يكونون إليها في هذا الطريق الطويل، ثم ذكر حلا لهذه المعضلة وهو: جمع أزواد القوم ثم الدعاء لهم بالبركة فيها، فعمل ﷺ بهذه المشورة حتى صدر القوم عن بقية من هذا الطعام بعد أن ملأوا أوعيتهم منه وأكلوا حتى شبعوا(١).

ثالثا: قبول مشورة عمر في ترك اجتياز حدود الشام والعودة إلى المدينة:

عندما وصل النبي ﷺ إلى منطقة تبوك وجد أن الروم فروا خوفًا من جيش المسلمين، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشام، فأشار عليه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بأن يرجع بالجيش إلى المدينة وعلل رأيه بقوله: إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام، ولقد كانت مشورة مباركة؛ فإن القتال داخل بلاد الرومان يعد أمرًا صعبًا، إذ إنه يتطلب تكتيكًا خاصًا لأن الحرب في الصحراء تختلف في طبيعتها عن الحرب في المدن، بالإضافة إلى أن عدد الرومان في الشام يقرب من مائتين وخمسين ألفًا، ولا شك في أن تجمع هذا العدد الكبير في تحصنه داخل المدن يعرض جيش المسلمين للخطر(٢).

إن ممارسة الشورى في حياة الأمة في كل شئونها السياسية والعسكرية والاجتماعية. إلخ منهج تربوي كريم سار عليه الحبيب المصطفى ﷺ في حياته.

المطلب الرابع: الدروس التربوية العملية لجند الله:

مر الجيش الإسلامي في طريقه إلى تبوك بالحِجْر. ديار ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، أي وادي القُرَى. فاستقي الناس من بئرها، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: " لاَ تَشْرَبُوا مِنْ مَائِهَا شَيْئًا، وَلاَ تَتَوَضَّئُوا مِنْهُ لِلصَّلاَةِ وَمَا كَانَ مِنْ عَجِينٍ عَجَنْتُمُوهُ فَاعْلِفُوهُ الإِبِلَ وَلاَ تَأْكُلُوا مِنْهُ شَيْئًا " (٣)، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها ناقة صالح رسول الله - عليه السلام(٤).

---

(١) انظر: علي محمد الصلابي ٢/ ٤٦٢ .

(٢) انظر: محمد أحمد باشميل : غزوة تبوك ، ص١٧٦، ١٧٧ .

(٣) ابن هشام ٢/ ٥٢١ .

(٤) صفي الرحمن المباركفوري ٣٣٨ .

وعن ابن عمر قال: لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: « لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ »[١]، ثم قَنعَ رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادي.

وهذا منهج نبوي كريم في توجيه القائد جنوده إلى الاعتبار بديار وآثار الغابرين والهالكين، وأن يتذكروا بها غضب الله على الذين خالفوا منهجه، وألا يغفلوا عن مواطن العبرة برسومها الدارسة، وأطلالها القديمة، ونهاهم عن الانتفاع بشيء مما في ربوعها، حتى الماء لكيلا تفوت بذلك العبرة، وتخف الموعظة، بل أمرهم بالبكاء، وبالتباكي، تحقيقا للتأثر بعذاب الله ، ولو أنهم مروا بها كما نمر نحن بآثار السابقين، لتعرضوا لسخط الله، فإن الغابرين شهدوا المعجزات ودلائل النبوة، وعاينوا العجائب، لكن قست قلوبهم فاستهانوا بها، وحق عليهم العذاب، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون من نقمة الله وغضبه[٢].

* * *

(١) صحيح البخاري، كِتَاب أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ (٣١٣٠) .
(٢) علي محمد الصلابي ٢/ ٤٣٧ .

الفصل الثالث عشر
أخلاق الرسول ﷺ مع غير المسلمين

المبحث الأول
الحوار لا الصدام

المطلب الأول: الحوار مظهر من مظاهر الرحمة:

إن تقديم لغة الحوار(١) على أسلوب الصدام، حقنًا للدماء وتغليب العقل على العنف، يعد من مظاهر الرحمة في شخصية النبي ﷺ، الذي ضرب المثل الأعلى في ميدان الحوار والتفاوض، كما ضرب المثل الأعلى في القتال والزود عن حياض الدين والوطن.

إنّ الإسلام هو دين الحوار والاعتراف بالآخر، وهو شريعة تطوير القواسم المشتركة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وإيجاد السّبل الكفيلة بتحقيق ذلك بما يساعد على العيش بسلام وأمن وطمأنينة، ويحفظ الإنسان من أن يحيا حياة الإبعاد والإقصاء ونكران الآخر. لهذا أمر الإسلام بالحوار والدّعوة بالتي هي أحسن، وسلوك الأساليب الحسنة، والطّرق السلمية في مخاطبة الآخر. قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[النحل] (٢).

على هذه الأسس يرسي القرآن الكريم قواعد الحوار في الإسلام على أساس الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، إنه منهج حضاري متكامل في ترسيخ مبادئ الحوار بين الشعوب والأمم. " ومن الملاحظ على التعبير

---

(١) للباحث دراسة تحت عنوان: حوار الحضارات: الموجود والمفقود والمنشود، ومقالة تحت عنوان: دور الإسلام في مشروع حوار الحضارات، مجلة المجتمع، الكويت، العدد١٦٧٧، بتاريخ ١٩/ ١١/ ٢٠٠٥.

(٢) انظر: يوسف القرضاوي: خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، ص٤٠.

القرآني المعجز في الآية: أنه اكتفى في الموعظة بأن تكون (حسنة)، ولكنه لم يكتف في الجدال إلا أن يكون بالتي هي(أحسن)؛ لأن الموعظة - غالباً - تكون مع الموافقين، أما الجدال فيكون - عادة - مع المخالفين؛ لهذا وجب أن يكون بالتي هي أحسن. على معنى أنه لو كانت هناك للجدال والحوار طريقتان: طريقة حسنة وجيدة، وطريقة أحسن منها وأجود، كان المسلم الداعية مأموراً أن يحاور مخالفيه بالطريقة التي هي أحسن وأجود »[١].

ولذلك قال الله تعالى أيضا: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾[العنكبوت] فالحوار ممكن لأنّ هناك قواسم مشتركة، وهناك مجال للتّفاهم والتّقارب، وهي الإيمان بما أُنزل على المسلمين وغيرهم، فالمصدر واحد وهو الله. فليتعارفوا وليعرفوا بعضهم، ومن ثم فليتقاربوا وليتعاونوا على ما هو صالح لهم جميعا. فالقرآن يعطينا أسلوب بدء اللّقاء والحوار، وكيف نستغلّ نقط التّلاقي بين المتحاورين. فيبيّن الأصول التي يمكن الاتّفاق عليها ويركّز على ذلك فيقول: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران] ويبيّن الإسلام نوع العلاقة التي يجب أن تسود المسلمين وغيرهم. إنّها علاقة التّعاون والإحسان والبرّ والعدل. فهذا هو الحوار الحضاري والعلاقة السامية، قال تعالى: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة].

" وتلك القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أعدل القواعد التي تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية، بل نظرته الكلية لهذا الوجود "[٢].

ومن ثم يتبين للباحث مدى الرحمة الواسعة التي منحها الإسلام ورسول الإسلام ﷺ، للبشر المخالفين للإسلام، فقرر الشرع أن التعامل يكون بالحوار،

(١) انظر: يوسف القرضاوي : خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، القاهرة، ص ٤١ .
(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن ،(٦/ ٣٥٤٤) .

والدعوة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ويخص الإسلام أهل الكتاب بهذا الفضل، فهم أهل كتاب، وإخوة في الإنسانية، فالإسلام لا ينهانا أن نبر ونحسن إلى اليهود والنصارى ما داموا لم يقاتلون المسلمين في الدين ولم يخرجوا المسلمين من ديارهم، ونداء المسلم دائمًا لأهل الكتاب أن ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾.

المطلب الثاني: الإسلام يرفض المركزية الحضارية:

ونعتقد مع ذلك أن الإسلام كدين وحضارة عندما يدعو إلى الحوار مع الآخر. ينكر (المركزية الحضارية) التي تريد العالم حضارة واحدة مهيمنة ومتحكمة في الأنماط والتكتلات الحضارية الأخرى، فالإسلام يريد العالم (منتدى حضارات) متعدد الأطراف، يريد الإسلام لهذه الحضارات المتعددة أن تتفاعل وتتساند؛ في كل ما هو مشترك إنساني عام. وإذا كان الإسلام ديناً عالمياً وخاتم الأديان، فإنه في روح دعوته وجوهر رسالته لا يرمي إلى (المركزية الدينية) التي تجبر العالم على التمسك بدين واحد. إنه ينكر هذا القسر عندما يرى في تعددية الشرائع الدينية سنة من سنن الله تعالى في الكون، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[المائدة:٤٨]. وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود][(١)].

إن دعوة النبي ﷺ إلى الحوار مع باقي الدول والحضارات تنبع من رؤيته في التعامل مع غير المسلمين الذين يؤمنون برسالتهم السماوية، فعقيدة المسلم لا تكتمل إلا إذا آمن بالرسل جميعاً: قال تعالى:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة].

لقد حمل نبي الرحمة ﷺ وأتباعه قيم الإسلام العليا ومثله السامية وأخذوا في نشرها في كل أرجاء الدنيا، دون إجبار الناس عليها، وبدأت عملية التفاعل بين

(١) انظر : حسن عزوزي: الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري، مجلة البلاغ، يناير ٢٠٠٧ .

الحضارة الإسلامية والحضارات الأوروبية والمصرية والفارسية والهندية. فلم يلغ الإسلام الحضارة المصرية إنما جودها، ولم يلغ الإسلام حضارة الهند إنما هذبها، ونقى الحضارات من خبيث العقائد والأفكار، وجلى الطيب النافع من الموروثات والثقافات القديمة.

ومع مرور الزمن وانصرام القرون نتجت حضارة إسلامية جديدة أسهمت في إنضاجها مكونات حضارات الشعوب والأمم التي دخلت في الإسلام، فاغتنت الحضارة الإسلامية بكل ذلك عن طريق الحوار والتفاعل، وكانت هي بدورها فيما بعد عندما استيقظت أوروبا من سباتها وأخذت تستعد للنهوض مكوناً حضارياً ذا بال أمدّ الحضارة الأوروبية الغربية بما تزخر به من علوم وقيم وعطاء حضاري متنوع[١].

الشيء نفسه يمكن قوله عن الحضارة الغربية التي لم تظهر فجأة، بل تكونت خلال قرون كثيرة حتى بلغت أوجها في عصرنا الحاضر وذلك نتيجة التفاعل الحضاري مع حضارات أخرى هيلينية ورومانية وغيرها، وبفعل التراكم التاريخي وعمليات متفاعلة من التأثر والتأثير خلال التاريخ الإنساني الحديث. إن أكبر دليل على أن الحضارة الإسلامية لم تسع في أي وقت من الأوقات إلى التصادم مع الحضارة الغربية، هو أن العرب والمسلمين لم يضعوا في أي زمن من الأزمان صوب أهدافهم القضاء على خصوصيات الحضارة الغربية وهويتها الحضارية[٢].

المطلب الثالث: نماذج عملية من سيرة النبي ﷺ:

إليك هذه النماذج الطيبة من سيرة النبي ﷺ، والتي تبين كيف كان النبي يحاور الحضارات والأمم الأخرى، يدعوها إلى كلمة سواء.

فبعدما عقد النبي ﷺ هدنة بينه وبين مشركي مكة الذين حاربوه على مدار ثمانية عشر عاماً - أو أكثر - استغل النبي ﷺ هذه الهدنة في مراسلة زعماء وأمراء وملوك العالم. للحوار والتواصل والتعريف بدعوة الإسلام. مركزاً في خطاباته على قيم السلام وحرية الاعتقاد، نرى ذلك جلياً في محتوى هذه الرسائل.

---

(١) انظر: حسن عزوزي: الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري، مجلة البلاغ، يناير ٢٠٠٧.

(٢) انظر: حسن عزوزي: الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري، مجلة البلاغ، يناير ٢٠٠٧.

هذا، ولنتأمل أحد هذه النماذج المشرقة، ولتكن رسالة النبي ﷺ إلى الملك المقوقس. فكتب النبي ﷺ إلى جُرَيْج بن مَتَّي الملقب بالمُقَوْقِس ملك مصر والإسكندرية، رسالة نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران] [١].

واختار لحمل هذا الخطاب الصحابي المتحدث حاطب بن أبي بَلْتَعَة.

وجدير بنا أن نذكر كلام حاطب للمقوقس حتى يعرف الغرب أن هذه البعوث كانت تعرف هدفها جيداً كما أنها بلغت حداً من الفقه والحصافة يستحق الإعجاب البالغ.

قال حاطب: إن هذا النبي دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته، فحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به!

فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه. ولا ينهي عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى، وسأنظر.

وأخذ كتاب النبي ﷺ، فجعله في حُقٍّ من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى النبي ﷺ:

---

(١) انظر: البيهقي: دلائل النبوة، ج ٥، ص ٤، وما بعدها، باب ما جاء في كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس.

"بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد : فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت بغلة لتركبها، والسلام عليك" [١].

ولم يزد على هذا ولم يسلم، فتزوج رسول الله ﷺ مارية، فأنجبت له طفل. سماه إبراهيم، تقديراً وتشريفاً لأبي الأنبياء عليه السلام، أما سيرين، فقد تزوجها الشاعر حسان بن ثابت.

"تلك مُثلٌ لرسائله إلى رجالات النصرانية ومواقفهم منها. وقد ساق النبي كذلك مبعوثيه إلى رؤساء المجوسية يدعونهم إلى الله، ويحدثونهم عن الدين الذي لو تبعوه نقلهم من الغي إلى الرشاد. وقد تفاوتت ردودهم، بين العنف واللطف والإيمان والكفر" [٢].

و النبي ﷺ بذلك أول من نادى بالحوار بين الحضارات والدول، في سبيل نشر قيم سامية. ومارس هذا الحوار كما رأيت بمستوى عال من الأدب وحسن الخلق واحترام الرأي الآخر.

ولقد أرسل الرسول ﷺ الكثير من الرسل والسفراء - يدعوهم إلى الإسلام - ولتحقيق مثل هذا الحوار بينه وبين الأمم والحضارات الأخرى وملوك وزعماء العالم :

(١) فبعث الصحابي الفاضل دحية بن خليفة الكلبي - وكان أنيقًا وسيمًا -، إلى قيصر ملك الرومان، واسمه هرقل.

(٢) وبعث الصحابي المناضل عبد الله بن حذافة السهمي - وكان راسخ الفكر والإيمان متحدثًا بليغًا - إلى كسرى ابرويز بن هرمز، ملك الفرس.

(٣) وبعث الصحابي الجليل عمرو بن أمية الضمري - وكان لبقًا ذكيًا-، إلى النجاشي ملك الحبشة، ثم بعثه النبي ﷺ مرة أخرى إلى مُسَيْلِمَةَ الْكَذّابِ مدعي النبوة المشهور، برسالة، وَكَتَبَ إلَيْهِ بِكِتَابِ آخَرَ مَعَ السّائِبِ بْنِ الْعَوّامِ أَخِي الزّبَيْرِ

(١) انظر : المصدر السابق .

(٢) محمد الغزالي : فقه السيرة، ص ٢٧٤ .

فَلَمْ يُسْلِمْ.

(٤) وبعث - فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ - الصحابي القائد عمرو بن العاص - داهية العرب - إلى جَيْفَرٍ وَعَبْدِ الله ابْنَيْ الجُلَنْدَى الأَزْدِيَّيْنِ، ملكي عمان.

(٥) وبعث الصحابي الجليل سليط بن عمرو إلى هوذة بن علي، الملك على اليمامة، وإلى ثمامة بن أثال، الحنفيين.

(٦) وبعث الصحابي الجليل الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيّ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى الْعَبْدِيّ مَلِكِ الْبَحْرَيْنِ.

(٧) وبعث الصحابي الجليل شجاع بن وهب الأسدي، من أسد خزيمة، إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، وابن عمه جبلة بن الأيهم، ملكي البلقاء من عمال دمشق للرومان.

(٨) وبعث الصحابي الجليل الْمُهَاجِرَ بْنَ أَبِي أُمَيّةَ الْمَخْزُومِيّ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ الْحِمْيَرِيّ أحد زعماء اليمن، وقال: سأنظر.

(٩) وبعث العلامة الفقيه معاذ بن جبل إلى جملة اليمن، داعياً إلى الإسلام، فأسلم جميع ملوكهم، كذى الكلاع وذي ظليم وذي زرود وذي مران وغيرهم.

(١٠) وَبَعَثَ الصحابي الجليل جَرِيرَ بْنَ عَبْدِ الله الْبَجَلِيّ، إِلَى ذِي الْكَلَاعِ الْحِمْيَرِيّ وَذِي عَمْرٍو يَدْعُوهُمَا إِلَى الإسلام فَأَسْلَمَا وَتُوُفّيَ رَسُولُ الله ﷺ وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ.

(١١) وَبَعَثَ الصحابي الجليل عَيّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ الْمَخْزُومِيّ برسالة إِلَى الْحَارِثِ وَمَسْرُوحٍ وَنُعَيْمٍ بَنِي عَبْدِ كُلَالٍ زعماء من حِمْيَرَ.

(١٢) وَبَعَثَ إِلَى فَرْوَةَ بْنِ عَمْرٍو الْجُذَامِيّ يَدْعُوهُ إِلَى الإسلام. وكَانَ فَرْوَةُ عَامِلاً لِقَيْصَرَ بِمَعَانَ فَأَسْلَمَ وَكَتَبَ إِلَى النّبِيّ ﷺ بِإِسْلَامِهِ وَبَعَثَ إِلَيْهِ هَدِيّةً مَعَ مَسْعُودِ بْنِ

---

(١) انظر: هذه البعوث في كتب السيرة : ابن حزم : جوامع السيرة ٢٩، ٣٠، وابن هشام ٤/ ٢٥، وابن سعد ١ / ٢- ١٥، و محمد بن حبيب البغدادي : المحبر ٧٥ ، وابن سيد الناس : عيون الأثر ٢/ ٢٦٠ - ٢٧٠، وابن كثير : السيرة النبوية ٤/ ٢٦٢، والإمتاع ٣٠٧ وتهذيب النووي ١/ ٣٠، وابن القيم : زاد المعاد ١/ ١١٦ . وانظر صور ونصوص رسائل النبي إلى الملوك في كتاب محمد حميد الله : الوثائق السياسية ص ١٣٥ وما بعدها .

سَعْدٍ وَهِيَ بَغْلَةٌ شَهْبَاءُ وَفَرَسٌ وَحِمَارٌ وَبَعَثَ أَثْوَابًا وَقَبَاءً مِنْ سُنْدُسٍ مُخَوَّصٍ بِالذَّهَبِ فَقَبِلَ ﷺ هَدِيَّتَهُ وَوَهَبَ لِمَسْعُودِ بْنِ سَعْدٍ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً وَنِشًا(١).

وأسلم سائر الملوك والأمراء الذين ذكرنا، وأسلم قومهم، حاشا قيصر والمقوقس وهذوة وكسرى والحارث بن أبي شمر. وتأخر إسلام ثمامة بن أثال، ثم أسلم مختاراً بعد ذلك.

وهكذا، أحدث الرسول ﷺ هذا الحوار البناء بين أمة الإسلام والأمم الأخرى في شتى بقاع العالم. وتواصل مع قيادات ورموز العالم آن ذاك. فمنهم من تجاوب وتناقش، ومنهم من تعامل مع رسل النبي بوقاحة، كما فعل كسرى.

وهذا مظهر فريد من مظاهر الرحمة في شخصية النبي ﷺ، فقد قدم الحوار على الصدام في تعامله مع الأمم الأخرى لاسيما المخالفة للإسلام، وراسل النبي ﷺ زعماء وأمراء وملوك العالم؛ برسائل على مستوى عال من التحضر والذوق الرفيع، لتعريفهم بدعوة الإسلام وغايته. فحقن الدماء وأعلى من شأن الحوار والتبادل العلمي والثقافي، حتى استفادت أوروبا من الحضارة الإسلامية في بناء النهضة العلمية الأوروبية الحديثة.

* * *

المبحث الثاني
حرص النبي ﷺ على نشر السلام

لمحمد ﷺ الفضل الأعظم في نشر السلام في ربوع الجزيرة العربية، التي عاشت عدة قرون في حروب طاحنة ومعارك على أتفه الأسباب، وكثرت حروب "الفجار" التي انتهك أصحابها حرمة البلد الحرام.

وفي هذا المبحث نبين من خلال شهادات علماء الغرب والمواقف والأحداث؛ هذا المظهر من مظاهر الرحمة في شخصية محمد ﷺ:

المطلب الأول: محمد ﷺ رجل السلام(١):

يقول المفكر هنري ماسيه:

" إذا بحثنا عن محمد ﷺ إجمالياً نجده ذا مزاج عصبي(٢)، و فكر، دائم التفكير، ونفس باطنها حزن، وأما مداركه فهي تمثل شخصاً يعتقد بإله واحد، وبوجود حياة أخرى، ويتصف بالرحمة الخالصة، والحزم في الرأي والاعتقاد، ويضاف إليه أنه رجل حكومة، وأحياناً رجل سياسة وحرب، ولكنه لم يكن ثائراً بل كان مسالماً "(٣).

ووصف جورج بروك(٤) الإسلام بأنه: " دين السلام والمحبة بين البشر "(٥).

وقال عنه المفكر الأيرلندي برناردشو: " إنه دين التعاون والسلام والعدالة في ظل شريعة محكمة لم تدع أمراً من أمور الدنيا إلا رسمته ووزنته بميزان لا يخطئ أبداً"(٦).

---

(١) أرجو ألا نفهم من ذلك أن رسول الله رجل سلام وفقط، بل كان رجل حرب أيضًا، فكان رائدا في ميدان القتال والبأس ورائدا في ميدان الصلح والسلام .

(٢) هذه الجملة نرفضها، بل كان سيدنا محمد ﷺ هادئ الطبع، لين العريكة .

(٣) هنري ماسيه : الإسلام ، ص ١١ .

(٤) عضو البرلمان البريطاني .

(٥) مجلة العالم الإسلامي العدد ٧ ، السنة الخامسة .

(٦) مجلة الذكرى عدد ٧ ، دورة ١ ص ٢٢ .

إن إقرار السلام في منطقة الجزيرة العربية الذي حققه محمد ﷺ يعد بحق مظهراً مهماً من مظاهر الرحمة، فقد شهدت الجزيرة العربية في عهد محمد ﷺ عدة معاهدات سلمية، مما يبين فضل رسول الله ﷺ في نشر ثقافة السلام بين العرب بعد قرون طويلة من الجاهلية والحروب الأهلية، وفضله في حقن الدماء وحفظ الأعراض والمقدسات، التي كانت منتهكة في عصور الجاهلية. ولم تحدث أي حروب أهلية - في الجزيرة العربية - بعد ظهور محمد ﷺ وتسلمه زمام قيادة العرب.

المطلب الثاني: نموذج في حادث بناء الكعبة:

لما بلغ محمد ﷺ من عمره الخامسة والثلاثين - أي قبل بعثته بخمس سنين- تعرضت الكعبة للهدم، بسبب سيل عرم انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصًا على مكانتها، فعمدت قريش إلى بنائها، فلما تنازع القرشيون فيما بينهم من الذي يضع الحجر الأسود في مكانه، واختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يحكّموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد(١)، فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك محمد ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين(٢)، قد رضينا به هذا محمد(٣)، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب رداء فوضع الحجر وسطه وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده فوضعه في مكانه(٤).

وهذا حل حكيم من رجل حكيم تراضت قريش بحكمه.

---

(١) ابن سيد الناس: عيون الأثر ١/ ٧٥ .

(٢) الحاكم : المستدرك، ١ / ٦٢٨ من حديث عبد الله بن السائب، برقم ١٦٨٣ .

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك١/ ٥٢٦، وابن كثير: البداية والنهاية، ٢/ ٣٠٣ .

(٤) انظر في هذه الحادثة أيضاً: محمد بن يوسف الصالحي : سبل الهدى والرشاد، ٢/ ١٧١، وابن الجوزي : صفة الصفوة، ١/ ٧٧ .

ولقد راح المفكرون والعلماء، يعلقون على هذا الحادث بتعليقات مليئة بالتقدير والإعجاب لهذه الشعلة العبقرية التي تحاول في حرص شديد دائم على تحقيق الأمن والسلم بين الناس، وعن نجاح محمد ﷺ من تفهم الموقف بسرعة عظيمة، والتوصل بهذه الحيلة البريئة إلى إرضاء زعماء قريش جميعاً.

فقد استرعت هذه الحادثة انتباه الباحث الألماني أغسطينوس موللر (١١٤٨- ١٨٩٤)، فتوقف عندها مليًا، في كتابه "الإسلام "، وتعرض لسياسة النبي ﷺ في هذا المقام وأنه "أدهش قريشاً بسياسته الرشيدة "[١].

كما توقف الأب هنري لامنس عند هذه الحادثة فقال:

" لما اختلفت قريش في قضية بناء الكعبة، وأي فخذ منها يجب أن يعهد إليه بوضع الحجر الأسود في مكانه، وكادوا يقتتلون، فاتفقوا على أن يعهدوا بذلك إلى محمد بن عبد الله الهاشمي ﷺ، قائلين: هذا هو الأمين ! "[٢].

ولقد ربط المستشرق "أرثر جيلمان" بين هذه الحادثة التي منعت اقتتال القبائل العربية، وبين المرحلة التالية لبدء البعثة والوحي، والتي تشكل مقدمة الدعوة الإسلامية، بقوله:

" لا بد أن يكون محمد ﷺ قد تأثر بإعجاب القوم وتقديرهم العظيم بهذه الفكرة التي بسطت السلام بين مختلف القبائل، ولايستبعد أن يكون محمد ﷺ قد أخذ يحس بنفسه أنه من طينة أرقى من معاصريه، وأنه يفوقهم جميعاً ذكاءً وعبقرية، وأن الله قد اختاره لأمر عظيم! "[٣].

المطلب الثالث: نماذج المعاهدات مع القبائل المجاورة للمدينة:

وقد ذكرنا كيف معاهداته مع القبائل المجاورة للمدينة، وكان منها:

مُوَادَعَةُ بَنِي ضَمْرَةَ ومُوَادَعَةُ جهينة في العام الثاني من الهجرة.

ومحاولة الصلح مع غطفان في معركة الأحزاب في العام الخامس من الهجرة

---

(١) انظر: محمد شريف الشيباني: الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، ص ٢٢، ٢٣ .
(٢) هنري لامنس : عهد الإسلام ، ص٦٥ .
(٣) أرثر جيلمان : الشرق ، ص ١١٧ .

وصلح الحديبية في السادس من الهجرة.

والصلح مع أهل خيبر في العام السابع من الهجرة.

وقد دلت هذه المعاهدات على مقتضيات أخلاقية سامية، فنرى فيها الرسول القائد السمح ﷺ يوادع هذه القبائل على النصرة المتبادلة في المعروف، ويضمن لهم النبي الأمن والأمان على الأموال والأنفس، ويظهر لهم النبي ﷺ أخلاق الإحسان والصلة.

* * *

المبحث الثالث

رحمة النبي ﷺ بالخصوم والأعداء

المطلب الأول: محمد ﷺ القائد الرحيم:

يتحدث الباحث "وليم موير" عن معاملة النبي ﷺ أعداءه تلك المعاملة التي اتسمت بالرحمة والعفو، حين فتح مكة (في رمضان ٨هـ - يناير ٦٣٠ م)، فيقول:

"عامل حتى ألد أعدائه بكل كرم وسخاء حتى مع أهل مكة، وهم الذين ناصبوه العداء سنين طوالاً، وامتنعوا من الدخول في طاعته، كما ظهر حلمه وصفحه في حالتي الظفر والانتصار، وقد دانت لطاعته القبائل التي كانت من قبل أكثر مناجزة وعداء له"(١).

كذلك يقول واشنجتون إيرفنج(٢): "كانت تصرفات الرسول ﷺ في أعقاب فتح مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي. ولكنه توّج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو"(٣).

فهو الفاتح الرحيم، بالحق والعدل، لا الغازي الطاغية أو الظالم.

"وفي إمكان المرء أن يتخيل المعاملة التي كان يجدر بفاتح دنيوي النزعة أن يعاملهم بها. ولكن صفح الرسول ﷺ كان لا يعرف حدوداً. فقد غفر لهم ثلاثة عشر عاماً من الاضطهاد والتآمر"(٤). وهم الذين عذبوه وعذبوا أصحابه وهجَّروه وهجّروه أصحابه، وقتلوا منهم نفراً ليس بالعدد القليل.

---

(١) وليم موير: حياة محمد، ٨٨.

(٢) واشنجتون إيرفنج: مستشرق أمريكي، أولى اهتمامًا كبيرًا لتاريخ المسلمين في الأندلس. من آثاره: (سيرة النبي العربي) مذيلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية (١٨٤٩)، و(فتح غرناطة) (١٨٥٩)، وغيرها.

(٣) واشنجتون إيرفنج: حياة محمد، ص ٧٢.

(٤) مولانا محمد علي: حياة محمد و سيرته، ص ٢٦٩-٢٧٠.

يقول "جان باغوت غلوب" معقباً " وهكذا تم فتح مكة دون إراقة دماء إلى حد كبير. إلا أنه اكتسب قلوب الجميع بما أظهره من رحمة وعفو في يوم انتصاره" [(١)].

هذا، ويقول المستشرق إميل درمنغم متحدثاً عن الفاتح والقائد الرحيم نبينا محمد ﷺ في حال انتصاراته:

"فقد برهن محمد ﷺ في انتصاره النهائي، على عظمة نفسية؛ قلَّ أن يوجد لها مثال في التاريخ؛ إذ أمر جنوده أن يعفوا عن الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء، وحذرهم أن يهدموا البيوت، أو يسلبوا التجار، أو أن يقطعوا الأشجار المثمرة، وأمرهم ألا يجردوا السيوف إلا في حال الضرورة القاهرة، بل رأيناه يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم إصلاحاً مادياً ويقول لهم: إن نفساً واحدة خير من أكثر الفتوح ثراء!" [(٢)].

"وهكذا ظهر الرسول ﷺ الذي كان رحمة للعالمين، وحرر الإنسانية من أصفاد الجهل والخرافة والفساد" [(٣)]. بل ظهر كما وصفه المفكر البلجيكي هنري ماسيه: "يتصف بالرحمة الخالصة" [(٤)]. تلك الرحمة الخالصة التي غلبت دوماً - كما يبين مارسيل بوازار - على أحاديث النبي ﷺ وسيرته، فلا "تنفك الأحاديث الشريفة والسيرة النبوية تصور في الأذهان كرم الرسول وتواضعه، كما تصور استقامته ونقاءه ولطفه وحلمه. وكما يظهره التاريخ قائداً عظيماً ملء قلبه الرأفة، يصوره كذلك رجل دولة صريحاً قوي الشكيمة (ديمقراطيًا)" [(٥)].

وفوق أخلاق الرحمة التي تخلق بها النبي ﷺ لما انتصر على أعدائه وتمكن منهم، في المعارك والفتوحات، نراه أيضاً رحيماً بمجرمين وأعداء -داخل الدولة- أمضوا حياتهم في دس الفتن بين المسلمين، والعمل الدائب من أجل هدم الدين والدولة، فضلاً عن عمالة هؤلاء المجرمين لأعداء المسلمين خارج

---

(١) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٥٦-١٥٧.
(٢) انظر: بشرى زخاري ميخائيل: محمد رسول الله هكذا بشرت به الأناجيل، ص٥٠.
(٣) مولانا محمد علي: حياة محمد و سيرته، ٢٨٢.
(٤) هنري ماسيه: الإسلام، ص ١١.
(٥) مارسيل بوزار: إنسانية الإسلام، ص ٤٦.

حدود الدولة.

يقول "مولانا محمد على":

"وسماحة الرسول ﷺ نحو أعدائه يعز نظيرها في تاريخ العالم. فقد كان عبد الله بن أبي عدواً للإسلام، وكان ينفق أيامه ولياليه في وضع الخطط لإيقاع الأذى بالدين الجديد، محرضاً المكيين واليهود تحريضاً موصولاً على سحق المسلمين. ومع ذلك فيوم توفي عبد الله دعا الرسول ﷺ ربه أن يغفر له، بل لقد قدم رداءه إلى أهله كي يكفنوه به" (١).

إن نبي الرحمة ﷺ لم ينتقم في أي يوم من الأيام من امرئ أساء إليه! صحيح أنه أنزل العقوبة ببعض أعدائه في أحوال نادرة جداً، وفي فترات جد متباعدة. ولكن تلك الحالات كانت تنطوى كلها على خيانات بشعة قام بها أناس لم يعد الصفح يجدي في تقويمهم وإصلاحهم. والحق أن ترك أمثال هؤلاء المجرمين سالمين غانمين كان خليقاً به ألا يظن البعض أنه استحسن الأذى والإفساد. والرسول ﷺ لم يلجأ إلى العقوبة قط حيثما كان ثمة مجال لنجاح سياسة الصفح كرادع إن لم نقل كإجراء إصلاحي (٢).

المطلب الثاني: هدي محمد ﷺ في المعارك:

شرع نبي الرحمة ﷺ لأمته آدابًا سامية وضوابط حاكمة على سلوك المقاتل المسلم، توجب على مخالفتها عقوبات زاجرة قي الدنيا والآخرة (٣).

فلا يستخدم في الجهاد في سبيل الله إلا الوسائل المشروعة والأساليب النزيهة، فعن صفوان بن عسال قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فقال: " سيروا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، ولا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدا" (٤).

---

(١) مولانا محمد علي: حياة محمد و سيرته، ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٢) انظر: مولانا محمد علي: حياة محمد و سيرته، ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٣) أنجوغو أمبكي صمب: أروع القيم الحضارية في سيرة سيد البرية، ص ٤٠ وما بعدها.

(٤) رواه ابن ماجه (٢٨٥٧) و الطبراني في المعجم الكبير ج ٨ ص ٧٠، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه.

وعن أنس أن النبي ﷺ نَهَى أَنْ تُصْبَرَ الْبَهَائِم[١].

وقال جابر: نهى رسول الله ﷺ أن يقتل شيء من الدواب صبرا[٢].

وعن حنظلة الكاتب قال:

غزونا مع رسول الله ﷺ فمررنا على امرأة مقتولة قد اجتمع عليها الناس، فأفرجوا له فقال: " ما كانت هذه تقاتل فيمن يقاتل !".

ثم قال لرجل: " انطلق إلى خالد بن الوليد فقل له إن رسول الله ﷺ يأمرك يقول: لا تقتلن ذرية ولا عسيفا[٣]"[٤].

وقال - ذات يوم في معركة مستنكرًا على بعض أصحابه:

" ما بال قوم جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية !".

فقال رجل: يا رسول الله، إنما هم أولاد المشركين !

فقال ﷺ: "ألا إن خياركم أبناء المشركين".

ثم قال: " ألا لا تقتلوا ذرية، ألا لا تقتلوا ذرية !! كل نسمة تولد على الفطرة حتى يهب عنها لسانها فأبواها يهودانها و ينصرانها "[٥].

وعن يحيى بن سعيد أن أبا بكر الصديق بعث جيوشا إلى الشام فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان وكان أمير ربع من تلك الأرباع، فقال أبو بكر له:

"إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له". وأوصاه قائلاً: " وإني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة، ولا صبيا، ولا كبيرا هرما[٦]، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة، ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلا [وفي رواية: نحلا ولا تفرقنه] ولا

(١) صحيح: رواه البخاري (٥٠٨٩)، ومسلم (٣٦١٦).
(٢) صحيح: رواه مسلم (٣٦٢٠).
(٣) العسيف: الأجير المستهان به.
(٤) حسن-رواه ابن ماجه (٢٨٤٢)، والحاكم (٢/ ١٢٢)، وهو في السلسلة الصحيحة برقم (٧٠١).
(٥) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٤٣٥) و الدارمي (٢/ ٢٢٣)، وهو في السلسلة الصحيحة (٤٠٢).
(٦) الهرم: الذي بلغ أقصى الكبر.

تغرقنه ولا تغلل[١] ولا تجبن »[٢].

عن عمر بن الخطاب، أنه قال: « اتقوا الله في الفلاحين، ولا تقتلوهم إلا أن ينصبوا لكم الحرب »[٣].

وهذه النصوص وغيرها من دستور العسكرية الإسلامية التي وضعها رسول الله ﷺ تشتمل على الأصول الأخلاقية للحرب، وهذه جملتها[٤]:

١- الإخلاص والتجرد للأهداف الحقيقية للحرب وترك ما يخالف ذلك من غلول وغدر وثأر وانتقام.

٢- المحافظة على البيئة واجتناب الفساد في الأرض بتحريق الأشجار وقتل الحيوانات لغير ضرورة.

٣- عدم التعرض لغير المقاتلين من النساء والصبيان والشيوخ.

٤- السماحة الدينية واحترام مقدسات الآخرين، بعدم قتل الرهبان والقسيسين ما لم يقاتلوا أو يعينوا على القتال، وعدم التعرض كذلك لبيعهم وكنائسهم بسوء.

المطلب الثالث: فرية العنف ونشر الإسلام بالسيف:

ومن العجيب أن بعض الحاقدين ألصقوا بمحمد ﷺ تهمة القسوة والعنف، ونشر دعوة الله بالسيف!

والحق أن رجالات العلم والفكر في أوروبا قد ردوا على هذا الزعم، وفندوه.

أولاً: رد العلامة لويس سيديو:

وكان من أبرز المدافعين والمظهرين بطلان ما نفثته أقلام الحاقدين، المؤرخ الفرنسي العلامة لويس سيديو حيث قال:

« من التجني على حقائق التاريخ ما كان من عزو بعض الكُتّاب إلى محمد ﷺ القسوة. فقد نسي هؤلاء أن محمداً ﷺ لم يأل جهداً في إلغاء عادة الثأر الموروثة

(١) الغلول : الخيانة والسرقة .

(٢) مالك (٨٥٨)، وابن أبي شيبة ج ٧ ص ٦٤٥ ، وعبد الرزاق (٩٣٧٥) .

(٣) معرفة السنن والآثار للبيهقي ، (٥٦٤٥) .

(٤) أنجوغو أمبكي صمب : أروع القيم الحضارية في سيرة سيد البرية، ص ٤٠ وما بعدها .

الكريهة التي كانت ذات حظوة لدى العرب، كحظوة المبارزات بأوروبة فيما مضى. وكأن أولئك الكُتّاب لم يقرأوا آيات القرآن التي قضى محمد ﷺ بها على عادة الوأد الفظيعة. وكأنهم لم يفكروا في العفو الكريم الذي أنعم به على ألد أعدائه بعد فتح مكة، ولا في الرحمة التي حبا بها، كثيراً من القبائل عند ممارسة قواعد الحرب الشاقة. وكأنهم لم يعلموا أن محمداً ﷺ لم يسئ استعمال ما اتفق له من السلطان العظيم، قضاء لشهوة القسوة الدنيئة، وأنه لم يأل جهداً -في الغالب- في تقويم من يجور من أصحابه، والكل يعلم أنه رفض - بعد غزوة بدر- رأي عمر بن الخطاب في قتل الأسرى، وأنه عندما حل وقت مجازاة بني قريظة ترك الحكم في مصيرهم لحليفهم القديم سعد بن معاذ، وأنه صفح عن قاتل عمه حمزة، وأنه لم يرفض - قط - ما طلب إليه من اللطف والسماح" (١).

ثانيا: رد الدكتورة كارين ارمسترونج:

تقول الباحثة البريطانية كارين أرمسترونج في مقدمة كتابها (سيرة النبي محمد): "من الخطأ أن نظن أن الإسلام دين يتسم بالعنف أو بالتعصب في جوهره، على نحو ما يقول به البعض أحياناً، بل إن الإسلام دين عالمي، ولا يتصف بأي سمات عدوانية شرقية أو معادية للغرب" (٢).

و تبين أن السبب في إلقاء هذه التهمة على النبي ﷺ من قبل بعض الغربيين، إنما هو بسبب أحقاد قديمة، فتقول:

"إننا في الغرب بحاجة إلى أن نخلِّص أنفسنا من بعض أحقادنا القديمة، ولعل شخصاً مثل محمد ﷺ يكون مناسباً للبدء ! فقد كان رجلاً متدفق المشاعر. وقد أسس ديناً وموروثاً حضاريًّا لم يكن السيف دعامته، برغم الأسطورة الغربية، وديناً اسمه الإسلام؛ ذلك اللفظ ذو الدلالة على السلام والوفاق !! " (٣).

ثالثا: رد الكاتب الألماني ديسون:

يقول المفكر ديسون: "من الخطأ أن يصدق المرء ما يروِّج له البعض من أن

---

(١) لويس سيديو، بتصرف : (نقلا عن كتاب الإسلام بين الإنصاف و الجحود، ص ١٣٤).

(٢) كارين أرمسترونج : سيرة النبي محمد، ص١٩ .

(٣) كارين أرمسترونج : سيرة النبي محمد، ص٣٩٣ .

السيف كان المبشر الأول في تقدم الإسلام وتبسطه، ذلك أن السبب الأول في انتشار الإسلام يعود إلى هذه الأخوة الدينية الفريدة، وإلى هذه الحياة الجديدة الاجتماعية التي دعا إليها ومكّن لها، ثم إلى هذه الحياة الشريفة الطاهرة التي راح يحياها محمد ﷺ وخلفاؤه من بعده، والتي بلغت من العفة والتضحية حداً جعل الإسلام قوة عظيمة لا تُغلب"(١).

رابعا: رد المفكر الهولندي دوزي:

يقول "دوزي"، مبينًا ومؤكدًا أن النبي ﷺ لم يجبر أحدًا على اعتناق الإسلام. فيقول في كلمات محددة جازمة:

"لم يُفرض فرضاً على أحد !!"(٢).

فلم يثبت ولو في مرة واحدة في تاريخ عهد النبي ﷺ أن أجبر أي إنسان على اعتناق الإسلام ولو بالضغط النفسي، فضلاً عن استخدام العنف أو السيف.

خامسا: رد المؤرخ الكبير جوستاف لوبون:

يقول جوستاف لوبون:

"لم ينتشر الإسلام بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل. ولم يكن الإسلام أقل انتشاراً في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط"(٣).

ويقول: "إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار الإسلام، فقد ترك العربُ المغلوبين أحراراً في أديانهم"(٤).

سادسا: رد الكاتبة الإيطالية لورافيشيا فاغليري:

وتبين لورافيشيا فاغليري أن" الإسلام لايبيح امتشاق الحسام(٥) إلاّ دفاعاً عن النفس، وهو يحرم العدوان تحريماً صريحاً. وأباحت الشريعة القتال للمسلمين

(١) ديسون : محمد بن عبد الله، ٥٩ .
(٢) دوزي: ملحق وتكملة القواميس العربية، مقدمة الكتاب .
(٣) جوستاف لوبون : حضارة العرب، ص١٢٨-١٢٩ .
(٤) جوستاف لوبون : حضارة العرب، ص ١٢٧ .
(٥) السيف .

دفاعاً عن حرية الضمير لإقرار السلم، واستتباب الأمن والنظام "[١].

كما حدث في معارك عديدة، كمعركة بدر (١٧رمضان٢هـ - ١٣مارس ٦٢٤م)، ومعركة أحد (شوال٣هـ - إبريل٦٢٤م)، ومعركة الأحزاب (شوال٥هـ - مارس٦٢٧م). فكلها معارك دفاعية، أقل ما يقال فيها أنها معارك دفاع عن النفس.

أو كما حدث في معارك أخرى، كمعركة قينقاع (السبت ١٥ شوال ٢هـ - ٩إبريل٦٢٤)، ومعركة النضير (ربيع الأول ٤ هـ - أغسطس ٦٢٥ م) ومعركة قريظة (ذي القعدة ٥ هـ - إبريل ٦٢٧ م)، ومعركة خيبر (المحرم سنة ٧ هـ - مايو ٦٢٨). فهي معارك جاءت نتيجة للخيانة، والتحالف ضد المسلمين، ونقض العهود، ومحاولات عديدة لاغتيال النبي ﷺ.

سابعاً: رد العلامة توماس كارلايل:

وحسبنا رد توماس كارلايل على تلك الفرية التي تذهب إلى أن محمداً ﷺ لم ينشر دعوته إلا بحد السيف، فقال: "إن اتهام محمد ﷺ بالتعويل على السيف في حمل الناس على الاستجابة لدعوته؛ سخف غير مفهوم!! "[٢]. ويقول مفصلاً.

"لقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد ﷺ دينه بالسيف، فإذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه ﷺ، فذلك أشد ما أخطأوا وجاروا، فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف، ولكن ما هو الذي أوجد السيف؟ هو قوة ذلك الدين، وأنه حق. والرأي الجديد أول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد، فالذي يعتقده هو فرد- فرد ضد العالم أجمع- فإذا تناول هذا الفرد سيفاً وقام في وجه الدنيا فقلما والله يضيع! وأرى - على العموم- أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال، أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً، وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون! وأنا لا أحفل إذا كان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أو بأية آلة أخرى، فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تَهزم إلا ما كان يستحق أن يُهزم، وليس في طاقتها قط أن تقضي على ما هو خير منها، بل ما هو أحط وأدنى "[٣]. فإنها حرب لا حكم فيها إلا لله الذي أرسل الرسل ذاتها، ونعم الحكم ما أعدله وما أقسطه، إذا كان من عند الخالق!

(١) لورافيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام ١١، ١٢.

(٢) انظر: عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: ٢٢٧.

(٣) توماس كارلايل: الأبطال، ص ٧٦.

المبحث الرابع
رحمة النبي ﷺ بالأسرى

في الوقت الذي كانت فيه الحروب الجاهلية لا تعرف أبسط قواعد آداب الحروب، ظهر النبي ﷺ بمبادئه العسكرية، ليشرع للعالمين تصورًا شاملاً لحقوق الأسرى في الإسلام.

وفي هذا العصر الحديث الذي شرّعت فيه المنظمات الدولية بنودًا نظرية - غير مفعلة وغير مطبقة - لحقوق الأسرى، كاتفاقيات جنيف بشأن أسرى الحرب في معاملة أسرى الحرب ورعايتهم جسديًا ونفسيًا. و نرى رسولنا ﷺ يشرع قبلهم بمئات السنين حقوقًا شاملة وجامعة للأسرى، أضف إلى ذلك أن النبي ﷺ لم يجعل هذه الحقوق بنودًا نظرية بعيدة عن واقع الحروب - كما هو الحال في عصرنا - بل جعلها منهجًا عمليًا وطبقها بنفسه في غزواته وطبقها تلاميذه في السرايا والمعارك الإسلامية.

وفي إكرامه ﷺ للأسرى، مظهر فريد من مظاهر الرحمة، في وقت كانت تستباح فيه الحرمات والأعراض.

"وكثيراً ما أطلق ﷺ سراح الأسرى في سماحة بالغة، رغم أن عددهم بلغ في بعض الأحيان ستة آلاف أسير" (١).

يقول سيديو: "والكل يعلم أنه ﷺ رفض -بعد غزوة بدر- رأي عمر بن الخطاب في قتل الأسرى. وأنه صفح عن قاتل عمه حمزة، وأنه لم يرفض - قط - ما طلب إليه من اللطف والسماح" (٢).

* * *

---

(١) مولانا محمد علي : حياة محمد و سيرته ، ص ٢٦٩ .

(٢) لويس سيديو : (نقلا عن كتاب الإسلام بين الإنصاف و الجحود ، ص ١٣٤) .

المبحث الخامس
رحمة النبي ﷺ بأهل الذمة

المطلب الأول: من هم أهل الذمة وما موقف الدولة الإسلامية منهم ؟

أهل الذمة هم الأقليات من أهل الكتاب داخل الدولة الإسلامية.

يقول أدوار بروي:

"فاليهود والنصارى الذين هم أيضًا من أهل الكتاب، حق لهم أن يتمتعوا بالتساهل وأن لا يضاموا. وكان لابدّ من وقوف هذا الموقف نفسه من الزرادشتية والبوذية والصابئة. وغيرها من الملل والنحل الأخرى. والمطلوب من هؤلاء السكان أن يظهروا الولاء للإسلام ويعترفوا بسيادته وسلطانه، وأن يؤدوا له الرسوم المترتبة على أهل الذمة تأديتها. وفي نطاق هذه التحفظات التي لم يكن لتؤثر كثيرًا على الحياة العادية، تمتع الذميون في الإسلام بكافة حرياتهم" (١).

ويقول: مونتكومري وات:

"إن تعامل المسلمين كان مختلفًا تجاه اليهود والمسيحيين والزرادشتيين وغيرهم ممن اعتبرت دياناتهم شقيقة للإسلام، رغم الدعوى القائلة بأن الأتباع المعاصرين لتلك الديانات قد ابتعدوا عن جوهرها. ومهما كان الأمر فقد كان بالإمكان قبولهم نوعًا من الحلفاء للمسلمين في معظم الأقطار التي فتحتها العرب. لذلك فإن غرض الجهاد لم يكن يهدف إلى تحويل أولئك السكان نحو الإسلام بقدر ما كان يهدف إلى اعترافهم بالحكم الإسلامي وبمنزلة أناس يحميهم الإسلام. وبعامة فإنهم (أهل الذمة)" (٢).

" وكانت الطائفة الذمية مجموعة من الناس تعتنق ديانة واحدة لها استقلالها الداخلي برعاية رئيس ديني كالبطريك أو الرابي، وكان على كل فرد من أفراد

---

(١) أدوار بروي: تاريخ الحضارات العام، ٣/ ١١٦ .

(٢) مونتكومري وات: تأثير الإسلام على أوروبا في العصور الوسطى، ص ١٣ .

المجموعة الذمية دفع ضريبة شخصية إلى الحاكم المسلم. وكانت تلك الضرائب أحيانًا أقل وطأة من الضرائب التي كانت تدفع للحكام السابقين. وكانت حمايتهم بصورة فعالة بالنسبة للدولة الإسلامية تمثل كلمة شرف تلتزم بها الدولة وتنفذها" [١].

المطلب الثاني: شهادات علماء الغرب:

أولاً: حرية أهل الذمة في الاعتقاد:

يقول "روم لاندو":

"على نقيض الإمبراطورية النصرانية التي حاولت أن تفرض المسيحية على جميع رعاياها فرضًا، اعترف العرب بالأقليات الدينية وقبلوا بوجودها. كان النصارى واليهود والزرادشتيون يعرفون عندهم بـ (أهل الذمة)، أو الشعوب المتمتعة بالحماية. لقد ضمنت حرية العبادة لهم من طريق الجزية. التي أمست تدفع بدلاً من الخدمة العسكرية. وكانت هذه الضريبة مضافًا إليها الخراج، أقل في مجموعها من الضرائب التي كانت مفروضة في ظل الحكم البيزنطي. كانت كل فرقة من الفرق التي تعامل كملّة، أي كطائفة نصف مستقلة استقلالاً ذاتيًا ضمن الدولة. وكانت كل ملّة تخضع لرئيسها الديني" [٢].

ثانيًا: حرية أهل الذمة في ممارسة الشعائر:

يقول ول ديورانت:

"كان أهل الذمة المسيحيون، والزرادشتيون، واليهود، والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد نظيرًا لها في المسيحية في هذه الأيام. فلقد كانوا أحرارًا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم. وكانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لزعمائهم وقضاتهم وقوانينهم" [٣].

ويقول" آدم متز":

"كانت حياة الذمي عند أبي حنيفة وابن حنبل تكافئ حياة المسلم، ودية

---

(١) مونتكومري وات : تأثير الإسلام على أوروبا في العصور الوسطى ، ص ١٣ - ١٤ .

(٢) روم لاندو: الإسلام والعرب ، ص١١٩ .

(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ٣ / ١٣٠ - ١٣١ .

المسلم، وهي مسألة مهمة جدًا من حيث المبدأ. ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لأهل الذمة، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم. وكذلك ازدهرت الأديرة بهدوء"[(١)].

ثالثًا: رعاية المسلمين لأهل الذمة:

يقول آرثر ستانلي تريتون[(٢)]:

"ولما تدانى أجل (عمر بن الخطاب) أوصى من بعده وهو على فراش الموت بقوله: (أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيرًا، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم) وفي الأخبار النصرانية شهادة تؤيد هذا القول، وهي شهادة (عيشويابه) الذي تولى كرسي البطريركية من سنة ٦٤٧ إلى ٦٥٧م إذ كتب يقول: (إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون، أنهم ليسوا بأعداء للنصرانية بل يمتدحون ملّتنا ويوقرون قسيسينا وقدّيسينا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا). والظاهر أن الاتفاق الذي تم بين (عيشويابه) وبين العرب كان من صالح النصارى، فقد نصّ على وجوب حمايتهم من أعدائهم، وألا يحملوا قسرًا على الحرب من أجل العرب، وألا يؤذوا من أجل الاحتفاظ بعاداتهم وممارسة شعائرهم، وألا تزيد الجزية المجباة من الفقير على أربعة دراهم، وأن يؤخذ من التاجر والغني اثنا عشر درهما، وإذا كانت أمة نصرانية في خدمة مسلم فإنه لا يحق لسيدها أن يجبرها على ترك دينها أو إهمال صلاتها والتخلي عن صيامها"[(٣)].

رابعًا: الاستعانة بهم في أجهزة الدولة:

يقول آدم متز:

"ومن الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرّفين غير المسلمين في

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، ١ / ٦٩ - ٧٠.

(٢) آرثر ستانلي تريتون: ولد عام ١٨٨١ عين مساعد أستاذ للعربية في أدنبرا (١٩١١) وكلاسكو (١٩١٩) وأستاذ في عليكرة في الهند (١٩٢١) ومدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن (١٩٣١) من آثاره: (الخلفاء ورعاياهم من غير المسلمين) (١٩٣٠)، (علم الكلام في الإسلام) (١٩٤٧)، (الإسلام إيمان وشعائر) (١٩٥٠)، (مواد في التربية الإسلامية) (١٩٥٧).

(٣) آرثر ستانلي تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ١٥٨ - ١٥٩.

الدولة الإسلامية "[١].

وقد كان عمر بن الخطاب يستخدمهم في كتابة الدواوين والترجمة.

المطلب الثالث: وصايا النبي ﷺ بأهل الذمة والتحذير من إيذائهم:

أولاً: حرمة قتل الذمي بغير حق:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو - رضي الله عنه: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا "[٢].

ثانيًا: حرمة قذف الذمي:

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَنْ قَذَفَ ذِمِّيًّا حُدَّ[٣] لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسِيَاطٍ مِنْ نَارٍ" قيل لِمَكْحُولٍ: مَا أَشَدُّ مَا يُقَالُ، قَالَ: يُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ الْكَافِرِ[٤].

ثالثًا: تحريم ظلمه:

عن عبد الله بن جراد، أن رسول الله ﷺ قال: " من ظلم ذميًّا مؤديًّا الجزية[٥] مقرًّا بذلته، فأنا خصمه يوم القيامة "[٦].

وفي ذلك يقول كولدتسيهر[٧]:

" فظلم أهل الذمة، وهم أولئك المحتمون بحمى الإسلام من غير المسلمين، كان يحكم عليه بالمعصية وتعدي الشريعة. ففي بعض المرات عامل حاكم إقليم لبنان الشعب بقسوة عندما ثار ضد ظلم أحد عمال الضرائب، فحكم عليه بما قاله الرسول ﷺ: (من ظلم معاهدًا، وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة). وفي

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١ / ٨٧.

(٢) صحيح - رواه البخاري، برقم ٦٤٠٣، بَاب إِثْمِ مَنْ قَتَلَ ذِمِّيًّا بِغَيْرِ جُرْمٍ.

(٣) حُد: أقيم عليه الحد والعقوبة.

(٤) المعجم الكبير للطبراني (ج ١٥ / ص ٤٣٤)، مسند الشاميين للطبراني (ج ٩ / ص ٣١٦).

(٥) الجزية: هي عبارة عن اشتراك مالي يدفعه المعاهد أو الذمي من غير المسلمين، وهي مقابل إقامتهم في الدولة الإسلامية وحمايتها لهم.

(٦) أبو نعيم الأصبهاني: معرفة الصحابة (ج ١١ / ص ٣٣٩).

(٧) كولد تسيهر (١٨٥٠-١٩٢١م): عين أستاذ محاضر في كلية العلوم بجامعة بودابست (١٨٧٣) ثم أستاذ كرسي (١٩٠٦). من آثاره: كتاب (العقيدة والشريعة في الإسلام) (باريس ١٩٢٠)، و(درس في الإسلام) في جزأين كبيرين.

عصر أحدث من هذا ما رواه بورتر في كتابه (خمس سنين في دمشق) من أنه رأى بالقرب من بصرى (بيت اليهود) وحكى أنه كان في هذا الموضع مسجد هدمه عمر -رضي الله عنه- لأن الحاكم قد اغتصبه من يهودي ليبني عليه هذا المسجد! »[١].

* * *

(١) كولدتسيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ٤٦-٤٧ .

الخاتمة

وبعد هذه الجولة في هذه الدراسة أذكر أهم النتائج التي توصلت إليها بعون الله والتي منها:

١-كان الإذن بالقتال في السنة الثانية من الهجرة من أجل تحقيق أهداف أخلاقية سامقة بالأساس، منها الرد على مصادرة أموال المسلمين وعقاراتهم من قبل قريش، والاستعداد للحرب التي أعلنتها قريش، إضافة إلى توفير الأمن لمواطني الدولة الإسلامية، الذي بات في تهديد مستمر من قبل صناديد قريش سواء داخل الدولة الإسلامية أو خارجها.

٢-حوى دستور المدينة على العديد من المبادئ الأخلاقية الكبرى التي تسهم في حسم أي نزاع أو صراع عسكري بين فصائل الدولة. فقد دون هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم. كما قرر الدستور أنه في حال مهاجمة المدينة من قبل عدو فإن على كل الفصائل أن تتحد لمجابهته وطرده. كما قرر الدستور عدة أسس مهمة منها: التكافل الاجتماعي بين فصائل الشعب وردع الخائنين للعهود، واحترام أمان المسلم، وحماية أهل الذمة والأقليات غير الإسلامية، والحفاظ على الأمن الاجتماعي وضمان الديات، وحق الاستقلال المالي لكل طائفة، والنصح والبر بين المسلمين واليهود داخل الدولة، وحرية كل فصيل في عقد الأحلاف التي لا تضر الدولة، ووجوب نصرة المظلوم، وتحريم التعاون مع الأعداء ضد المسلمين، وكفالة حق الأمن لكل مواطن.

٣- أهمية الأحلاف والمعاهدات بين الدولة الإسلامية وجيرانها، فهذه الدول التي تدخل في حلف المسلمين، أقل ما يمكن أن تستفيده الدولة الإسلامية من هذه الدول هو وقوف هذه الدول موقف الحياد في صراع الدولة الإسلامية مع أعدائها. إضافة إلى تأمين الحدود الخارجية للدولة، واعتراف عملي ورسمي بسيادة الدولة الإسلامية، كما أن هذه المعاهدات والأحلاف تهيئ شعوب هذه

الدول لدخول الإسلام بما يترتب من هذه المعاهدات من تبادل ثقافي مقنن وحوار حضاري منضبط يكون في صالح الحضارة الأقوى والشريعة المثلى. حضارة الإسلام وشريعة الإسلام.

٤- كانت من أبرز سمات القيادة العسكرية في العهد النبوي، هي سمة احترام العهود والمواثيق وتوقير الحلفاء، وتقدير مساعيهم السلمية.

٥- احترمت القيادة العسكرية الإسلامية الأعراف والتقاليد السائدة التي لا تتعارض مع الشرع الكريم، فقد كان العرب يحرمون القتال في الأشهر الحرم أو داخل حدود الحرم المكي، وجاء الإسلام وأقر ذلك، وقد أنكر النبي ﷺ على أصحاب سرية عبد الله بن جحش تعديهم على الشهر الحرام، وقد كانت تعليمات النبي ﷺ واضحة في هذا الشأن، فلقد وضَّح الهدف الوحيد من هذه السرية في الكتاب الذي كتبه لعبد الله بن جحش، وهو عمل حركة استكشاف وترصد لتحركات قريش بين مكة والطائف وتقديم تقرير تفصيلي بذلك للنبي ﷺ ليس إلا !

٦-الاعتراف بالخطأ والعمل على إصلاحه. فقد رأينا في سرية عبد الله بن جحش نموذج الاعتراف بالخطأ والعمل على إصلاحه، وهو من آداب الحروب، فقد أطلق رسول الله ﷺ صراح الأسيرين وأدى دية المقتول إلى أوليائه.

٧- عدم الاستعانة بالوثنيين والمشركين في الجيش الإسلامي وقد قال رسول الله ﷺ - كما بينا- في أكثر من موقف: "فارجع فلن نستعين بمشرك"، "لا يصحبنا إلا من كان على ديننا". "أَسْلِمْ ثُمَّ قَاتِلْ". وفي ذلك إظهار للعقيدة الإسلامية السمحة، واستمالة نفوس الجنود الذين جاءوا لحرب المسلمين، وتحقيق البعد الإعلامي المنشود.

٨- مشاركة القائد جنوده في الصعاب، فالقائد الصالح هو من يشارك جنوده المخاطر ويذلل لهم الصعاب، ويحفزهم على القليل والكثير من الصالحات، ليكون قدوة طيبة أخلاقية لجنوده في المنشط والمكره، وليس القائد بالذي يتخلف عن جيشه رهبًا من الموقف أو يتلذذ بصنوف النعيم الدنيوي وجنده يكابد الحر والقر.

٩- ممارسة الشورى في كل مراحل المعركة، نرى ذلك بوضوح في جل معارك رسول الله ﷺ فقد استشار جنوده في معركة بدر في كل مراحلها، فاستشارهم قبل المعركة ووضعهم أمام الموقف الراهن إما ملاقاة العدو وإما الهروب إلى المدينة. وقبل المشورة من أحد جنوده في اختيار أفضل المواقع في ميدان القتال، وبعد المعركة استشار جنوده في شأن أسرى بدر. كما نزل رَسُولُ الله ﷺ على رأي الجماعة في غزوة أحد حينما كان رأي أغلب الصحابة الخروج إلى العدو خارج المدينة، وعلم الله أنه ما به إليهم من حاجة فهو الذي يتنزل عليه الوحي من السماء. ولكن ليستن به من بعده من القادة كما مارس الشورى التي نجمت عنها فكرة حفر الخندق. ومارس الشورى كذلك على أوسع نطاق في غزوة تبوك.

١٠- النهي عن استجلاب المعلومات بالعنف أو استخدام التعذيب أثناء التحقيقات: وقد استنكر رسول الله ﷺ على بعض جنوده تعذيب غلامين لقريش من أجل انتزاع بعض المعلومات الحربية منها.

١١-كانت سياسة الرسول ﷺ على مدار السيرة العسكرية له هي: "الحوار قبل الصدام"، وكثيرًا ما كان يستنفد كل وسائل الصلح والسلام قبل أن يخوض المعركة، فما أُرسل إلا رحمة للعالمين، فقد رآيناه في بدر يبادر بمبادرة للسلام ليرجع الجيشان إلى ديارهما، فتُحقن الدماء، أو ليقيم الحجة على المشركين.

١٢- وفاء الرسول ﷺ للمشركين الذين أسدوا معروفًا للإسلام، فلم ينس ﷺ صنيع الْمُطْعِم بْنُ عَدِيٍّ أو شهامة أَبِي الْعَاصِ بن الربيع أو رجولة أبي الْبَخْتَرِيّ بْنَ هِشَامِ.

١٣- إكرام الأسرى واجب شرعي ومطلب إنساني وهدف أخلاقي. وتجلت مظاهر وصور إكرام الأسرى في أكثر من مشهد في السيرة النبوية أهمها في بدر وحنين.

١٤- النهي الصريح عن المثلة، وتحريم أية عمليات مهينة بجسم الأسير حيًّا وميتًا، وقد نهى النبي ﷺ عمر بن الخطاب من أن يمس سهيل بن عمرو بسوء، وقال المعلم الكبير الذي أرسله الله رحمة للعالمين: "لاَ أُمَثِّلُ بِهِ، فَيُمَثِّلُ الله بِي

وَإِنْ كُنْتُ نَبِيًّا !!". بيد أن المشركين في معركة أحد أعملوا التمثيل والإهانة بجثث الشهداء، فبقروا البطون، وجدعوا الأنوف، وقطعوا الآذان والفروج.

١٥- من آداب الحروب أن يشارك الحليف حليفه فرحة النصر؛ إذا انتصر أحدهما على العدو الأكبر للدولة. وليحذر الحليف من أن يتشبه بيهود بني قينقاع حينما أظهروا الحقد والعداوة لحلفائهم المسلمين جراء انتصارهم على قريش الوثنية.

١٦- إذا تحول الحليف إلى معول هدم لوحدة الصف، فعلى الإمام أن يكون حكيمًا في رأب الصدع وإخماد نيران الفتنة، وقد ظهرت حكمة النبي ﷺ لما تحولت طائفة اليهود داخل الدولة إلى جماعة فتنة ووشاية بقيادة شَاسُ بْنُ قَيْسٍ اليهودي، الذي استطاع أن يحدث الوقيعة بين الأوس والخزرج حتى تواعدوا على أن يلتقوا في يومهم ذاك بموضع (الحرة) واندفعوا في دروب المدينة يتداعون إلى الحرب وهم يتصايحون: السلاح السلاح. وكادت أن تقوم "الحرب الأهلية" حتى جاء النبي ﷺ في جماعة من الْمُهَاجِرِينَ، فأخمد الفتنة بكلمات قليلة لكن قوية ألهبت المشاعر واغرورقت من وقعها الأحداق.

١٧- لا يجوز للحليف استضافة الأعداء على أرض الإسلام إلا بإذن الإمام، وقد رأينا أنموذجًا إيجابيًّا وآخر سلبيًّا في ذلك، أما الأنموذج الإيجابي فهو رفض حُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ استضافة أبي سفيان في قرصنته يوم "السويق"، أما الأنموذج السلبي فهو قبول سَلاّم بْنِ مِشْكَمٍ ذلك - وَكَانَ سَيِّدَ بَنِي النَّضِيرِ فِي زَمَانِهِ ذَلِكَ - وقام (سَلاّم) بدور الجاسوس الخائن لوطنه، وكشف لأبي سفيان عن أسرار المسلمين، وبحث معه إحدى الطرق لإيقاع الأذى بالدولة.

١٨- وفي قيام النبي ﷺ بملاحقة ميلشيات العدو في غزوة السويق لما أفسدوا في مزارع المدينة وقتلوا ونهبوا. دلالة على تجريم أسلوب النهب والسلب والتعدي على المدنيين والزراع.

١٩- أهمية التوجيهات الأخلاقية والإيمانية قبل المعركة، فقد كان من هدي النبي ﷺ أنه كان يخطب في جنوده قبل كل معركة، فيحفزهم على طلب الشهادة ويرغبهم في الجهاد ويحذرهم من المعاصي أو من التعرض للنساء والأطفال

والشيوخ والعباد والرهبان في الصوامع. بيد أن السائد في الحروب القذرة، هو تحميس الجنود على السلب والنهب وهتك الأعراض وسفك الدماء بلا رحمة أو مراعاة لطفل أو امرأة أو شيخ. وقد نهى النبي ﷺ صراحة في غزوة حنين من قتل الضعفاء، فلما مر رسول الله ﷺ يوم حنين بامرأة قتلها خالد بن الوليد والناس مجتمعون عليها، فقال رسول الله ﷺ: "ما كانت هذه لتقاتل" وقال لأحدهم: "أدرك خالدًا فقل له إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفًا".

٢٠- رسَّخ فرسان الصحابة -رضوان الله عليهم- قيمًا ودروسًا جليلة في "أخلاقيات المبارزة"، فكانوا يخوضون المبارزات في شجاعة منقطعة النظير دون استعلاء أو استكبار فإذا مكنهم الله من عدوهم سرعان ما يضربون المثل في سمو الأخلاق وعظيم الإحسان، تجلى ذلك في موقف المبارزة -في معركة أحد- بين علي بن أبي طالب وطلحة بن عثمان، صاحب لواء المشركين حيث صاح الأخير، قائلا: يا معشر أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن الله يعجِّلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجِّلكم بسيوفنا إلى الجنة! فهل منكم أحد يعجِّله الله بسيفي إلى الجنة! أو يعجِّلني بسيفه إلى النار؟ فقام إليه علي بن أبي طالب، فضربه فقطع رجلَه، فسقط، فانكشفت عورته، فقال طلحة: أنشدك الله والرحم، ابنَ عم! فتركه. فقيل لعليّ: ما منعك أن تجهز عليه؟ قال: "إنّ ابن عمي ناشدني حين انكشفت عورته، فاستحييت منه".

وحدث مثل هذا الموقف من علي - رضي الله عنه - أيضًا عندما قتل عمرو بن ود، في مبارزة شهيرة رهيبة، وانكشف عورة عمرو حينما قُتل فاستحي عليّ- رضي الله عنه - أن يسلبه سلاحه أو حربته وقد كانت لها شرف كبير عند العرب.

٢١- إمهال العدو ليتأهب للجلاء، فقد أمهل رسول الله ﷺ يهود بني النضير عشرة أيام حتى يرحلوا عن المدينة بعد نقضهم العهد وشروعهم في محاولة اغتيال النبي ﷺ. ولم يأمر رسول الله ﷺ بأي إجراء عسكري ضدهم خلال هذه الأيام، بيد أن العرف السائد في الأمم الغابرة والحاضرة، أن القادة والزعماء يجهزون على أي فصيل داخل الشعب يشرع في التآمر على السلطان.

٢٢- تعفف القيادة عن بيع جثث قتلى العدو أو أكل ثمنها. فلما حاول

نوفل بن عبد الله اقتحام الخندق الذي صنعه المسلمون لتحصين المدينة في معركة الخندق، ومات مقتولاً في الخندق، عندما أصر على اقتحامه في فرقة من المشركين، سأل المشركون المسلمين جثته بمال يعطونه المسلمين، فأرسل المشركون إلى النبي ﷺ: أن أرسل إلينا بجسده ونعطيك اثني عشر ألفاً. فتعفف رسول الله ﷺ عن هذا المال الخبيث، ونهاهم عن ذلك وكرهه !!

٢٣- إن مشهد المفاوضات وفعاليات الصلح التي جرت بين المعسكرين الإسلامي والوثني في صلح الحديبية. ليدلل بجلاء على مدى الحنكة السياسية التي يتمتع بها القائد الإسلامي وبعد نظره وثاقب فكره. ويسطر في ذاكرة التاريخ آدابًا سامية وأخلاقًا سامقة في التفاوض، يأتي في مقدمة هذه الآداب: عدم تشبث القيادة الإسلامية بشكليات الصلح أو مظهريات التفاوض، فقد تنازل رسول الله ﷺ عن كتابة البسملة القرآنية الكاملة في مسودة الصلح، ونزل على رغبة خصمه في كتابة " بِاسْمِكَ اللهمَّ " بدلاً من "بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم "، كما استجاب ﷺ لمطلب سهيل بن عمرو بحذف جملة " رَسُولِ الله ". فتزمُت قائد الجماعة المسلمة في مثل هذه المواقف لا يجدي نفعًا ويستهلك الوقت والجهد وقد يتسبب في إفشال الصلح ليتحول إلى حرب هوجاء.

٢٤- احترام القيادة الإسلامية للمعارضة النزيهة. فلما ذهبت جماعة من المعارضين إلى حضرة رسول الله ﷺ لمراجعته، وإعلان معارضتهم لبنود صلح الحديبية، تحدث إليهم النبي ﷺ في سماحة ورحمة واستطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصلح، وأنه في صالح المسلمين. وبهذا يتبين أن النبي ﷺ وضع قاعدة احترام المعارضة النزيهة، كما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النزيهة التي تصدر من أتباعهم، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السليمة التي تخدم المصلحة العامة. وهذا الهدي النبوي الكريم بيَّن أن حرية الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي، وأن للفرد في المجتمع المسلم الحرية في التعبير عن رأيه.

٢٥- سن رسولنا العظيم ﷺ سنة كريمة عندما كان يعزم على الإغارة على العدو. يقول عنها أنس: "كَانَ إِذَا أَتَى قَوْمًا بِلَيْلٍ لَمْ يُغِرْ بِهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ". وذلك

حتى لا يفزّع الأطفال والنساء والشيوخ، أو يهيج الدواب. إن هذه السنة الكريمة لم تكن من قبل ولا من بعد إلا في حروب محمد ﷺ وأتباعه.

٢٦- توقير مقدسات العدو، فلما دخل المسلمون أرض خيبر، بعد النصر واستسلام اليهود، وجد الصحابة صحائف متعددة من التوراة، كانت قد وقعت فيما وقع من غنائم للمسلمين فجاء اليهود بعد ذلك يطلبونها، فأمر النبي ﷺ في سماحة بردها إليهم، وعاملهم معاملة حسنة، ولم يقابل إساءاتهم بإساءة، ولم يصنع النبي ﷺ مثلما صنع الرومان حين فتحوا أورشليم؛ حيث أحرقوا الكتب المقدسة.

٢٧- حظر رسول الله ﷺ في فتح مكة الشعارات والهتافات غير الأخلاقية، وعزل سَعْد بْنُ عُبَادَةَ بسبب هتافه بشعارات غير أخلاقية.

٢٨- دخل رسول الله ﷺ مكة في فتحه لها دخولاً رحيمًا متواضعًا خاشعًا. لا دخول فاتح جبار غشوم. وأصدر عفوًا عامًا عن مشركي مكة أطنب في مدحه المستشرقون.

٢٩- أهمية ثبات القائد لحظات النكسة والانهزام من قبل جنوده، ولقد رأينا كيف كان ثبات رسول الله ﷺ يوم حنين لما فر جنوده لما فاجأهم العدو بالسهام من كل مكان في وادي حنين.

٣٠- احترام وتوقير الأرحام، فلما اشتدت مقاومة أهل الطائف وقتلوا مجموعة من المسلمين وأمر النبي ﷺ بتحريق بساتين العنب والنخل في ضواحي الطائف للضغط على ثقيف أوقف رسول الله ﷺ هذا العمل بعد أن ناشدته ثقيف بالله والرحم أن يترك هذا العمل، فقبل النبي ﷺ في سماحة وأوقف أعمال تحريق البساتين.

مقترحات:

١- اقتراح عقد مؤتمر عالمي للتعريف بآداب الحروب في سيرة نبي الإسلام ﷺ:

وهو مؤتمر يهدف إلى تجلية جوانب الرحمة والأخلاق في معارك وغزوات النبي ﷺ، ودفع الافتراءات القديمة والحديثة المتعلقة بحروب النبي ﷺ، ويتم تناول هذا الموضوع في سبعة محاور هي:

المحور الأول: الأخلاق الحربية في السيرة النبوية ﷺ في أدبيات الغرب:

- شهادات علماء الغرب المنصفين في أخلاق النبي ﷺ.
- كيف تحدث علماء الغرب المنصفين عن حروب النبي ﷺ.

المحور الثاني: المنهج النبوي في مجال الحرب والسلام:

- معاهدات السلام النبوية.
- رسائل الملوك.
- حقوق الأسرى.
- معاملة الجرحى والمصابين.
- حقوق المفقودين وذويهم.

المحور الثالث: حروب النبي .. افتراءات وردود:

- حول القتل الجماعي لبني قريظة.
- هل نشر الإسلام بحد السيف؟
- الجزية بين السماحة والتشويه.
- شبهات وردود.

المحور الرابع: "الإعلان الإسلامي لآداب الحروب". تصور مقترح:

- "الإعلان الإسلامي في معاملة أسرى الحرب". تصور مقترح.
- "الإعلان الإسلامي في أسس وآداب معاهدات الحرب". تصور مقترح.
- "الإعلان الإسلامي في شأن المدنيين تحت سيطرة العدو" تصور مقترح.
- "الإعلان الإسلامي في شأن النزاعات غير الدولية" تصور مقترح.

الفترة التحضيرية:

مدة سنة، ويتم دعوة الباحثين والمفكرين والكتاب في جميع أنحاء العالم، للمشاركة في المؤتمر بإعداد الدراسات والبحوث المحكمة حول محاور المؤتمر، من خلال مسابقة عالمية لخدمة المؤتمر.

ويتم توزيع نتائج المؤتمر وتوصياته - مترجمة - على أصحاب القرار والساسة والمثقفين والتربويين والإعلاميين البارزين في أوروبا وأمريكا.

٢- اقتراح مشروع تحت عنوان "ترجمة مائة كتاب في السيرة":

يتم تشكيل لجنة من كبار الباحثين والكتاب والمترجمين الذين أسهموا بكتابات أو بحوث في مجال سيرة النبي ﷺ، لاختيار مائة دراسة عربية حول سيرة النبي ﷺ تتناول حروب النبي ﷺ بشكل مبسط يفهمه المواطن الغربي، ويتم ترجمة هذه الدراسات إلى اللغات الغربية، وتركيز نشر هذه الكتب - بعد ترجمتها - في أوروبا وأمريكا. ويتم استنهاض الداعمين لهذا المشروع من الحكومات العربية والإسلامية ورجال الأعمال.

٣- اقتراح إنشاء مركز بحثي علمي للتعريف بالسيرة النبوية:

وتكون مهمة هذا المركز إنتاج البحوث والدراسات والدوريات والوسائط المتعددة للتعريف بسيرة رسول الله ﷺ باللغات الحية.

٤- اقتراح تدريس السيرة النبوية في المراحل التعليمية:

فتقوم وزارات التربية والتعليم العالي في البلدان الإسلامية، بتشكيل لجان متخصصة لبحث إمكانية تدريس السيرة النبوية في الصفوف الدراسية والجامعية.

٥- اقتراح إنشاء قناة فضائية تكون لسان حال رابطة العالم الإسلامي:

فتقوم هذه القناة بعرض كل ما يتعلق بسيرة النبي ﷺ والتعريف به، من ندوات ومحاضرات، وأفلام، ورسوم متحركة، وكتابات، إضافة إلى مناشط وفعاليات رابطة العالم الإسلامي حرسها الله.

٦- اقتراح مجموعة أفلام سينمائية عالمية للتعريف بغزوات النبي ﷺ:

بحيث توجه هذه الأفلام إلى عامة الشعوب الغربية، بهدف تعريفهم بنبي الإسلام، ويتم عرضها في كبرى دور العرض الأوروبية والأمريكية. ويشترط في هذه الأعمال الفنية أربعة شروط:

الشرط الأول: أن تنضبط بالضوابط الشرعية.

الشرط الثاني: الاستعانة بالكفاءات العالمية من فنانين ومخرجين.

الشرط الثالث: أن ينال الدعم المالي السخي من رجال الأعمال المسلمين.

الشرط الرابع: ألا تحتكر حقوق نشره شركة معينة أو شخص محدد، بل تكون حقوقه ممنوحة لأي إنسان ينشر الفيلم.

٧- اقتراح فقرة إعلانية للتعريف بسيرة الرسول ﷺ:

مدة هذه الفقرة الإعلانية دقيقة واحدة، يتم بثها من خلال كبرى القنوات الأوروبية والغربية. وهي بلا شك تحتاج إلى دعم مالي كبير.

إضافة إلى استئجار عدد من الساعات من مساحة البث في بعض القنوات وتقديم من خلالها برامج تتناول السيرة النبوية.

* * *

الإعلان الإسلامي العالمي في آداب الحروب

" تصور مقترح من الباحث في ظلال الدراسة "

الديباجة:

لما كان الإيمان بوجوب إذكاء الروح الأخلاقية بين أعضاء الأسرة البشرية، والارتقاء بمستوى معاملة الإنسان لأخيه الإنسان من الأسس الإنسانية المهمة التي تحقق مبدأ الاستخلاف في الأرض وإعمارها حق الإعمار.

ولما كان الاعتراف بالكرامة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحرية والعدل والسلام في العالم.

ولما كانت الحروب والمعارك التي دارت وتدور بين بني البشر ما هي إلا صورة واقعية لقانون التدافع بين البشر، ودفع الناس بعضهم ببعض.

فإن على الأسرة البشرية على هذا الكوكب أن تتحاكم إلى هذا الإعلان العالمي في شأن حروبها ونزعاتها العسكرية:

المادة ١

يجب أن يكون القتال بين الناس من أجل دفع الظلم الذي لا يمكن دفعه إلا بقتال أو ورد الحقوق الإنسانية التي لا يمكن استردادها إلا به.

المادة ٢

يجب أن تسهم دساتير الأمم والدول في حسم أي نزاع أو صراع عسكري بين فصائل الدولة أو بين الدولة الواحدة ودول أخرى، بشكل عادل وسلمي قدر الإمكان.

المادة ٣

يجب أن تسمح دساتير الدول والأمم لأصحاب الأديان لاسيما الأقليات بالعيش في أمان داخل الدولة، ولهم أن يقيموا شعائرهم حسب رغبتهم، وعليهم أن يتحدوا مع كافة الفصائل الأخرى لمقاومة وطرد أي عدوان خارجي. ويحظر

على الأقليات فضلاً عن كافة أبناء الشعب التعاون أو التخابر لصالح العدو.

المادة ٤

يجب أن تنص دساتير الدول والأمم على التكافل الاجتماعي بين فصائل الشعب وعلى ردع الخائنين للعهود، واحترام أمان المواطن، وحماية أهل الذمة والأقليات الإسلامية، والحفاظ على الأمن الاجتماعي وضمان الديات، وحق الاستقلال المالي لكل طائفة، والنصح والبر بين الفصائل داخل الدولة، وحرية كل فصيل في عقد الأحلاف التي لا تضر الدولة، ووجوب نصرة المظلوم.

المادة ٥

احترام الأحلاف والمعاهدات والمواثيق المبرمة بين الدول والتي تهدف إلى تحقيق السلام والعدل على كوكب الأرض.

المادة ٦

الاحترام المتبادل بين الدول للحدود الجغرافية المتعارف عليها، والاعتراف بسيادة الدولة على أراضيها.

المادة ٧

احترام الأعراف والتقاليد الدولية التي لا تتعارض مع الشرع الإسلامي الكريم.

المادة ٨

إذا أعلن المجتمع الدولي احتجاجه على سلوك دولة في حق أخرى، فعلى الدولة مرتكبة التجاوز الاعتراف بالخطأ والعمل على إصلاحه.

المادة ٩

عدم الاستعانة بالوثنيين في الجيوش إذا ما كانت الحرب بين أصحاب شرائع سماوية.

المادة ١٠

يجب أن تتسم العلاقة بين القائد وجنوده بالرحمة والمحبة والمشاركة. وعدم إجبار الجنود على ارتكاب جرائم ضد الإنسانية.

المادة ١١

ممارسة الشورى في المراحل الحربية المصيرية واجبة على القادة وهي حق من حقوق الجنود.

المادة ١٢

يحظر استجلاب المعلومات بالعنف أو استخدام التعذيب أثناء التحقيقات مع الأسرى العسكريين أو المدنيين على حد سواء.

المادة ١٣

العمل على تحقيق سياسة "الحوار قبل الصدام" و "حقن الدماء" و "العمل على تحقيق الصالح العام للجيشين المتقاتلين".

المادة ١٤

تكريم القيادات العسكرية الشريفة التي قامت بأعمال إنسانية أو أنشطة خيرية في ميادين القتال.

المادة ١٥

المعاملة الإنسانية لأسرى الحرب واجب شرعي ومطلب إنساني وهدف أخلاقي. ويحظر إجراء أية عمليات مهينة للأسير نفسيًا أو جسميًا.

المادة ١٦

وجوب التعاون الصادق بين الحلفاء، وتحريم الخيانة بينهم، والاتفاق على آلية لردع الخائن ودفع الخيانة.

المادة ١٧

على كل فصيل أو حليف أن يعمل على تقوية الصف الوطني، وإخماد أي محاولة لإذكاء نيران الفتنة، والمحاولة الدائمة لرأب الصدع.

المادة ١٨

يحظر على الحليف استضافة الأعداء على أرض إسلامية إلا بإذن إمام المسلمين.

المادة ١٩

يحظر على جميع أطراف الصراع العسكري إحداث أي انتهاكات إنسانية أو غير أخلاقية، كقتل المدنيين، أو الاعتداء على الأعراض أو إيذاء الأطفال والشيوخ أو التعدي على دور العبادة أو إيذاء من فيها، كما يحظر أي إفساد في المزارع أو المتاجر أو أماكن العمل أو إحداث أي شكل من أشكال السلب والنهب في حق المحايدين.

المادة ٢٠

يجب على الدولة والقيادة العسكرية العمل على توعية الجنود أخلاقيًا، وغرس قيم آداب الحروب في نفوسهم، وتوعيتهم بحقوق أسرى الحرب. واحترام الأعراض والمقدسات.

المادة ٢١

حظر بيع جثث قتلى العدو أو أكل ثمنها، لكن يجوز التفاوض عليها من أجل الإفراج عن أسرى أو تحصيل حق من الحقوق.

المادة ٢٢

المفاوضات وفعاليات الصلح وكتابة وثيقة الاتفاق يجب أن يتراضى فيها الطرفان، فإكراه أي طرف من أطراف الصلح على الموافقة على بند من بنود العقد يبطل العقد كله، وهو غير ملزم للمُكَره أمام المجتمع الدولي.

المادة ٢٣

إذا أخل أحد أطراف الصلح أو المعاهدة بشرط من الشروط الموثقة، فعلى الطرف المتضرر العمل على استرداد حقوقه بالطريقة المشروعة دون إعلام للطرف المخل.

المادة ٢٤

توقير مقدسات العدو، واحترام ثوابته الدينية وتراثه الثقافي وحضارته الإنسانية.

المادة ٢٥:

حظر الهتافات الحربية التي تحض على العنصرية أو تحث على النعرات

العصبية أو القبلية. سواء في ميدان القتال أو في وسائل الإعلام.

المادة ٢٦

العفو العام عن عامة الشعب ومحاكمة مجرمي الحرب من الأسس المهمة في أخلاقيات الفاتحين.

المادة ٢٧

احترام الأرحام وتوقيرها غاية التوقير وعدم المساس بها أثناء الحرب الدائرة.

المادة ٢٨

مبادرة العدو في عقر داره من الحقوق المكفولة للدولة الإسلامية إذا نقضت الدولة المعادية العهد أو اعتدت على أحد المسلمين أوأصبحت خطرًا ماحقًا على أمن الدولة الإسلامية.

* * *

المراجع والمصادر

* إبراهيم خليل أحمد (القس إبراهيم فيلوبوس سابقًا): محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، مكة المكرمة: المكتبة التجارية، ١٤٠٩هـ.

* ابن أبي شيبة (أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي): المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض: مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ .

* ابن الأثير (علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني): الكامل في التاريخ، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

* ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج): صفوة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري - محمد رواس قلعه جي، بيروت: دار المعرفة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.

* ابن القيم (محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي): زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط، بيروت - الكويت: مؤسسة الرسالة - مكتبة المنار الإسلامية -الطبعة الرابعة عشر، ١٤٠٧ هـ-١٩٨٦م.

* ابن القيم (محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي): إغاثة اللهفان، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت: دار المعرفة، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

* ابن حبان (محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي): صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٣م .

* ابن حجر (أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي): فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.

* ابن حزم (علي بن أحمد بن سعيد الظاهري): جوامع السيرة، تحقيق: إحسان عباس، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٠٠ م.

* ابن رجب (أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي): جامع العلوم والحكم، بيروت: دار المعرفة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

* ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع أبو عبدالله البصري الزهري): الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٦٨ م.

* ابن سيد الناس (أبو الفتح محمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن يحيى) (ت ٧٣٤هـ): عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، بيروت: دار الآفاق، ١٩٧٧م.

* ابن عبد البر (بو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري): الاستذكار، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ- ٢٠٠٠ م.

* ابن عساكر (علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي): تاريخ دمشق، تحقيق: علي شيري، دمشق: دار الفكر. د.ت .

* ابن قدامة المقدسي: المغني، دمشق: دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

* ابن كثير(إسماعيل بن عمر): البداية والنهاية، بيروت: مكتبة المعارف، د.ت.

* ابن كثير(إسماعيل بن عمر): السيرة النبوية، بيروت: مكتبة المعارف، د.ت.

* ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، القاهرة: مصر للطباعة، د. ت.

* ابن ماجه (محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني): سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، د.ت.

* أبو الحسن علي الحسني الندوي: السيرة النبوية، دمشق: دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م .

* أبو الشيخ الأصبهاني (عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان)(ت ٣٦٩): أخلاق النبي ﷺ ، د. ط.

* أبو بكر جابر الجزائري: هذا الحبيب محمد رسول الله يا محب، القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ت.

* أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي): سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، د.ت.

* أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.

* أبو يعلى (أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي): مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دمشق: دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

* آتين دينيه وسليمان الجزائري: محمد رسول الله، ترجمة: عبد الحليم محمود ومحمد عبد الحليم محمود، القاهرة: الشركة العربية، الطبعة الثالثة. ١٩٥٩ م.

* أحمد الحجي الكردي: بحوث في علم أصول الفقه، د. ط.

* أحمد أمين: التكامل في الإسلام، د. م: دار المعرفة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، د.ت.

* أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني: المسند، القاهرة: مؤسسة قرطبة، د.ت.

* أحمد ديدات: ماذا يقول الكتاب المقدس و الغرب عن محمد ﷺ، الطبعة الأولى، القاهرة: الدار المصرية للنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ.

* أحمد راتب عرموش: قيادة الرسول السياسية والعسكرية، بيروت: دار النفائس، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

* آرثر جيلمان: الشرق، د. ط.

* آرلونوف: مقالة "النبي محمد"، مجلة الثقافة الروسية، ج ٧، عدد ٩ .

* أرنولد توينبي: الإسلام والعرب والمستقبل، ترجمة: نبيل صبحي الطويل، د.ط.

* أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، الرياض: مكتبة العبيكان، ط٥، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

* الألباني (محمد ناصر الدين): تمام المنة في التعليق على فقه السنة، المكتبة الإسلامية، دار الراية للنشر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.

* الألباني (محمد ناصر الدين): مختصر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.

* الألباني (محمد ناصر الدين): إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل(٨ مجلدات)، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

* الألباني (محمد ناصر الدين): السلسلة الصحيحة، الرياض: مكتبة المعارف، د.ت.

* الألباني (محمد ناصر الدين): صحيح الترغيب والترهيب، الرياض: مكتبة المعارف، الطبعة: الخامسة.

* الألباني (محمد ناصر الدين): صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، بيروت: المكتب الإسلامي، د. ت.

* الألباني (محمد ناصر الدين): ضعيف الترغيب والترهيب، الرياض: مكتبة المعارف، د. ت.

* الألباني (محمد ناصر الدين): ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.

* الألباني(محمد ناصر الدين) : تخريج أحاديث كتاب مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

* البخاري (محمد بن إسماعيل): صحيح البخاري، بيروت: دار ابن كثير، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

* البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر): أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، القاهرة: دار المعارف، د. ت .

* البيهقي (أحمد بن الحسين بن علي بن موسى): سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة: مكتبة دار الباز، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

* البيهقي (أحمد بن الحسين بن علي بن موسى): شعب الإيمان، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

* التبريزي (محمد بن عبد الله الخطيب): مشكاة المصابيح، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني ، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ،١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥م.

* الترمذي (محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي): الجامع الصحيح، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت.

* الترمذي (محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي): مختصر الشمائل، اختصره وحققه: محمد ناصر الدين الألباني، عمان - الأردن: المكتبة الإسلامية.

* الحاكم (محمد بن عبدالله أبو عبدالله النيسابوري): المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م،

* الحلبي (علي بن برهان الدين): السيرة الحلبية، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م .

* الحميدي (عبدالله بن الزبير أبو بكر): مسند الحميدي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت - القاهرة: دار الكتب العلمية، مكتبة المتنبي، د.ت.

* الدارمي (عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد): سنن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ.

* الذهبي (شمس الدين) : تاريخ الإسلام، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري، بيروت : دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٩٩٠ م - ١٤١٠ هـ .

* السهيلي : الروض الأنف، تحقيق : عبد الرحمن الوكيل، القاهرة : ١٩٦٧ م .

* الصالحي (محمد بن يوسف الشامي) (ت ٩٤٣هـ) : سبل الهدى والرشاد في سير خير العباد، تحقيق : مصطفى عبدالواحد. مصر : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، عام ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

* الطبراني (سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم) : المعجم الأوسط، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، القاهرة : دار الحرمين، ١٤١٥ هـ.

* الطبراني (سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم) : المعجم الصغير، تحقيق : محمد شكور محمود الحاج أمرير، بيروت : المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

* الطبراني (سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم) : المعجم الكبير، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد، الموصل : مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م .

* الطبراني (سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم) : مسند الشاميين، بيروت : مؤسسة الرسالة، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

* الطبري(محمد بن جرير أبو جعفر) : تاريخ الأمم والملوك(تاريخ الطبري)، بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٠٧هـ.

* الكتاب المقدس. طبعة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

* الكولونيل بودلي : حياة محمد، لندن، ١٩٤٦م.

* المتقي الهندي (علي بن حسام الدين) : كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩ م .

* المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي المصري): إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، صححه وشرحه: محمود محمد شاكر، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٤١م.

* الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف الكويتية، الكويت.

* النسائي (أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن): المجتبى من السنن، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* الهيثمي (نور الدين علي بن أبي بكر): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت: دار الفكر، ١٤١٢ هـ.

* الواقدي (محمد بن عمر بن واقد) (ت ٢٠٧هـ): المغازي، تحقيق: د. مارسدن جونس، بيروت: عالم الكتب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

* إميل درمنغم: حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة: دار إحياء الكتب، الطبعة الثانية، ١٩٤٩ م.

* إميل درمنغم: حياة محمد، ترجمة: محمد عادلج زُعَيْتِر، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م .

* إنجيل برنابا: ترجمة: خليل سعادة، تقديم: محمد رشيد رضا، القاهرة: دار الفتح للإعلام العربي.

* بريكك محمد بريكك: السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

* توماس كارلايل: الأبطال وعبادة البطل والبطولات في التاريخ، ترجمة: محمد السباعي، القاهرة: كتاب الهلال، العدد ٣٢٦ - صفر ١٣٩٨ .

* جاك ريسلر: الحضارة العربية، ترجمة: خليل أحمد خليل، عويدات للطباعة والنشر. د. ت .

* جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، د. ط .

* جمعة علي الخولي: معاملة الرسول ﷺ لبني قريظة، والرد على ما يثار حولها من شبهات، الرياض: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد ٥٧، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م .

* جورج سارتون: الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، تعريب عمر فروخ، بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٥٢ م.

* جوستاف لوبون: الدين والحياة، ترجمة عادل زعيتر، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م .

* جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات و النشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م .

* جون وليام دريبر: تاريخ التطور الفكري الأوروبي، المجلد الأول، طبعة لندن، ١٨٧٥م.

* حسن عزوزي: الإسلام وترسيخ ثقافة الحوار الحضاري، مجلة البلاغ، يناير، ٢٠٠٧م.

* حسين الشيخ خضر الظالمي العراقي: قالوا في الإسلام، د. ط.

* حسين محمد يوسف: سيد الدعاة ﷺ، القاهرة: دار الإنسان، القاهرة ط. ١٣٩٩هـ.

* ديفيد بنجامين (عبد الأحد داود): محمد في الكتاب المقدس، ترجمة: فهمي شما، مراجعة: أحمد محمد الصديق. مطابع الدوحة الحديثة، د. ت.

* ديوان شند شرمة: أنبياء الشرق، طبعة كلكتا، ١٩٣٥م.

* رالف لنتون: شجرة الحضارة، ترجمة أحمد فخري، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت.

* روجيه جارودي: دعوة الإسلام، ترجمة ذوقان قرقوط، القاهرة / بيروت: الوطن العربي، ١٩٨٤ م .

* رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية،

ترجمة: مصطفى ماهر - القاهرة ١٩٦٧م.

* زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، تعريب: فؤاد حسنين علي، القاهرة: دار المعارف. د.ت.

* ستانورد كب: المسلمون في تاريخ الحضارة، الرياض: الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٣٠٥هـ - ١٩٨٥م.

* ستيفن ونسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، بيروت: مكتبة الحياة، ١٤١٣هـ -١٩٩٣م.

* سيد قطب: معركة الإسلام والرأسمالية، القاهرة: دار الشروق، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

* سيد قطب: في ظلال القرآن، القاهرة: دار الشروق، ط ١٦ ، ٢٠٠٠م.

* سير توماس أرنولد (إشراف): تراث الإسلام ، بيروت : دار الطليعة، ١٩٧٢م.

* شاخت وبوزورت: تراث الإسلام، ترجمة: د.حسين مؤنس وإحسان صدقي، عالم المعرفة، الجزء الأول، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والعلوم والآداب.

* شوقي أبو خليل: الإسلام في قفص الاتهام، دمشق: دار الفكر، الطبعة الثانية. د.ت.

* صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، المنصورة: دار الوفاء: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

* عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، القاهرة: كتاب الهلال، د.ت.

* عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، القاهرة: المكتبة العصرية- الدار النموذجية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

* عبدالعزيز بن عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر عبد الله،

الإسكندرية: دار الدعوة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ -١٩٩٨م.

* عبد الله بن جار الله بن إبراهيم آل جار الله: كمال الدين الإسلامي وحقيقته ومزاياه، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ .

* عبد الله محمد الرشيد: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ، دمشق: دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٠م.

* عبد الله ناصح علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوروبية، القاهرة: دار السلام، ط ٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

* عدنان النحوي: ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية، د. ط.

* عفيف عبد الفتاح طبارة: روح الدين الإسلامي، بيروت: مطبعة دار العلم للملايين، الطبعة الثامنة، ١٩٦٩م.

* علي بن عبدالخالق القرني: إيماض البرق في خلق سيد الخلق صلى وسلم عليه الحق، كتاب إلكتروني على موقع صيد الفوائد، د. ت.

* علي محمد الصلابي: السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث، القاهرة: مؤسسة اقرأ، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

* عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة عشرة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

* عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام، الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

* فريد عبد الخالق: في الفقه السياسي الإسلامي، القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م.

* فيليب حتي: تاريخ العرب، ترجمة: إدوارد جرجي وجبرائيل جبور، بيروت، ١٩٦٥ م.

* كونستانس جيورجيو: نظرة جديدة في سيرة رسول الله، تعريب: محمد

التونجي، د. م: الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

* لايتنر: دين الإسلام، ترجمة: عبدالوهاب سليم، دمشق: المكتبة السلفية، دمشق، ١٤٢٣هـ.

* لورافيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام، ترجمة: منير بعلبكي، بيروت: دار العلم، ١٩٦٠م.

* لويس سيديو: خلاصة تاريخ العرب العام: إشرف علي مبارك باشا، القاهرة، د.ت.

* مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام، ترجمة: عفيف دمشقية، بيروت: دار الآداب، ١٩٨٠ م.

* مالك بن أنس (٩٣: ١٧٩ هـ): الموطأ، بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، ٢٠٠٤م.

* محمد أبو شهبة: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، دمشق: دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

* محمد أبي زهرة: خاتم النبيين ﷺ، بيروت: دار الفكر، الطبعة الأولى ١٩٧٢م.

* محمد أحمد باشميل: غزوة تبوك، دار الفكر، الطبعة الثالثة، د.ت.

* محمد أحمد باشميل: صلح الحديبية، بيروت: دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٣م - ١٣٩٣هـ.

* محمد الخضري: تاريخ التشريع الإسلامي، القاهرة: مطبعة الاستقلال، الطبعة السابعة، ١٩٦٠م.

* محمد الديك: المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، عمان - الأردن، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

* محمد الغزالي: فقه السيرة، القاهرة: دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

* محمد أمين حسن: خصائص الدعوة الإسلامية، الأردن: مكتبة المنار، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

* محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي: مسند الشهاب، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م.

* محمد بن عبد الله السحيم: أعظم إنسان في الكتب السماوية، القاهرة: منشورات مكتبة الخانجي، د.ت.

* محمد بن عبد الوهاب: مختصر سيرة الرسول ﷺ، الرياض: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

* محمد حسام الدين الخطيب: نبي المسلمين، ودين الإسلام، والحضارة الإسلامية، المشاركة الفائزة بالجائزة الثانية بمسابقة موقع الألوكة: (انصر نبيك وكن داعياً)، فرع البحث العلمي، ٧/ ١١/ ١٤٢٧هـ - ٢٧/ ١١/ ٢٠٠٦ م.

* محمد حميد الله: الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت: دار النفائس، الطبعة السابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

* محمد خير هيكل: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، عمان: دار البيارق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

* محمد رجب البيومي: مجلة الحج، العدد ١٢ السنة ٨٨.

* محمد سعيد رمضان البوطي: فقه السيرة، القاهرة: دار السلام ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

* محمد شريف الشيباني: الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، د.ط.

* محمد عبد القادر أبو فارس: السيرة النبوية دراسة تحليلية، عمان: دار الفرقان، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ - ١٩٩٧م.

* محمد عبد القادر أبو فارس: غزوة الحديبية: عمان: دار الفرقان، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ - ١٩٩٧م.

* محمد عبد القادر أبو فارس: النظام السياسي في الإسلام، الكويت: الاتحاد الإسلامي العالمي، ١٩٨٤م .

* محمد عثمان عثمان: محمد في الآداب العالمية المنصفة، د.ط.

* محمد عزت الطهطاوي: محمد نبي الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن، القاهرة: مكتبة النور، د. ت.

* محمد علي الخطيب: رسول الله ﷺ الرحمة المهداة، البحث الفائز بالجائزة الرابعة بمسابقة موقع الألوكة: (انصر نبيَّك وكن داعياً)، فرع البحث العلمي. ٨/ ١١/ ١٤٢٧ هـ - ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٦ م .

* محمد فتح الله كولن: النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، ترجمة وتحقيق: لينا عبد القدوس أبو صالح، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٩م .

* محمد مسعد ياقوت: " دور النبي ﷺ في تحضر العرب "، المقالة الفائزة بمسابقة " انصر نبيك وكن داعياً " من الموقع الإسلامي " الألوكة ". فرع المقالة الصحفية- ٢٠٠٦م .

* محمد مسعد ياقوت: حوار الحضارات: الموجود والمفقود والمنشود، القاهرة: منظمة الكتاب الأفريقيين والأسيويين، أغسطس ٢٠٠٥م. مسابقة مبارك العالمية للسلام والتنمية.

* محمد مسعد ياقوت: دور الإسلام في مشروع حوار الحضارات، مجلة المجتمع، الكويت، العدد ١٦٦٧ بتاريخ ١٩/ ١١/ ٢٠٠٥م .

* محمد مسعد ياقوت: نبي الرحمة، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

* مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

* مصطفى السباعي: السيرة النبوية دروس وعبر، بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة التاسعة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* ممدوح إبراهيم الطنطاوي: أخلاقيات الحرب في الإسلام، مجلة الجندي المسلم: العسكرية الإسلامية العدد ١١٢ .

* منير محمد الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية، المنصورة: الطبعة الخامسة عشرة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

* مولانا محمد علي: حياة محمد وسيرته، ترجمة: منير البعلبكي، بيروت: دارالعلم للملايين، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.

* هنري ماسيه: الإسلام، بيروت: منشورات عويدات، ١٩٨٨م.

* ول ديورانت: قصة الحضارة، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

* يوسف القرضاوي: خطابنا الإسلامي في عصر العولمة، القاهرة: دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م .

* * *

الكاتب في سطور

محمد مسعد ياقوت - كاتب وداعية إسلامي مقيم في مصر.

المشرف العام على موقع نبي الرحمة

www.nabialrahma.com

البريد الإلكتروني: yakoote@gmail.com

الموقع الشخصي: yakut.blogspot.com

جوال مكتب ٠١٠٤٤٢٠٥٣٩(٠٠٢)

الخبرات والأعمال التي قام بها:

- باحث في النطاق الشرعي بشبكة إسلام أون لاين www.islamonline.net

- مستشار تربوي بموقع المستشار www.almostshar.com

- باحث متفرغ لإعداد مشروع علمي في مؤسسة أحمد بهاء الدين.

- كاتب في مجلة آراء حول الخليج، الصادرة عن مركز الخليج للأبحاث بالإمارات العربية المتحدة.

- أعد سلسلة حلقات فضائية في قناة الأمة الفضائية، عن أخلاقيات الحرب في الإسلام.

- قدم سلسلة حلقات عن الثقافة العلمية وأزمة البحث العلمي في التليفزيون المصري.

-كاتب مشارك في العديد من المجلات العربية والإسلامية، منها مجلة البيان (تصدر من لندن)، والمعرفة (تصدر من الرياض)، والرسالة (تصدر من مصر)، ومجلة العربي الحر (تصدر من أمريكا)، ومجلة علوم إنسانية (تصدر من أمريكا)

والمجتمع الكويتية.

- مؤسس مشروع نبي الرحمة الخيري للتعريف بالإسلام على شبكة الإنترنت.

- ألقى العديد من المحاضرات الفكرية والثقافية في العديد من المحافل.

المؤلفات:

- نبي الرحمة. الرسالة والإنسان، مطبوع.

- حوار الحضارات: الموجود والمفقود والمنشود، بحث مقدم إلى منظمة الكتاب الأفريقيين والأسيويين، أغسطس ٢٠٠٥م.

- هروب النخب العلمية، بين واقع النزيف وسبل العلاج: بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي العاشر للندوة العالمية للشباب الإسلامي، " الشباب وبناء المستقبل".

- صفات رجل البر، تحت الطبع.

- عناية الكتاب والسنة بالمسجد الأقصى المبارك، تحت الطبع.

- حق النصرة للشعب الفلسطيني ماديًا ومعنويًا، تحت الطبع.

- مشاركة الشباب العربي في العمل السياسي - بين الواقع والمأمول، تحت الإعداد.

- قصص قصيرة منشورة في المجلات والصحف، مثل: [بار أحرنوت - سجين رأي - المسكن الشعبي - على الطريقة الفيدرالية - السجينة - طوابير النهضة - ملحمة شاعر].

-صنائع المعروف، ثلاثون بابًا من أبواب الخير، القاهرة، دار النشر للجامعات، ٢٠٠٧ م.

- أزمة البحث العلمي في مصر والوطن العربي، القاهرة: دار النشر للجامعات، الطبعة الأولى، يناير ٢٠٠٧م.

الجوائز:

- حصل على جائزة أحمد بهاء الدين الثقافية، الدورة الثامنة ٢٠٠٥، عن

كتاب أزمة البحث العلمي في مصر والوطن العربي .

– حصل على جائزة موقع المرأة " لها أون لاين "للثقافة و الإبداع، عن بحث: " الاختلاط وأثره على التحصيل العلمي و الابتكار " عام ٢٠٠٤، تحت رعاية مؤسسة الوقف الإسلامي السعودية.

– حصل على جائزة أفضل مقالة صحفية، في مسابقة " انصر نبيك " من موقع الألوكة، عن مقال: " دور النبي ﷺ في تحضر العرب"، ٢٠٠٦م .

– حصل على منحة تفرغ للإبداع من وزارة الثقافة المصرية – العام ٢٠٠٦/ ٢٠٠٧م.

* * *

فهرس

***